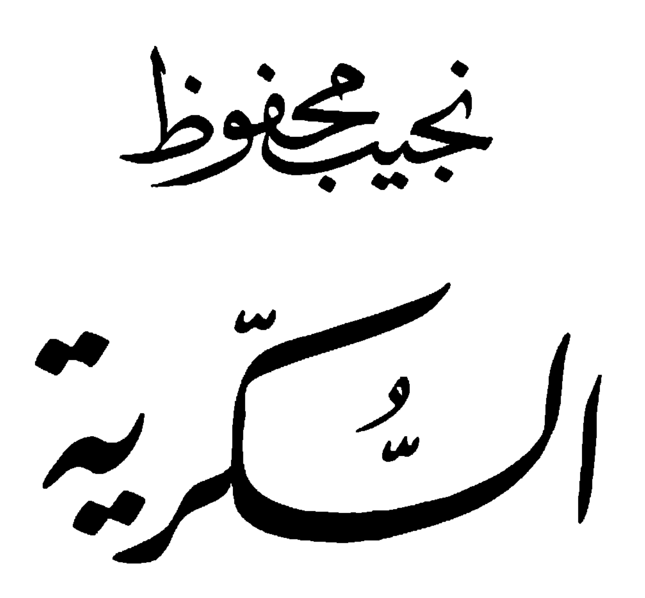
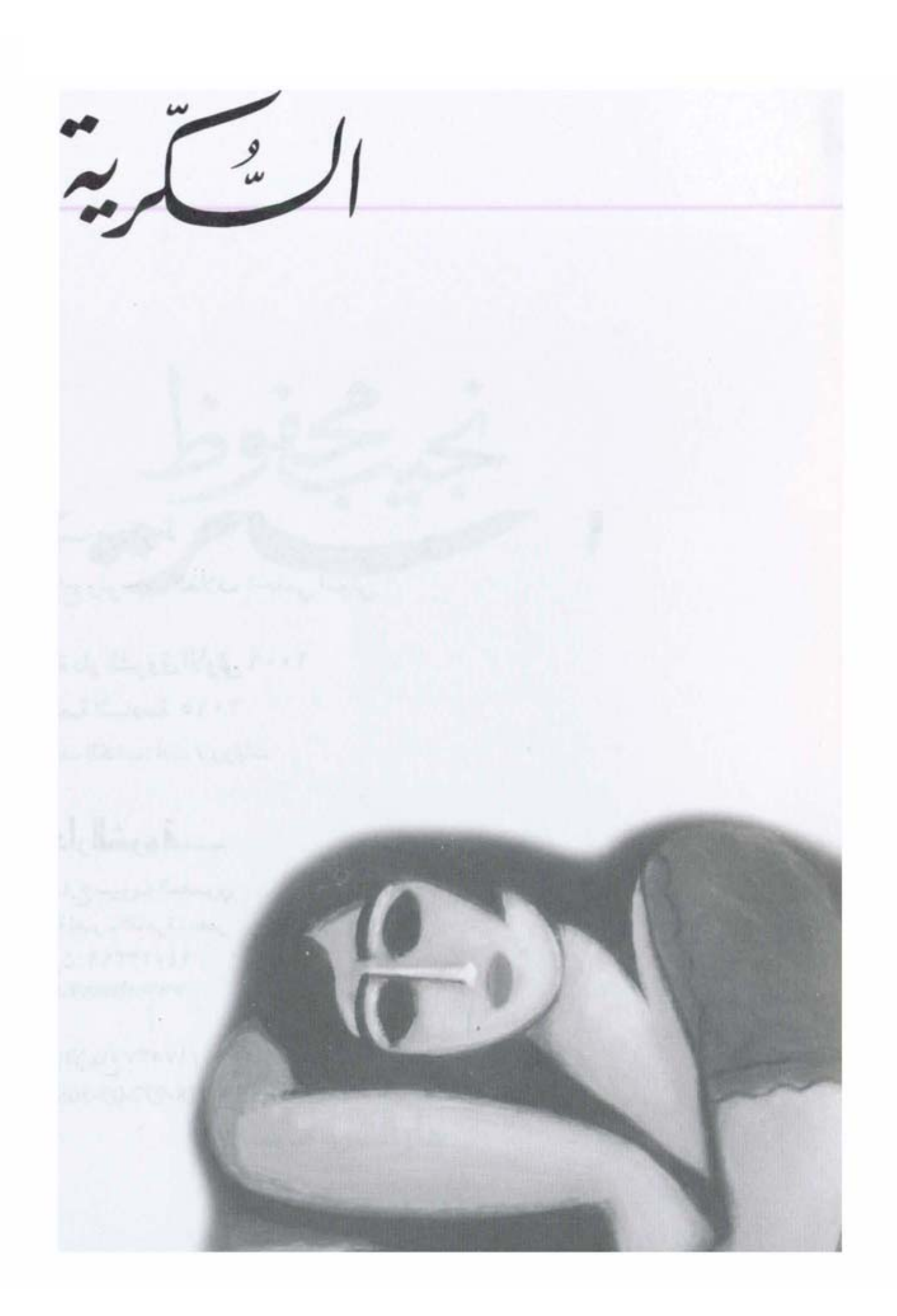
نجيب محفوظ

السُّكَّرية





دار الشروق


السّكّرية

السكرية

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

الطبعـة السادسة ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / روايات

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٢٠١١/١٧٥٣٧
ISBN 978-977-09-3084-7

١

تقاربت الرءوس حول المجمرة وانبسطت فوق وهجها الأيدى، يدا أمينة النحيلتان المعروقتان، ويدا عائشة المتحجرتان، ويدا أم حنفى اللتان بدتا كغطاء السلحفاة، وأما هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يدى نعيمة. وكان برد يناير يكاد يتجمد ثلجا فى أركان الصالة، تلك الصالة التى بقيت على حالها القديم بحُصرها الملونة وكنباتها الموزعة على الأركان، إلا أن الفانوس القديم بمصباحه الغازى قد اختفى وتدلى مكانه من السقف مصباح كهربائى، كذلك تغير المكان فقد رجع مجلس القهوة إلى الدور الأول. بل انتقل الدور الأعلى جميعه إلى هذا الدور تيسيرا للأب الذى لم يعد قلبه يسعفه على ارتقاء السلم العالى. ثمة تغير أدرك أهل البيت أنفسهم، فقد جف عود أمينة واشتعل رأسها شيبا، ومع أنها لم تكد تبلغ الستين إلا أنها بدت أكبر من ذلك بعشر، ولكن تغير أمينة كان لا شىء بالقياس إلى ما جرى لعائشة من تدهور وانحلال، كان مما يدعو إلى السخرية أو الرثاء أن شعرها لم يزل مذهبا وعينيها زرقاوان، ولكن هذه النظرة الخامدة لا توحى بحياة وهذه البشرة الشاحبة بأى مرض تنضح؟، وهذا الوجه الذى نتأت عظامه وغارت فيه العينان والوجنتان أهو وجه امرأة فى الرابعة والثلاثين؟، وأما أم حنفى فبدا أن الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهرها، لم تكد تمس لحمها وشحمها فتكاثفت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وثغرها. غير أن عينيها الساهمتين لاحتا مشاركتين لأهل البيت فى

حزنهم الصامت. نعيمة وحدها بدت فى هذه المجموعة كالوردة المغروسة فى حوش مقبرة، استوت شابة جميلة فى السادسة عشرة من عمرها، مجللة الشعر بهالة ذهبية، مزينة الوجه بعينين زرقاوين، كعائشة فى شبابها أو أفتن ملاحة، ولكنها كانت نحيفة رقيقة كالخيال، تعكس عيناها نظرة وديعة حالمة تقطر طهارة وسذاجة وغرابة عن هذا العالم، وكانت ملتصقة بمنكب أمها كأنها لا تود أن تفارقها لحظة.

وقالت أم حنفى وهى تفرك يديها فوق المجمرة:

- سينزل البناءون عن العمارة فى هذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل....

فقالت نعيمة فى نغمة ساخرة:

- عمارة عم بيومى الشرباتلى...

ارتفعت عينا عائشة عن المجمرة إلى وجه أم حنفى لحظة ولكنها لم تعلق بكلمة، قد علموا فى حينه بهدم البيت الذى كان يوما بيت السيد محمد رضوان ثم إعادة بنائه عمارة مكونة من أربعة أدوار باسم عم بيومى الشرباتلى، تلك الذكريات القديمة، مريم وياسين ولكن ترى أين مريم، وأم مريم وبيومى الشرباتلى الذى استولى على البيت بالوراثة والشراء، أيام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البال! وعادت أم حنفى تقول:

- أجمل ما فيها ياستى دكان عم بيومى الجديدة، ثريات ودندرمة وحلوى، كلها مرايا وكهرباء، والراديو ليل نهار، يا عينى على حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولى اللبان وأبو سريع صاحب المقلى وهم ينظرون من دكاكينهم البالية إلى دكان زميلهم القديم وعمارته..

فقالت أمينة وهى تشبك الشال حول منكبيها:

ـ سبحان ربك الوهاب . .

فعادت نعيمة تقول وهى تحيط عنق أمها بذراعيها :

ـ سد جدار العمارة سطحنا من هذه الناحية ، وإذا عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نمضى الوقت فوق السطح؟

لم يكن فى وسع أمينة أن تتجاهل سؤالا توجهه حفيدتها الجميلة مراعاة لخاطر عائشة قبل كل شىء فقالت :

ـ لا يهمك السكان ، امرحى كيف شئت . .

واسترقت النظر إلى عائشة لترى وقع إجابتها اللطيفة ، إذ أنها باتت من شدة الخوف عليها وكأنما تخافها ، ولكن عائشة كانت مشغولة فى تلك اللحظة بالتطلع إلى مرآة فوق نضد بين حجرة السيد وحجرتها ، لم تزايلها عادة التطلع إلى المرآة وإن لم يعد لها معنى ، وبمرور الزمن لم يعد يروعها منظر وجهها الضحل ، وكلما سألها صوت باطنى «أين عائشة زمان؟» أجابت دون اكتراث «وأين محمد وعثمان وخليل؟» ، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فينقبض قلبها ، وسرعان ما يسرى الانقباض إلى أم حنفى التى اندمجت فى الأسرة حتى ورثت عنها همومها .

ونهضت نعيمة إلى الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفرة وأدارت مفتاحه وهى تقول :

ـ ميعاد إذاعة الاسطوانات يا ماما . . . .

وأشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفسا عميقا ، وجعلت أمينة ترنو إلى الدخان وهو ينبسط سحابة خفيفة فوق المجمرة ، وانبعث من الراديو صوت يغنى «يا عشرة الماضى الجميل يا ريت تعودى» . وعادت نعيمة إلى مجلسها وهى تحبك الروب حول جسمها . كانت ـ كأمها فى الزمان الخالى ـ تهوى الغناء . وُهبت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت حسن . لم ينل من هذا الهوى شعورها الدينى الذى غلب على

كافة مشاعرها، فهى تواظب على الصلاة، وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة، وتحلم كثيرا بعالم الغيب، وترحب بغبطة لا حد لها بزيارة الحسين إذا دعتها جدتها إليها، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقلع عن حب الغناء، فهى تغنى كلما خلت إلى نفسها فى حجرتها أو فى الحمام.
وكانت عائشة ترضى عن كل ما يصدر عن وحيدتها، الأمل المضىء فى أفقها المظلم، تعجب بتدينها كما تعجب بصوتها، وحتى عن التصاق الفتاة بها - ذلك الالتصاق الذى بدا خارقا للحد - فهى تشجعه وتحبه ولا تطيق أن تسمع عنه أية ملاحظة، بل هى تضيق بالنقد عامة وإن هان وحسن القصد فيه. من ذلك أنه لم يكن لها من عمل فى البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين، فإذا دعتها أمها إلى المشاركة فى عمل - لا لحاجتها إلى مساعدتها ولكن لتخلق لها ما تتسلى به عن أفكارها - امتعضت وقالت جملتها المشهورة «أف.. دعينى وشأنى». ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمد للعمل يدا، كأنما كانت تخاف عليها أقل حركة، ولو أمكن أن تصلى نيابة عنها لفعلت وكفتها جهد الصلاة. وكم من مرة حدثتها أمها فى هذا الشأن قائلة إن نعيمة أصبحت «عروسا» وينبغى لها أن تلم بواجبات «ست البيت» فكانت تقول لها بصوت ينم عن الضجر «ألا ترينها كالخيال؟». إن ابنتى لن تتحمل أى جهد فدعيها وشأنها، لم يعد لى من أمل فى الدنيا سواها، ولم تكن أمينة لتعيد القول. كان قلبها يتقطع حزنا عليها، وتنظر إليها فتجدها مثالا مجسما لخيبة الأمل، وترى وجهها التعيس الذى فقد كل معنى للحياة فتذهب نفسها حسرات، لذلك أشفقت من مضايقتها، ولذلك اعتادت أن تتحمل ما قد ينم عنها من جفاء فى الرد أو قسوة فى الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح. لم يزل الصوت يغنى «يا عشرة الماضى الجميل».
وجعلت عائشة تدخن سيجارتها وتصغى إليه. هذا الغناء الذى كانت تحبه، ولا زالت تحبه، فالحزن واليأس لم يقتلا الإحساس به، بل لعلهما قوياه فى نفسها بما يردده عادة من معانى الشجن والحسرات، ولو أن

شيئا فى الوجود ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضى الجميل، بل إنها لتتساءل أحيانا أكان هذا الماضى حقيقة لا حلما ولا خيالا؟ إذن أين البيت العامر؟ وأين الزواج الكريم؟ وأين عثمان وأين محمد؟! وهل لا يفصلها عن ذلك الماضى إلا ثمانية أعوام؟. ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه الأغانى إلا فى النادر. إن فضيلة الراديو الأولى فى نظرها أنه أتاح لها سماع القرآن الكريم والأخبار، أما الأغانى فكانت تجزع عند تلقى معانيها الحزينة وتشفق على ابنتها من سماعها حتى قالت مرة لأم حنفى «أليس هذا هو النواح؟». كانت لا تنى عن التفكير فى عائشة حتى كادت تنسى ما أخذ ينتابها هى من أعراض الضغط ومتاعبه، ولم تكن تجد فرجة إلا فى زيارة الحسين وغيره من الأولياء، وشكرا للسيد الذى لم يعد يحجر عليها فتركها تنطلق إلى بيوت الله كما تحب. لم تعد ـ هى أيضا ـ أمينة العهد الماضى. غيرها كثيرا الحزن والتوعك. وقد فقدت مع الزمان مثابرتها العجيبة على العمل وطاقتها الخارقة فى التنسيق والتنظيف والتدبير، ففيما عدا شئون السيد كمال لم تكن تعنى بشىء. عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأم حنفى، قانعة بالإشراف وحده، وحتى الإشراف كانت تتهاون فيه. وكانت ثقتها فى أم حنفى لا حد لها، فليست هى بالغريبة عن الدار وأهلها، ثم أنها شريكة العمر ورفيقة السراء والضراء، وقد اندمجت فى الأسرة حتى صارت قطعة منها، وتمثلت بكل قلبها مسراتها وأحزانها. وساد الصمت حينا كأنما استأثر الغناء بوعيهم، حتى قالت نعيمة:

ـ لمحت فى الطريق اليوم صديقتى سلمى، كانت معى فى الابتدائية، وستتقدم العام المقبل فى امتحان البكالوريا..

فقالت عائشة بامتعاض:

ـ لو سمح جدك لك بالاستمرار فى الدراسة لتفوقت عليها، ولكنه لم يسمح!

وفطنت أمينة لما أوحت به جملة «ولكنه لم يسمح» من الاحتجاج فقالت:

ـ جدها له آراؤه التى لا ينزل عنها، ترى أكنت ترحبين باستمرارها فى التعليم رغم ما فى ذلك من تعب وهى العزيزة الرقيقة التى لا تتحمل التعب؟ . .

فهزت عائشة رأسها دون أن تنبس، أما نعيمة فقالت بحسرة:

ـ وددت لو أتممت تعليمى، كل البنات يتعلمن اليوم كالصبيان . .

فقالت أم حنفى باحتقار:

ـ يتعلمن لأنهن لا يجدن العريس، أما الجميلة مثلك . .

فهزت أمينة رأسها موافقة ثم قالت:

ـ وأنت متعلمة يا ست البنات. حائزة على الابتدائية، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ ولست فى حاجة إلى الوظيفة، فلندع الله أن يقويك وأن يكسو جمالك الفتان بالعافية واللحم والدهن.

فقالت عائشة بحدة:

ـ أريد لها العافية لا السمانة، السمانة من العيوب خاصة فى البنات، أمها كانت زين أيامها ولم تكن سمينة.

فابتسمت أمينة وقالت برقة:

ـ حقا أمك يا نعيمة كانت زين أيامها . .

فقالت عائشة وهى تتنهد:

ـ ثم صارت عبرة الأيام!

فغمغمت أم حنفى:

ـ ربنا يفرحك بنعيمة . .

فقالت أمينة وهى تربت على ظهر نعيمة بحنان:

ـ آمين يارب العالمين . .

وعدن إلى الصمت، وإلى سماع الصوت الجديد الذى كان يغنى «أحب اشوفك كل يوم»، وإذا بباب البيت يفتح ثم يغلق فقالت أم حنفى «سيدى الكبير» وقامت مسرعة إلى الخارج لتضىء مصباح السلم. وما لبثن أن سمعن دقات عصاه المعهودة، ثم تراءى عند مدخل الصالة فوقفن جميعا فى أدب. ووقف قليلا ينظر إليهن خلال أنفاسه المبهورة ثم قال: «مساء الخير» فرددن فى صوت واحد: «يسعد مساك»، وسبقت أمينة إلى حجرته فأضاءتها، ومضى الرجل على أثرها فى هالة من وقار الشيخوخة البيضاء. وجلس كى يسترد أنفاسه. ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء. ظلت أناقته كما كانت فى الماضى، فالجبة الجوخ والقفطان الشاهى والكوفية الحرير كالعهد القديم، أما هذا الرأس المرصع بالبياض، والشارب الفضى، والجسم النحيل الذى خلا من سكانه، فكانت جميعا ـ كعودته المبكرة ـ من طوارىء الزمن الجديد. ومن طوارىء هذا الزمن أيضا سلطانية اللبن الزبادى والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خمر ولا مزة ولا لحوم ولا بيض، وإن بقى بريق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته فى الحياة لم تفتر ولم تهن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمعتاد، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلفع بالعباءة ولبس طاقيته ثم تربع على الكنبة. وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس، ثم قدمت له أمينة قدحا مملوءا حتى نصفه بالماء فأخذ زجاجة الدواء وسكب فى القدح ست نقط، ثم تجرعه بوجه مقطب متقزز، ثم تمتم «الحمد لله رب العالمين». طالما قال له الطبيب أن الدواء مؤقت أما «الرجيم» فدائم، وطالما حذره من الاستهتار أو الإهمال، فالضغط قد استفحل، والقلب قد تأثر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليمات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرة خرج عن حده حتى تداركه الجزاء، وأخيرا أذعن لحكمه،

لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل فى أن يسترد يوما ـ بقدرة قادر ـ صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة، وإن تكن حياة الماضى قد ولت إلى الأبد.
وامتدت أذنه إلى الغناء المترامى من الراديو فى ارتياح، وكانت أمينة تحدثه من مجلسها فوق الشلتة عن برد اليوم والمطر الذى انهمر فى الضحى فلم يلق إليها بالا وقال فى سرور:

ـ قيل لى أنه ستذاع الليلة بعض الأغانى القديمة..

فابتسمت المرأة فى ترحيب إذ كانت تحب هذا اللون من الغناء، ربما متابعة لحب السيد له أكثر من أى شيء آخر، ولبث السرور متألقا فى عينى الرجل لحظات حتى أدركه فتور. لم يعد بمستطيع أن ينعم بشعور سار دون تحفظ، أو دون أن ينقلب عليه فجأة فيستيقظ من حلمه مرتطما بالواقع، الواقع يحدق به من جميع النواحى، أما الماضى فحلم، فيم السرور وقد ولت إلى الأبد أيام الأنس والطرب والعافية؟ وانطوى اللذيذ من المأكل والمشرب والهناء؟ وأين مسيره فى الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعماق؟ وطلوع الفجر عليه وهو ثمل بشتى المسرات؟ اليوم يقضى عليه بأن يعود من سهرته فى التاسعة كى ينام فى العاشرة والأكل والشرب والمشى بحساب دقيق مسجل فى دفتر الطبيب، وهكذا البيت الذى غشاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه، وعائشة التعيسة شوكة فى جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياتها وهيهات أن يطمئن على حالها، أليس قد ينكشف عنها الغد وحيدة بائسة بلا أب ولا أم؟ وما يعانيه من قلق على صحته هو المهددة بالمضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس بميت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبائه، وهذه الأفكار التى تحوم حوله كالذباب فيستعيذ بالله من شرها، أجل ينبغى أن يسمع الأغانى القديمة ولو لينام على الأنغام..

ـ اتركى الراديو مفتوحا حتى لو نمت . .

فهزت رأسها بالإيجاب باسمة ,فعاد يقول متنهدا .

ـ ما أشق السلم على!

ـ استرح يا سيدى عند كل بسطة . .

ـ لكن جو السلم شديد الرطوبة، ما ألعن هذا الشتاء . . «ثم متسائلا» . . أراهن على أنك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد . .

فقالت فى حياء وارتباك :

ـ فى سبيل زيارته يهون كل صعب يا سيدى . .

ـ الحق على وحدى!

فقالت فى استرضاء :

ـ إنى أطوف بالضريح الطاهر وأدعو لك بالصحة والعافية .

ما أمس حاجته إلى صادق الدعاء، فكل طيب يدبر عنه، حتى الدش البارد الذى اعتاد أن ينعش به جسده كل صباح حرم عليه لخطورته ـ فيما قيل ـ على شرايينه، وإذا صار كل طيب ضارا فليرحمنا الله . ومضى وقت قصير ثم ترامت إلى الحجرة صفقة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمينة عينيها متمتمة «كمال» . ولم تكد تمر دقائق حتى دخل كمال الحجرة فى معطفه الأسود الذى نم على نحافته وطوله، يتطلع إلى أبيه خلال نظارته الذهبية، وقد أضفى عليه شاربه المربع الغزير الأسود وقارا ورجولة . انحنى على يد والده مسلما فدعاه إلى الجلوس وهو يسأله كالعادة باسما :

ـ أين كنت يا أستاذ؟

وكان كمال يحب هذه اللهجة الودية اللطيفة التى لم يحظ بها إلا بعد عمر طويل، فأجاب وهو يجلس على الكنبة :

- كنت فى القهوة مع الأصحاب .

ترى أى نوع من الأصحاب؟ بيد أنه يبدو جادا رزينا وقورا أكثر من سنه، ثم إن أكثر لياليه تقضى فى مكتبته، شتان ما بينه وبين ياسين، وإن كان لكل آفته، وعاد يسأله باسما :

- أشهدت اليوم المؤتمر الوفدى؟

- نعم، وسمعنا خطبة مصطفى النحاس، كان يوما مشهودا .

- قيل لنا أنه كان حدثا عظيما ولكنى لم استطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة لأحد الأصدقاء، لم تعد الصحة تحتمل التعب . .

فداخل كمال العطف وتمتم :

- ربنا يقويك . .

- ألم تقع حوادث؟

- كلا مر اليوم بسلام، واكتفى البوليس بخلاف عادته بالمراقبة . .

فهز الرجل رأسه فى ارتياح، ثم قال فى لهجة ذات معنى :

- نعود لموضعنا القديم، ألا زلت عند رأيك الخاطىء عن الدروس الخصوصية؟!

لم يزل يشعر بالارتباك والحرج كلما وجد نفسه مضطرا إلى إعلان مخالفته لرأى والده، فقال برقة :

- لقد انتهينا من هذا الموضوع!

- فى كل يوم يطلب إلىَّ أصدقاء أن تعطى دروسا خصوصية لأبنائهم، لا ترفض الرزق الحلال، إن الدروس الخصوصية مصدر رزق واسع للمدرسين، والذين يطلبونك من أعيان الحى . .

فلم ينبس كمال بكلمة وإن نطق وجهه بالرفض المؤدب، فعاد الرجل يقول متأسفا :

ـ تأبى هذا كى تضيع وقتك فى قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر، أيصح هذا من عاقل مثلك؟

وهنا خاطبت أمينة كمال قائلة:

ـ ينبغى أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجهة الخطاب إلى السيد وهى تبتسم فى خيلاء) إنه كجده لا يعدل بحب العلم شيئا..

فقال السيد متأففا:

ـ رجعنا إلى جده! يعنى كان الإمام محمد عبده؟!

ومع أنها لم تعرف شيئا عن الإمام إلا أنها قالت بحماس:

ـ لم لا يا سيدى؟! كان كل الجيران يقصدونه فى شئون دينهم ودنياهم!

فغلبت روح الفكاهة على السيد فقال ضاحكا:

ـ مثله الآن كل عشرة بقرش!

واحتج وجه المرأة دون لسانها. وابتسم كمال بعطف وارتباك، واستأذن فى الانصراف ثم غادر الحجرة. وفى الصالة اعترضت نعيمة طريقه لتريه فستانها الجديد، وذهبت لتجىء به، فجلس إلى جانب عائشة ينتظر، كان ـ كبقية أهل البيت ـ يجامل عائشة فى شخص نعيمة ولكنه إلى هذا كان معجبًا بالفتاة الحسناء اعجابه بأمها قديما وجاءت نعيمة بالفستان فبسطه على يديه وراح يتفحصه وهو يبدى الإعجاب، وكان يتأمل صاحبة الفستان بعطف وحب. مأخوذا بجمالها البديع الهادىء الذى اكتسى من صفائها ورقتها نورانية ذات بهاء. ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن، إن مصاحبة أسرة حتى شيخوختها لمما يحزن. ليس مما يهون أن يرى أباه فى وهنه بعد سطوة وجبروت أو يرى ذبول أمه وتواريها وراء الكبر، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها، هذا الجو المشحون بنذر التعاسة والنهاية. ورقى فى السلم إلى الدور الأعلى ـ

شقته كما يسميه ـ حيث يعيش منفردا بين حجرة نومه ومكتبته المطلتين على بين القصرين . وخلع ملابسه ومضى مرتديا جلبابه متلفعا بالروب إلى المكتبة ، وكانت مكونة من مكتب كبير فيما يلى المشربية وصفين من خزانات الكتب على جانبيها . وكان يريد أن يقرأ فصلا على الأقل فى كتاب «منبعا الدين والأخلاق» لبرجسون ، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهرى لمجلة «الفكر» الذى اتفق أن كان عن البراجمتزم . هذه السويعات الموهوبة للفلسفة . التى تمتد حتى منتصف الليل هى أسعد أوقات يومه ، وهى التى يشعر فيها ـ على حد تعبيره ـ بأنه إنسان ، أما بقية اليوم الذى ينقضى فى عمله كمدرس بمدرسة السلحدار الابتدائية أو فى إشباع شتى مطالب الحياة الضرورية ، فمداره الحيوان الكامن فيه ، المستهدف أبدا تأمين ذاته وتحقيق شهواته ، ولم يكن يحب عمله الرسمى ولا يحترمه ، ولكنه لم يعلن سخطه ، خاصة فى بيته ، أن يشمت به الشامتون . ومع ذلك فقد كان مدرسا ممتازا حائزا للتقدير ، وكان الناظر يعهد إليه ببعض النشاط المدرسى ، حتى رمى نفسه متفكها بالعبودية ، أليس هو العبد الذى يتقن العمل الذى لا يحبه . والحق أن ولعه بالتفوق الذى اعتاده منذ الصغر هو الذى دفعه إلى الاجتهاد والامتياز دفعا لا هوادة فيه . وقد صمم من بادىء الأمر على أن يكون شخصية محترمة بين التلاميذ والمدرسين فكان له ما أراد ، بل كان شخصية محترمة ومحبوبة معا ، رغم رأسه وأنفه العظيمين ولا شك أنه كان لهما ـ رأسه وأنفه ـ أو كان لإحساسه الأليم بهما الفضل الأول فى هذا التصميم القوى الذى خلق منه هذه الشخصية المهابة . كان يعلم بأن رأسه وأنفه سيثيران من حوله الفتن فاستل عزمه ليرد عنهما وعنه كيد العابثين . أجل لم ينج أحيانا من غمز وتعريض فى أثناء الدرس أو فى ملعب المدرسة ، فكان يلقى الهجوم بحزم شديد ، ثم يلطفه بعطفه المطبوع ، إلى ما أثره عنه من مقدرة فى الشرح والتفهيم ، وما يأخذ فيه بين آونة وأخرى من

موضوعات طريفة حماسية تمس القومية أو ذكريات الثورة، كل أولئك جعله يستميل إليه «الرأى العام» بين التلاميذ، كان ذلك إلى حزمه المتوثب عند الضرورة - كفيلا بالقضاء - على الفتن فى مهدها. ولشد ما آلمه أول الأمر الغمز الجارح، ولشد ما استثار المنسى من أحزانه، بيد أنه سر آخر الأمر بالمنزلة الرفيعة التى بات يحتلها فى نفوس الصغار الذين كانوا يتطلعون إليه بإعجاب وحب وإجلال. وواجهته مشكلة أخرى تتعلق بمقالاته الشهرية فى مجلة «الفكر»، وكان يخاف هذه المرة الناظر والمدرسين أن يسألوه عما يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحيانا العقائد والأخلاق بما لا يتفق ومسئولية «المدرس» ولكن من حسن الحظ أن أحدا من المسئولين لم يكن بين قراء «الفكر»، ثم تبين له بعد ذلك أن المجلة لا تطبع أكثر من ألف نسخة يصدر نصفها إلى البلاد العربية، فشجعه ذلك على الكتابة إليها وهو آمن على نفسه ووظيفته.
وفى هذه السويعات القلائل ينقلب «مدرس اللغة الإنجليزية بالسلحدار الابتدائية» سائحا حرا يجوب أجواء لا تحد من الفكر، فيقرأ ويدون الملاحظات التى يجمعها بعد ذلك فى مقالاته الشهرية، تحثه على جهاده الرغبة فى المعرفة وحب الحقيقة وروح المغامرة النظرية والحنين إلى العزاء والتخفيف من جو الكآبة الذى يغشاه والشعور بالوحدة الذى يستكن فى أعماقه. قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا، أو يتعزى عن هوان شأنه بالمشاركة فى الانتصار على الرغبة مع شوبنهور، أو يهون من إحساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة ليبنتز فى تفسير الشر، أو يروى قلبه المتعطش إلى الحب من شاعرية برجسون، بيد أن جهاده المتواصل لم يجد فى تقليم مخالب الحيرة التى تبلغ حد العذاب، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدمى دلالا وتمنعا ولعبا بالعقول وإثارة للشك والغيرة مع إغراء عنيف بالتملك والوصال، وهى كالمعشوق الآدمى عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلبات، ولا تخلو فى كثير من

الأحايين من مكر وخداع وقسوة وكبرياء، وكان إذا ركبته الحيرة وأعياه الجهد يقول متعزيا «قد أكون معذبا حقا ولكنني حي، إنسان حي، ولن تكون حياة الإنسان الخليقة بهذا الاسم بلا ثمن!».

٢

مراجعة الدفاتر وضبط الحسابات وتسوية ميزانية اليوم السابق، كل ذلك كان أحمد عبد الجواد يؤديه على خير الوجوه وبالدقة المعهودة فيه من قديم غير أنه يؤديه اليوم بمشقة لم يكن يجدها من قبل أن يركبه العمر والمرض. وكان منظره وهو منكب على دفاتره تحت لافتة البسملة، وشاربه الفضي يكاد يختفي تحت أنفه الكبير الذي زاده ضمور الوجه ضخامة، كان ذلك المنظر مما يستحق العطف، غير أن منظر وكيله ومساعده جميل الحمزاوي الذي كان يهدف إلى السبعين كان مما يستحق الرثاء، ولم يكن يفرغ من زبون حتى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد يقول لنفسه في شيء من الامتعاض «لو كنا موظفين لأغنانا المعاش في مثل سننا من الكد والعمل!». ورفع السيد رأسه عن الدفتر وهو يقول:

- لا زالت الحالة متأثرة بعض الشيء بالأزمة الاقتصادية..

فارتسم الامتعاض على شفتي الحمزاوي الباهتتين وقال:

- بدون شك، غير أن هذا العام خير من العام السابق، والعام السابق خير من الذي قبله، الحمد لله على أي حال..

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التي كان التجار من أصحابها يسمونها أيام الرعب. حين استبد إسماعيل صدقي بالحياة

السياسية وسيطر القحط على الحياة الاقتصادية، ويقبلون الأكف وهم يتساءلون عما يخبىء لهم الغد، وقد كان من المحظوظين بغير شك لأن ضيقته لم تبلغ به الإفلاس الذى تهدده عاما بعد عام.

ـ أجل الحمد لله على أى حال..

ووجد جميل الحمزاوى يرنو إليه بنظرة غريبة، فيها تردد وحرج، ماذا عنده ياترى؟ وقام الرجل فقرب مقعده من المكتب ثم جلس وهو يبتسم فى ارتباك. وكان البرد قاسيا رغم سطوع الشمس، وكان للهواء حملات قوية ارتجت لها الأبواب والنوافذ وتعالى الصفير. قال السيد وهو يعتدل فى جلسته:

هات ما عندك، إنى موقن بأنك ستقول شيئا هاما.

فخفض الحمزاوى عينيه وقال:

ـ موقفى لا أحسد عليه، ولا أدرى كيف أتكلم..

فقال السيد مشجعا:

ـ ولكنى عاشرتك أكثر مما عاشرت أهلى فتستطيع أن تفضى إلى بكل ما فى نفسك...

ـ العشرة هى التى تصعب على ياسى السيد..

العشرة؟! لم يخطر له هذا على بال..

ـ أتريد؟.. حقا!

قال الحمزاوى بحزن:

آن لى أن أعتزل، الله لا يكلف نفسا إلا وسعها..

وانقبض قلب السيد، فاعتزال الحمزاوى للعمل ليس إلا نذيرا له بالاعتزال، كيف ينهض بأعباء العمل فى دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر؟ ونظر إلى وكيله فى حيرة فعاد الرجل يقول متأثرا:

ـ إنى أسف جدا، ولكنى لم أعد أطيق العمل، ولى ذلك الزمان غير أنى دبرت الأمر فلن أتركك وحدك، سيملأ مكانى من هو أقدر منى . . .

إن ثقته فى أمانة الحمزاوى قد رفعت عن كاهله نصف متاعبه، فكيف يعود ابن الثالثة والستين إلى ملازمة الدكان من طلعة الشمس إلى مغيبها؟ قال :

ـ ولكن اعتزال العمل والقبوع فى البيت يسرعان بالإنسان إلى التدهور، ألا ترى هذا فى أصحاب المعاش من الموظفين؟

فقال الحمزاوى باسما :

ـ التدهور موجود قبل الاعتزال .

وضحك السيد فجأة كأنما ليدارى الحرج الذى يشعر به مقدما قبل أن يقول له :

ـ يا عجوز يا مكار، أنت تهجرنى تلبية لإلحاح ابنك فؤاد .

فهتف الحمزاوى متأثرا :

ـ معاذ الله، إن حالتى الصحية لا تخفى على أحد، وهى السبب الأول والأخير . .

من يدرى؟ فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء أبيه عاملا بسيطا فى دكان ولو كان صاحب الدكان هو الذى مهد له السبيل ليتبوأ مركزه فى النيابة، ولكنه شعر بأن تصريحه قد آلم وكيله الطيب فتراجع متسائلا فى لطف :

ـ متى ينقل فؤاد إلى القاهرة؟

ـ فى صيف هذا العام أو فى صيف العام القادم على الأكثر . .

ـ ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتى قال الحمزاوى مجاريا السيد فى لطفه :

ـ وإذا أقام معى فى القاهرة وجب التفكير فى تزويجه، أليس كذلك ياسى السيد؟ إنه ابنى الوحيد على سبع بنات، ولا بد من تزويجه، وكلما فكرت فى ذلك جرت فى خاطرى الآنسة المهذبة حفيدتك. . . .

واسترق إلى وجه السيد نظرة استطلاع ثم تمتم:

ـ لسنا قد المقام طبعا. .

فلم يسع السيد إلا أن يقول:

ـ استغفر الله يا عم جميل، نحن أخوان من قديم الزمن. .

ترى أحرضه فؤاد على جس النبض؟ وكيل نيابة شىء عظيم والعبرة فى الأصل بالطيبة، ولكن أهذا وقت التحدث فى الزواج؟

ـ حدثنى أولا أأنت مصمم على اعتزال العمل؟

وجاءه صوت من باب الدكان يقول:

ـ يا ألف صباح الخير. . .

ـ أهلا وسهلا. . (ثم وهو يشير إلى المقعد الذى أخلاه الحمزاوى) تفضلى. .

جلست زبيدة بجسم قد ترهل، ووجه قد تقنع بالأصباغ، أما الحلى فلم يعد لها أثر فى عنقها أو أذنيها أو ساعديها، ولا للجمال القديم مكان، وجعل السيد يرحب بها كعادته مع كل زائر لا أكثر، أما قلبه فلم يرتح للزيارة، فما من مرة تجيئه إلا وترهقه بالمطالب. سألها عن الصحة فأجابت وهى لا تعنى شيئا «الحمد لله» وقال لها بعد هنيهة صمت. . أهلا. . أهلا، فابتسمت شاكرة ولكن بدا أنها استشعرت الفتور الكامن فى مجاملاته. وضحكت متجاهلة الجو الذى يكتنفها. وكانت الأيام قد علمتها البرود، ثم قالت:

ـ لا أحب أن أضيع وقتك وأنت مشغول، ولكنك أنبل من عرفت فى

حياتى، فإما أن تمدنى بسلفة أخرى ,وإما أن تجد لبيتى شاريا، ويا حبذا لو تكون أنت الشارى!

فقال أحمد عبد الجواد متنهدا:

ـ أنا؟! ياليت، الزمن غير الزمن يا سلطانة، طالما صارحتك بالحقيقة ولكن يبدو أنك لا تصدقين يا سلطانة..

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت:

ـ السلطانة مفلسة، فما العمل؟

ـ فى المرة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه، ولكن الحال لا يسمح بتكرار ذلك..

فتساءلت فى قلق:

ـ ألا يمكن أن تجد لبيتى شاريا؟

ـ سأبحث لك عن شار. أعدك بذلك.

فقالت ممتنة:

ـ هذا ما ينتظر منك يا سيد الكرماء (ثم بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التى تغيرت ولكن الناس تغيروا أكثر، سامح الله الناس، فى أيام العز كانوا يستبقون إلى تقبيل حذائى، والآن إذا لمحونى على جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر.

لابد أن يتنكر للإنسان شيء، بل أشياء، الصحة أو الشباب أو الناس، أما أيام العز، أيام الأنغام والحب فأين هى؟!

ـ ومن ناحية أخرى فأنت يا سلطانة لم تعملى للأيام حسابها..

فتنهدت آسفة وهى تقول:

ـ نعم، لست كأختك جليلة التى تتاجر بالأعراض وتقتنى المال والبيوت، وفضلا عن ذلك فقد ابتلانى الله بأولاد الحرام حتى بلغ

الفجر بحسن عنبر أنه كان يبيعنى شمة الكوكايين - عندما ندر فى الأسواق - بجنيه!

- لعنه الله .

- حسن عنبر؟ . . ألف لعنة

- بل الكوكايين .

- والله الكوكايين أرحم من الإنسان .

- لا . . لا ، من المحزن حقا أنك وقعت فى شره .

فقالت بتسليم وقنوط :

- هد حيلى وضيع مالى ، ما علينا ، متى تجد لى شاريا؟

- إن شاء الله عند أول فرصة .

فقالت فى عتاب وهى تنهض :

- اسمع ، إذا زرتك فى المرة القادمة فابتسم من قلبك ، كل إساءة تهون إلا التى تجيئنى من ناحيتك ، أنا عارفة أنى أضايقك بمطالبى ولكنى فى ضيق لا يعلم به إلا الله ، وأنت أنبل الناس فى نظرى .

فقال لها معتذرا :

- لا تتوهمى ما ليس فى ، الأمر أنى كنت مشغولا بمسألة هامة عند قدومك ، وهموم التجار لا تنتهى كما تعلمين .

- رفع الله عنك الهموم .

فحنى رأسه شاكرا وهو يوصلها ، ثم ودعها قائلا :

- أهلا بك من القلب فى كل حين . .

ولمح فى عينيها نظرة خابية تفيض غما فرق لها ، وعاد إلى مجلسه منقبض الصدر فالتفت إلى جميل الحمزاوى وقال :

- دنيا . .

ـ كفاك شرها وأطعمك خيرها .

غير أن نبرات الحمزاوى قست وهو يستدرك قائلا :

ـ ولكنها عاقبة عادلة لامرأة مستهترة

فهز أحمد عبد الجواد رأسه هزة مقتضبة سريعة كأنما يعلن بها احتجاجا صامتا على قسوة هذه الموعظة ، ثم سأله بصوت رجع به إلى النغمة التى قطعها مجىء زبيدة :

ـ ألا تزال مصمما على رأيك فى هجرنا؟

فقال الرجل فى حرج :

ـ ليس هجرا ولكنه تقاعد وأنا آسف من كل قلبى .

ـ كلام كالذى داريت به زبيدة منذ دقيقة

ـ استغفر الله ، إنى أتكلم من قلبى ، ألا ترى يا سيدى أن الكبر يكاد يعجزنى؟

ثم دخل الدكان زبون فمضى الحمزاوى إليه ، وإذا بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلا فى لهجة الغزل :

ـ من هذا الذى يجلس وراء المكتب كالقمر؟

بدا الشيخ متولى عبد الصمد فى جلباب خشن رث لا لون له ، ومركوب متفزز ، معصوب الرأس بتلفيعة من وبر ، مستند القامة على عكاز ، وكان يرمش بعينيه الحمراوين مسددا بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب السيد وهو يظن أنه يسدده نحوه . . فابتسم السيد رغم همه قائلا :

ـ تعال يا شيخ متولى ، كيف حالك؟

فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو يهتف :

ـ يا ضغط زل ، يا صحة عودى إلى سيد الناس . .

وقام السيد فاتجه نحوه فاعتدل بصر الشيخ إليه ولكنه تراجع فى الوقت نفسه كالهارب، ثم جعل يدور حول نفسه، مشيرا إلى الجهات الأربع وهو يصيح «من هنا تفرج.. ومن هنا تفرج». ثم تحول إلى الطريق قائلا:

ليس اليوم، غدا، أو بعد غد قل الله أعلم..

ومشى فى خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره البالى..

٣

يوم الجمعة رجعت الفروع إلى الأصل وعمر البيت القديم بالأبناء والأحفاد، ذلك تقليد سعيد لم ينقطعوا عنه. ولم تعد أمينة «بطلة» يوم الجمعة كما كانت قديما، فأم حنفى تبوأت المركز الأول فى المطبخ، ولم تكن أمينة تنى عن تذكير القوم بأن أم حنفى تلميذتها فإن غرامها بالثناء كان يتشجع على الإفصاح عن ذاته كلما شعرت بقلة استحقاقها له، إلى أن خديجة - رغم أنها فى حكم الضيفة - لم تقصر فى إهداء معونتها. وقبيل ذهاب السيد إلى الدكان التف به الضيوف، إبراهيم شوكت وابناه عبد المنعم وأحمد، وياسين وابناه رضوان وكريمة، يكتنفهم ذلك الخشوع الذى يجعل من ضحكهم ابتساما ومن حديثهم همسا. وكان السيد يجد فى حضورهم سرورا يزداد تعلقا به كلما تقدم به العمر، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته فى الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هذا البغل ان يفهم أنه يتوق إلى رؤيته كل حين؟ وابنه رضوان جميل المحيا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذى يعكس جماله ألوانا متنوعة تذكره مرة بياسين ومرة بهنية أم ياسين وثالثة بصديقه الحبيب محمد عفت فهذا أحب الأحفاد إلى قلبه، وكريمة أخته مصغر

شابة فى الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجا عجيبا كما تشهد عيناها السوداوان ـ عينا زنوبة أمها ـ اللتان يبسم لهما خاطره ابتسامة ندية بالحياء والذكريات. أما عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى فى وجهيهما قدرا لا يستهان به من أنفه العظيم كما يرى عينى خديجة الصغيرتين، غير أنهما أجرأ من الآخرين فى مخاطبته، وكلهم ـ هؤلاء الأحفاد ـ يشقون طريق دراستهم بنجاح يدعو إلى الفخار، لكنهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدهم، فمن ناحية يعزونه بأن حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكرونه بأن شخصه يتراجع رويدا عن مركز الاهتمام الذى كان يستأثر به، ولم يكن ذلك ليحزنه، فإن الإيغال بالعمر يجىء بالحكمة كما يجىء بالوهن والمرض. ولكن هيهات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفق، عندما كان مثل هؤلاء فى مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلم قليلا ويلهو كثيرا ما بين مغانى الجمالية ومرتاد الأزبكية، وفى ركابه يجرى محمد عفت وعلى عبدالرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يملأ الدكان نفسها يزجر وحيده قليلا، ويرق له كثيرا، كان العمر صفحة مطوية مكتظة بالآمال، ثم كانت هنية. . ولكن مهلا لا ينبغى أن تستخفه الذكريات.

وقام ليصلى العصر فكان ذلك إيذانا بالانصراف، ثم ارتدى ملابسه ومضى إلى الدكان، وتجمعوا هم فى مجلس القهوة حول مجمرة الجدة، فى جو التلاقى والسمر. احتلت الكنبة الرئيسية أمينة وعائشة ونعيمة، أما الكنبة اليمنى فجلس عليها ياسين وزنوبة وكريمة، وعلى الكنبة اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكمال، على حين اتخذ رضوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كراسى توسطت الصالة تحت المصباح الكهربائى. وكان ابراهيم شوكت كعادته التى لم يغيرها الزمن ينوه بألوان الطعام التى أعجبته، غير أن تنويهه اقتصر فى الفترة الأخيرة على فضل الأستاذة على تلميذتها النجيبة، وكانت زنوبة تعيد ثناءه

كالصدى فإنها لم تكن تهمل فرصة يمكن أن تتودد بها إلى أحد من أهل زوجها. والحق أنها مذ فتحت لها أبواب آل زوجها وأتيحت لها مخالطتهم وهى تعمل بلباقة على توثيق علاقتها بهم، لأنها عدت ذلك اعترافا بمكانتها بعد أن انقضت أعوام وهى تعيش فى عزلة كالمنبوذة. . وكان موت وليد لياسين السبب الحقيقى فى زيارة أهله لبيته للتعزية، فصافحت يدها أيديهم لأول مرة منذ زواجها، وتشجعت بذلك فزارت السكرية ثم زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيد، بل أقدمت على زيارته فى حجرته فتقابلا كشخصين جديدين لا تاريخ مشتركا بينهما. هكذا اندمجت زنوبة فى آل أحمد حتى غدت تخاطب أمينة فتقول لها يا تيزة وتنادى خديجة فتقول لها يا أختى، وبدت دائما مثالا للاحتشام، وعلى خلاف نساء الأسرة أنفسهن تجنبت التبرج خارج بيتها، حتى بدت أكبر من سنها، إذ بادر الذبول إلى جمالها قبل الأوان، فلم تصدق خديجة أبدا أنها فى السادسة والثلاثين، ولكنها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيبة لها حتى قالت عنها أمينة يوما «لا شك أن أصلها طيب، ربما أصلها البعيد، فليكن، ولكنها بنت حلال، هى الوحيدة التى عمرت مع ياسين!». وبدت خديجة فى شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه، ولم تكن تنكر أنها سعيدة بذلك، كما كانت سعيدة بعبد المنعم وأحمد وحياتها الزوجية الموفقة عامة، بيد أنها لم تكف يوما عن التشكى اتقاء العين. وقد تغيرت معاملتها لعائشة تغيرا كليا فلم تند عنها طوال ثمانية أعوام كلمة واحدة تنم عن سخرية أو خشونة ولو على سبيل الممازحة، بل حرصت الحرص كله على الترفق بها والتودد إليها وملاطفتها، خشوعا حيال تعاستها وخوفا من الأقدار التى قضت عليها بما قضت، وإشفاقا من أن تضع المرأة المحزونة حظيهما موضع المقارنة، وقد وقفت موقفا كريما يوم حتمت على ابراهيم شوكت أن ينزل عن حقه المشروع فى ميراث أخيه المتوفى لنعيمة فآل الميراث كله

لعائشة وكريمتها دون شريك . وأملت خديجة أن يذكر صنيعها فى حينه ولكن عائشة استغرقها ذهول غيب عنها كرم أختها فلم يقعد ذلك بخديجة عن غمرها بالعطف والرحمة والتسامح كأنما انقلبت أما أخرى لها ، ولم تكن تطمع فى أكثر من رضائها ومودتها كى تطمئن على أسباب التوفيق التى هيأها لها الله . وأخرج إبراهيم شوكت علبة سجائره وقدمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكرة ، وتناول أخرى وراحا يدخنان كثيرا ما يكون إفراط عائشة فى التدخين وتعاطى القهوة ملتقى ملاحظات وإن تكن تقابل منها عادة بهز الكتفين . أما أمها فتقنع بأن تقول فى لهجة الدعاء «ربنا يصبرها» وأما ياسين فكان أجرأ الأهل فى نصحها كأنما قد أهله لذلك فقد وليده ، غير أن عائشة لم تكن تعده مصابا مثلها وتضن عليه بمكانة مرموقة فى دولة المبتلين إذ أن ابنه مات وهو دون العام لا كعثمان أو محمد ، والواقع أن حديث المصائب كان يبدو كثيرا هوايتها المفضلة ، كأنما كانت تعتز بدرجتها الممتازة فى دنيا الشقاء واستمع كمال إلى ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد المنعم وأحمد فأرهف السمع باسما ، وكان رضوان ياسين يقول :

ـ كلنا من القسم الأدبى ، فليس أمامنا كلية جديرة بالاختيار إلا الحقوق .

فأجابه عبد المنعم إبراهيم شوكت بصوته القوى المفعم بنبرات التوكيد ، وكان يهز رأسه الضخم الذى جعله أقرب الشبان شبها إلى كمال :

ـ مفهوم . . مفهوم ، ولكنه لا يريد أن يفهم ! .

وأومأ عند عبارته الأخيرة إلى أخيه أحمد الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، فانتهز إبراهيم شوكت الفرصة وقال مشيرا إلى أحمد أيضا :

ـ ليدخل الآداب إذا شاء ولكن عليه أن يقنعنى بقيمتها، أنا أفهم الحقوق ولكننى لا أفهم الآداب!

وغض كمال بصره فيما يشبه الأسى، إذ عاودته أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلمين. إنه لايزال يتنفس فى جو الآمال القديمة، بيد أن الحياة تجبهه بصدمات قاسية كل يوم، فوكيل النيابة مثلا لا يحتاج إلى تعريف أما كاتب مقالات مجلة «الفكر» فربما احتاج إلى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها! ولم يدعه أحمد ابراهيم شوكت لحيرته فنظر إليه بعينيه الصغيرتين البارزتين وهو يقول:

ـ إنى أترك الجواب لخالى كمال..

وابتسم ابراهيم شوكت ابتسامة يدارى بها حرجه، أما كمال فقال دون حماس:

ـ ادرس ما تشعر بأنه يوافق موهبتك.

وبدا الظفر فى وجه أحمد فردد رأسه الرشيق بين أخيه وأبيه غير أن كمال عاد يقول:

ـ ولكن ينبغى أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالا من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب. سيكون مستقبلك إذا اخترت الآداب فى التعليم وهو مهنة شاقة ولا جاه لها..

ـ بل سأتجه إلى العمل فى الصحافة.

ـ الصحافة!.. «صاح إبراهيم شوكت».. إنه لا يدرى ماذا يقول.

فقال أحمد مخاطبا كمال:

ـ إن قيادة الفكر وقيادة عربة كارو شىء واحد فى أسرتنا!

فقال رضوان ياسين باسما:

ـ إن أكبر قادة الفكر فى وطننا من الحقوق..

فقال أحمد فى كبرياء:

ـ إن الفكر الذى أعنيه شىء آخر!

فقال عبد المنعم شوكت عابسا:

ـ وهو شىء مخيف هدام، إنى أعلم وأأسفاه بما تعنى..

وعاد ابراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر إلى الآخرين كأنما يشهدهم على ما يقول:

ـ فكر قبل أن تقدم، إنك لازلت فى السنة الرابعة، لن يعدو ميراثك المائة جنيه فى العام، وإن بعض أصحابى يشكون مر الشكوى من أن ابناءهم الجامعيين لا يجدون عملا، أو يعملون كتبة بمرتبات تافهة، وانت حر بعد ذلك فيما تختار..

وتدخل ياسين فى المناقشة بأن اقترح قائلا:

ـ لنسمع رأى خديجة، إنها المدرسة الأولى لأحمد، وهى أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب..

وامتلأت الثغور بالابتسام، حتى أمينة ابتسمت وهى عاكفة على كنجة القهوة، بل حتى عائشة ابتسمت، فتشجعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت:

ـ سأقص عليكم قصة طريفة، أمس بعد العصر بقليل ـ والدنيا تظلم بسرعة فى الشتاء كما تعرفون ـ كنت راجعة من الدرب الأحمر إلى السكرية، فشعرت كأن رجلا يتبعنى، وإذا به يمر بى تحت قبة المتولى وهو يقول «على فين يا جميل»، فالتفت نحوه قائلة: «على البيت ياسى ياسين!».

وضجت الصالة بالضحك. ونظرت إليه زنوبة نظرة ذات معنى تجلى فيها الانتقاد واليأس، أما ياسين فجعل يشير للضاحكين بيده حتى عاد السكون، ثم تساءل:

ـ أمن المعقول أن يصيبنى العمى إلى هذا الحد؟

فحذره إبراهيم شوكت قائلا :

ـ حاسب!

أما كريمة فأمسكت بيد أبيها وضحكت كأنها رغم كونها بنت ثمانية قد فهمت المقصود من قصة عمتها، وقالت زنوبة تعليقا على الحال :

ـ شر الأمور ما يضحك .

وحدج ياسين خديجة بنظرة مغيظة وهو يقول «حفرت لى حفرة يا بنت الإيه» فقالت خديجة :

ـ إذا كان أحد فى الموجدين فى حاجة إلى الآداب فهو أنت لا أحمد ابنى المجنون!

وصدقت زنوبة على قولها، أما رضوان فدافع عن أبيه ودعاه بالبرىء المظلوم، وظل أحمد ينظر إلى كمال متعلقا به كالأمل، أما عبد المنعم فكان يسترق النظر إلى نعيمة التى تبدت لصق أمها كالوردة البيضاء، وكانت كلما شعرت بعينيه الصغيرتين تورد وجهها الشاحب الرقيق، حتى عاد إبراهيم شوكت يقول مغيرا مجرى الحديث مخاطبا أحمد :

ـ انظر إلى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحمزاوى وكيل نيابة قد الدنيا . . شعر كمال كأن هذا القول انتقاد مر موجه إلى شخصه، أما عائشة فقالت لأول مرة :

ـ إنه يريد أن يخطب نعيمة .

وفى فترة الصمت التى استقبل بها الخبر قالت أمينة :

ـ أبوه فاتح جدها أمس . .

وتساءل ياسين جادا :

ـ وهل وافق أبى؟

ـ هذا سابق لأوانه .

فتساءل إبراهيم شوكت بحذر وهو ينظر إلى عائشة :

ـ وما رأى عائشة هانم؟

فقالت عائشة دون أن تنظر إلى أحد :

ـ لا أدرى . .

فقالت خديجة وهى تتفحصها بعمق :

ـ ولكنك أنت الكل فى الكل . .

وأراد كمال أن يشهد بشهادة طيبة لصديقه فقال :

ـ فؤاد شاب ممتاز حقا . .

فقال إبراهيم شوكت بحذر كالمتسائل :

أظن أهله من السوقة؟!

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوى :

ـ نعم ، خاله مكارى ، وخاله الآخر فران ، وعمه كاتب محامى «ثم بلهجة استدراكية ضعيفة» ولكن هذا لا ينقص من قدر الإنسان فالإنسان بنفسه لا بأهله!

وأدرك كمال أن ابن أخته يريد أن يقرر حقيقتين يؤمن بهما على تنافرهما ، أولا وضاعة أصل فؤاد ، وثانيا أن وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص . بل أدرك أكثر من هذا أنه يحمل فى الأولى على فؤاد وأنه يكفر فى الثانية عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينية القوية . ومن عجب أن تقرير هاتين الحقيقتين أراحه وكفاه شر الإفصاح عنهما بنفسه ، فإنه كابن أخته لم يكن يؤمن بفوارق الطبقات ، وكان مثله أيضا يميل للحملة على فؤاد والحط من شأنه الذى يدرك خطورته وتفاهته هو بالقياس إليه . والظاهر أن أمينة لم ترتح لهذه الحملة فقالت :

ـ أبوه رجل طيب ، خدمنا العمر كله بأمانة وإخلاص .

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت :

ـ ولكن ربما عاشرت نعيمة ـ لو تم هذا الزواج ـ أناسا ليسوا أهلا للمعاشرة، الأصل كل شيء. .

وجاءها تأييد من حيث لم ينتظر أحد، فقالت زنوبة:

ـ صدقت، الأصل كل شيء!

واضطرب ياسين، واسترق إلى خديجة نظرة سريعة وهو يتساءل عن رجع قول زوجته فى نفسها، وتعليقها الباطنى عليه وما يستدعيه ذلك إلى خواطرها عن عالم العوالم والتخت. حتى لعن زنوبة فى سره على «قنزحتها» الفارغة واضطر أن يتكلم ليغطى على كلام زوجته، فقال:

ـ تذكروا أنكم تتحدثون عن وكيل نيابة. .

فقالت خديجة متشجعة بسكوت عائشة:

ـ أبى الذى جعل منه وكيل نيابة، أموالنا نحن التى صنعته!

فقال أحمد شوكت فى سخرية نطقت بها عيناه البارزتان اللتان تذكران بالمرحوم خليل شوكت:

ـ نحن مدينون لأبيه أكثر مما هو مدين لنا!

فأشارت إليه خديجة بسبابتها وهى تقول بلهجة ملؤها الانتقاد:

ـ أنت دائما ترمينا بكلام غير مفهوم.

فقال ياسين بلهجة من يأمل فى إنهاء الموضوع:

ـ أريحوا أنفسكم فالكلمة الأخيرة لبابا. .

وزعت أمينة فناجيل القهوة، واتجهت أعين الشباب إلى حيث جلست نعيمة لصق أمها. قال رضوان لنفسه: بنت لطيفة وجميلة، ليته كان فى الإمكان أن أصادقها وأزاملها، لو مشينا فى الطريق معا لاحتار الرجال أينا الأجمل! وقال أحمد لنفسه أيضا: جميلة جدا، ولكنها كأنما هى ملزوقة فى خالتى بالغرا، ولا حظ لها من الثقافة. أما عبد المنعم فقال: جميلة وست بيت وشديدة التقوى، لا يعيبها إلا

ضعفها، وحتى ضعفها جميل، خسارة فى عين فؤاد، ثم جاوز الحديث الباطنى فسألها:

ـ أنت يا نعيمة خبرينا عن رأيك؟

فتورد الوجه الشاحب، وقطبت ثم ابتسمت، وتوتر حالها وهى تمزج الابتسام بالتقطيب لتخلص منهما معا، ثم قالت فى حياء واستياء:

ـ لا رأى لى، دعنى وشأنى! . .

فقال أحمد ساخرا:

ـ الحياء الكاذب. . .

ولكن عائشة قاطعته متسائلة:

ـ الكاذب؟!

فاستدرك قائلا:

ـ الحياء موضة قديمة، ينبغى أن تتكلمى وإلا ضاعت منك الحياة. .

فقالت عائشة بمرارة:

إننا لا نعرف هذا الكلام.

فقال أحمد متشكيا دون أن يعبأ بنظرة أمه المنذرة:

ـ أراهن على أن أسرتنا متأخرة عن العصر الحديث بأربعة قرون!

فسأله عبد المنعم ساخرا:

ـ لم حددتها بأربعة؟

فقال دون اكتراث:

ـ على سبيل الرأفة!

وإذا بخديجة توجه الخطاب إلى كمال متسائلة:

ـ وأنت! . . متى تتزوج أنت؟!

بوغت كمال بالسؤال فتهرب قائلا:

ـ حديث قديم!

ـ وجديد فى الوقت نفسه، ولن نتركه حتى يجمع الله شملك على بنت الحلال. .

تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف، فزواج كمال أعز أمانيها، وكم رجته أن يحقق أمنيتها حتى تقر عينها بحفيد من صلب ابنها الوحيد، قالت:

ـ عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر، ولكنه يتعلل دائما بعذر أو بآخر. .

ـ أعذار واهية، كم عمرك الآن ياسى كمال؟. .

تساءل إبراهيم شوكت ضاحكا. .

ـ ثمانية وعشرون عاما!. . فات الوقت. .

أنصتت أمينة إلى رقم العمر بدهش كأنما لا تريد أن تصدق، أما خديجة فاحتدت وهى تقول:

ـ أنت مغرم بتكبير عمرك!

أجل فهو الأخ الأصغر، فالكشف عن عمره كشف غير مباشر عن عمرها. مع أن زوجها بلغ الستين إلا أنها كانت تكره أن تذكر بأنها فى الثامنة والثلاثين، أما كمال فلم يكن يدرى ماذا يقول، ولم يكن الموضوع فى نظره مما يحسم بكلمة ,ولكنه كان يشعر دائما أنه مطالب بإيضاح موقفه فقال بلهجة المعتذر:

ـ إنى مشغول نهارى بالمدرسة وليلى بمكتبى!

فقال أحمد بحماس:

ـ حياة عظيمة ياخالى، ولكن الإنسان ينبغى مع ذلك أن يتزوج.

وقال ياسين الذى كان أعرف الجميع بكمال:

ـ أنت تتجنب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب «الحقيقى» ولكن الحقيقة فى هذه الشواغل، لن تعرف الحياة فى المكتبة، ولكن الحقيقة فى البيت والشارع . .

فقال كمال ممعنا فى الهرب :

ـ تعودت أن أنفق مرتبى لآخر مليم، ليس عندى مدخر، كيف أتزوج؟!

فقالت خديجة تحاصره :

ـ انو الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له .

وقال ياسين ضاحكا :

ـ إنك تنفق مرتبك لآخر مليم حتى لا تتزوج . .

وكأنهما شىء واحد. ولكن لِمَ لم يتزوج رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين؟ أجل مضت فترةَ فى ظل الحب فكان الزواج ضربا من العبث، وتبعتها فترة حل محل الحب فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بنهم، وكانت فرحة الأفراح أن يعثر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة. وقال لنفسه إن المفكر لا يتزوج وما ينبغى له. كان ينظر إلى فوق ويظن أن الزواج سيحمله على النظر إلى تحت. وكان ـ وما زال ـ يلذ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج فى ميكانيكية الحياة. وإنه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله، ثم إنه لم يبق عنده من المرأة إلا شهوة تقضى، وإلى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضى أسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسدية، ثم إنه حائر يداخله الشك فى كل شىء، والزواج نوع من الإيمان، قال :

ـ أريحوا أنفسكم، سأتزوج عندما أرغب فى الزواج .

فابتسمت زنوبة ابتسامة أرجعتها إلى الوراء عشرة أعوام وتساءلت :

ـ ولم لا ترغب فى الزواج؟

فقال كمال فيما يشبه الضجر :

ـ الزواج حبة وأنتم تجعلون منه قبة . .

ولكنه كان يؤمن في أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة ، وكان يساوره شعور غريب بأنه يوم يذعن للزواج فسيقضى عليه قضاء مبرما . وأنقذه من موقفه صوت أحمد وهو يقول له :

ـ آن لنا أن نصعد إلى المكتبة .

فنهض مرحبا بدعوته ، ومضى خارجا وعبد المنعم وأحمد ورضوان في أثره ، وصعدوا إلى حجرة المكتب لاستعارة بعض الكتب كعادتهم كلما جاءوا إلى البيت القديم زائرين . وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت المصباح الكهربائى بين صفين من خزائن الكتب ، فجلس إلى مكتبه على حين رأى الشبان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف ، ثم اختار عبد المنعم كتاب «محاضرات فى تاريخ الإسلام» ، وجاء أحمد بكتاب «مبادىء الفلسفة» ، ثم وقفوا حول مكتبه وهو يردد بصره بينهم صامتا ، حتى قال أحمد متضايقا :

ـ لن أقرأ كما أحب حتى أتقن لغة أجنبية واحدة على الأقل .

وتمتم عبد المنعم وهو يقرأ صفحات كتابه :

ـ لا أحد يعرف الإسلام على حقيقته .

فقال أحمد ساخطا :

ـ أخى يتلقى حقيقة الإسلام على يد رجل شبه عامى فى خان الخليلى . .

فصاح به عبد المنعم :

ـ صه يا زنديق !

ونظر كمال إلى رضوان متسائلا :

ـ وأنت ألا تريد كتابا ؟

فأجاب عنه عبد المنعم :

ـ وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفدية!

فقال رضوان وهو يومئ إلى كمال :

ـ فى هذا يتفق معى عمى!

عمه لا يؤمن بشىء ورغم ذلك فهو وفدى! .كما أنه يشك فى الحقيقة عامة، ورغم ذلك فهو يتعامل مع الناس والواقع. تساءل وهو يردد عينيه بين عبد المنعم وأحمد :

ـ وأنتما وفديان كذلك فما وجه الغرابة؟ وكل وطنى فهو وفدى، أليس كذلك؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينى :

ـ الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب، ولكنه فى ذاته لم يعد مقنعا كل الإقناع . .

فقال أحمد ضاحكا :

ـ إنى أوافق أخى على رأيه هذا، أو بالأحرى لا أوافقه على رأى إلا هذا، وربما اختلفنا فى درجة الإقناع الخاصة بالوفد، أكثر من ذلك فإن الوطنية نفسها يجب أن تكون موضع استفهام، أجل إن الاستقلال فوق كل نزاع، أما معنى الوطنية بعد ذلك فينبغى أن يتطور حتى يفنى فى معنى أشمل وأسمى، وليس ببعيد أن ننظر فى المستقبل إلى شهداء الوطنية كما ننظر الآن إلى ضحايا المعارك الحمقاء التى تنشب بين القبائل والأسر!

معارك حمقاء يا أحمق! فهمى لم يستشهد فى معركة حمقاء، ولكن أين وجه اليقين؟ ورغم خواطره قال بحدة :

ـ أى قتيل فى سبيل شىء فوق نفسه فهو شهيد، وقد تتغير قيم الأشياء أما موقف الإنسان منها فهو قيمة لا تتغير . .

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبا عبد المنعم ردا على ملاحظة له :

ـ السياسة أخطر وظيفة فى المجتمع . .

ولما عادوا إلى مجلس القهوة كان إبراهيم شوكت يقول لياسين :

ـ وهكذا فنحن نربى ونوجه وننصح ولكن كل ولد يندمج فى مكتبة، وهى عالم مستقل عنا، يزحمنا فيه أناس غرباء، لا ندرى عنهم شيئا فما عسى أن نصنع؟!

٤

كان الترام مكتظا حتى لم يعد به موضع لواقف، وقد انحشر كمال بين الواقفين وكأنه يطل عليهم بقامته الطويلة النحيلة. كانوا مثله ـ فيما بدا له ـ يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطنى ـ عيد ١٣ نوفمبر ـ فردد عينيه فى الوجوه مستطلعا ومرحبا.

والحق أنه يشارك فى هذه الأعياد كأشد المؤمنين بها وإن آمن فى الوقت نفسه بألا إيمان له. وكان الناس يتحادثون معلقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف وبرابطة «الوفدية» التى ألفت بين قلوبهم، قال أحدهم :

ـ عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكل معنى الكلمة، أو هذا ما يجب أن يكون . .

فقال آخر :

ـ يجب أن يرد فيه على هور وتصريحه المشئوم .

وثار ثالث لذكر هور فصاح :

- ابن الكلب قال : نصحنا بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣ ، ولا دستور ١٩٣٠ ، ما شأنه هو ودستورنا؟

فأجابه رابع :

- لا تنس أنه قال أنه قبل ذلك : «على أننا عندما استشارونا نصحنا» الخ . .

- أجل ، من الذين استشاروه؟

- سل عن ذلك حكومة القوادين! .

- توفيق نسيم . . كفى! أنسيتموه؟ ولكن لماذا هادنه الوفد؟!

- لكل شيء نهاية ، انتظروا خطبة اليوم .

أصغى كمال إليهم ، بل اشترك فى حديثهم ، وأعجب من هذا أنه لم يكن من دونهم حماسا ، وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده ,وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسية التى خلفتها الأعوام السابقة . أجل «لقد عاصرت عهد محمد محمود الذى عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرية الشعب فى نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات! كما عشت سنين الإرهاب التى فرضها إسماعيل صدقى على البلاد ، كان الشعب يثق فى قوم ويريدهم حكاما له ولكنه يجد فوق رأسه دائما أولئك الجلادين البغضاء ، تحميهم هراوات الكونستبلات الإنجليز ورصاصهم ، وسرعان ما يقولون له بلغة أو بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء ، والشعب يخوض المعارك دون توقف فيخرج من كل وهو يلهث ، حتى اتخذ فى النهاية موقفا ، سلبيا شعاره الصبر والسخرية ، فخلا الميدان إلا من الوفديين من ناحية والطغاة من ناحية أخرى ، وقنع الشعب بمجلس المتفرج وراح يشجع رجاله فى همس دون أن يمد لهم يدا» . إن قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب ، إنه يخفق معه دائما ، رغم عقله التائه فى ضباب

الشك. غادر الترام عند شارع سعد زغلول، وسار فى طابور غير منتظم نحو سرادق الاحتفال المقام فى جوار بيت الأمة، تقابلهم بين كل عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رياسة كونستابل إنجليزى تنطق وجوههم بالصرامة والبلادة. والتقى قبيل السرادق بعبد المنعم وأحمد ورضوان وشاب لا يعرفه وقد وقفوا معا يتحادثون، فأقبلوا نحوه مسلمين ولبثوا معه بعض الوقت. منذ شهر تقريبا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أما أحمد فقد انتقل إلى السنة النهائية بالثانوى، وإنه ليراهم فى الطريق «رجالا» بخلاف ما يراهم فى البيت فليسوا إلا أبناء أخته وأخيه. وما أجمل رضوان! كذلك جميل صاحبه الذى قدمه إليه باسم حلمى عزت وقد صدق من قال إن الطيور على أشكالها تقع. وكان أحمد يسره، وينتظر منه دائما قولا غريبا ممتعا أو سلوكا لا يقل عنه غرابة، إنه أقرب الجميع إلى روحه، أما عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله إلى القصر والامتلاء، لذلك فحسب يحبه، أما يقينه وتعصبه فما أرذلهما! وأقبل على السرادق الضخم، وألقى نظرة شاملة على الجموع الحاشدة، مسرورا بكثرتها الهائلة، وتطلع مليا إلى المنصة التى سيعلو عندها عما قليل صوت الشعب، ثم اتخذ مجلسه. إن وجوده فى مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة فى الوحدة شخصا جديدا ينتفض حياة وحماسا. هنا ينحبس العقل فى قمقم إلى حين وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحة إلى حياة مفعمة بالعواطف والأحاسيس دافعة إلى الكفاح والأمل، وعند ذاك تتجدد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدد وحشته ويتصل ما بينه وبين الناس فيشارك فى حياتهم ويعتنق آمالهم وآلامهم. إنه بطبعه لا يطيق أن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لا بد منها بين حين وآخر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية، حياة الناس، فلتؤجل مشكلات المادة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة، وليمتلئ اهتماما بما يحب هؤلاء الناس وما يكرهون، بالدستور..

بالأزمة الاقتصادية . . بالموقف السياسى . . بالقضية الوطنية . لذلك لم يكن عجيبا أن يهتف «الوفد عقيدة الأمة» غداة ليل قضاه فى تأمل عبث الوجود وقبض الريح، والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة، فهو يعشق الحقيقة ويهوى النزاهة ويتطلع إلى التسامح ويرتطم بالشك ويشقى فى نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات، فلا بد من ساعة يأوى فيها المتعب إلى حضن الجماعة ليجدد دماءه ويستمد حرارة وشبابا . فى المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون، مثل داروين وبرجسون ورسل فى هذا السرادق آلاف من الأصدقاء، يبدون بلا عقول، ولكن يتمثل فى مجتمعهم شرف الغرائز الواعية، وليسوا فى النهاية دون الأول خلقا للحوادث وصنعا للتاريخ . فى هذه الحياة السياسية يحب ويكره ويرضى ويغضب ويبدو كل شىء ولا قيمة له . وكلما واجه هذا التناقض فى حياته زعزعه القلق . ولكن ليس ثمة موضع فى حياته يخلو من تناقض وبالتالى من قلق . لذلك شد ما يحن قلبه إلى تحقيق وحده منسجمة تتسم بالكمال والسعادة، ولكن أين هذه الوحدة؟! ويشعر بأن الحياة العقلية لا مفر منها ما دام به عقل، يفكر فلا يقعده ذلك عن التطلع إلى الحياة الأخرى تدفعه كافة القوى المعطلة المكبوتة، فهى صخرة النجاة . فلعله لذلك بدا هذا الجمع رائعا، وكلما ازداد كثرة ازداد روعة . وها هو القلب ينتظر ظهور الزعماء بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين . وقد جلس عبد المنعم وأحمد على مقعدين متجاورين، أما رضوان وصاحبه حلمى عزت فيسيران فى الممر الذى يشق السرادق ذهابا وجيئة أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيالهما من شابين ذوى نفوذ! . وكانت همسات القوم تتجمع فتحدث لغطا عاما أما الأركان التى احتلها الشباب فعلا ضجيجها وتخللته الهتافات، ثم ترامى هتاف قوى ذو دلالة من الخارج فتطلعت الرءوس إلى مدخل السرادق الخلفى، ثم هبوا واقفين، وتعالى هتاف يصم الآذان، ثم لاح

مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحيى الألوف بابتسامة وضيئة ويدين قويتين. وتطلع إليه بعينين اختفت منهما نظرة الشك إلى حين، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الإيمان بكل شيء؟ ألأنه رمز الاستقلال والديموقراطية؟! مهما يكن من أمر فإن التجاوب الحار المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر، وهى بلا شك قوة خطيرة تلعب دورها التاريخى فى بناء القومية المصرية. وتشبع الجو بالحماس والحرارة، وتعب المشرفون عل الحفل حتى نشروا السكون فى الأركان، كى يسمع الناس المقرىء وهو يتلو ما تيسر من القرآن مرددا فيما يتلو «يا أيها النبى حرِّض المؤمنين على القتال»، وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتى احتج بعض المتزمتين وطالبوا بالصمت احتراما لكتاب الله. وأثار قولهم فى نفسه ذكريات قديمة يوم كان يعد واحدا من هؤلاء المتزمتين فارتسمت على شفتيه ابتسامة ما واستشعر من توه عالمه الخاص الحافل بالمتناقضات الذى يبدو من تعارض متناقضاته وكأنه فراغ. ووقف الزعيم وراح يلقى خطابه. ألقاه بصوت رنان وبيان نافذ فاستغرق إلقاؤه ساعتين، ثم ختمه جاهرا فى عنف سافر بالدعوة إلى الثورة، وبلغ الحماس من القوم مداه فوقفوا على المقاعد، وجعلوا يهتفون بحماس جنونى. ولم يكن دونهم حماسا وهتافا، نسى أنه مدرس مطالب بالوقار وخيل إليه أنه رجع إلى الأيام المجيدة التى سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيها. أكانت الخطب تلقى بهذه القوة؟ أكان الناس يتلقونها بمثل هذا الحماس؟

أكان الموت لذلك يهون؟ من مثل هذا الموقف بدأ فهمى دون ريب، ثم اندفع إلى الموت، إلى الخلود أم إلى الفناء؟! أمن الممكن أن يستشهد رجل فى مثل حاله من الشك؟ لعل الوطنية - كالحب - من القوى التى نذعن لها وإن لم نؤمن بها!..

إن فورة الحماس عالية، الهتافات حارة متوعدة، المقاعد ترتج بمن

فوقها، فما الخطوة التالية؟ ما يدرى إلا والجموع تتجه نحو الخارج. وغادر موضعه وهو يلقى نظرة عامة باحثا عن شباب أسرته ولكنه لم يعثر لهم على أثر. وغادر السرادق من الباب الجانبى، ثم سار مستهدفا شارع قصر العينى فى خطوات سريعة حتى يسبق الجموع. ومر فى طريقه ببيت الأمة وكان كلما مر به يعلق به بصره وردد عينيه بين الشرفة التاريخية والفناء الذى شهد أجلّ الذكريات الوطنية، اجل لهذا البيت مثل السحر فى نفسه، فها هنا كان يقف سعد، وها هنا كان يقف فهمى وأقرانه، وفى هذا الطريق الذى يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص ليستقر فى صدور الشهداء، إن قومه فى حاجة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التى تترصد سبيل نهضتهم، فى حاجة إلى ثورات دورية تكون بمثابة التطعيم ضد الأمراض الخبيثة، والحق أن الاستبداد هو مرضهم المتوطن. هكذا نجح اشتراكه فى العيد الوطنى فى تجديد نفسه فلم يكن يهمه فى تلك اللحظة إلا أن تجيب مصر على تصريح هور إجابة حاسمة كاللكمة القاضية. وانتصبت قامته النحيلة الطويلة، وارتفع رأسه الكبير، واشتد وقع خطاه وهو يتقدم أمام الجامعة الأمريكية متخيلا أمورا جليلة وفعالا خطيرة. حتى المدرس ينبغى أن يثور أحيانا مع تلاميذه. وابتسم فيما يشبه الكآبة.. مدرس كبير الرأس مقضى عليه بأن يعلم مبادئ الإنجليزية ـ المبادئ فحسب ـ رغم أنه يطّلع بها على أسرار وأسرار، يحتل جسمه من مزدحم الأرض موضعا ضئيلا أما خياله فيضطرب فى الدوامة التى تحيط بمغالق الطبيعة. يسأل فى الصباح عن معنى كلمة وهجاء أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين، وفى الصباح أيضا يضطرم فؤاده بالثورة على الإنجليز وفى الليل تدعوه الأخوة العامة المعذبة ـ أخوته لبنى الإنسان ـ للتعاون أمام لغز القضاء. وهز رأسه فى شىء من العنف كأنما ليطرد عنه هذه الخيالات، وقد ترامت إلى مسامعه أصوات الهتاف وهو يقترب من

ميدان الإسماعيلية فأدرك أن المتظاهرين قد وصلوا إلى شارع قصر العيني، ودعاه الشعور بالنضال الذي يعمر صدره إلى التوقف لعله يشترك على نحو ما في مظاهرة ١٣ نوفمبر. شد ما طال بالوطن موقف الصابر الذي يتلقى الضربات. اليوم توفيق نسيم وأمس إسماعيل صدقي وأول أمس محمد محمود، تلك السلسلة المشئومة من الطغاة الى تمتد إلى ما قبل التاريخ، كل ابن كلب غرَّته قوته يزعم لنا أنه الوصيّ المختار وأن الشعب قاصر.

مهلا!.. إن المظاهرة تغلي وتفور، ولكن ما هذا؟! التفت كمال إلى الوراء في اضطراب. سمع صوتا اهتز له قلبه، وأنصت في انتباه فصك الصوت مسامعه مرة أخرى. إنه الرصاص. ورأى المتظاهرين عن بعد يضطربون في دوامة خطيرة لا يتضح له أمرها، ولكن جماعات كانوا يهرعون نحو الميدان، وآخرين إلى الشوارع الجانبية، وكثير من الكونستبلات الإنجليز فوق الجياد ينهبون الأرض. وعلا الهتاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتد انطلاق الرصاص. وخفق قلبه وتساءلت دقاته عن عبد المنعم وأحمد ورضوان، وامتلأ اضطرابا وغضبا، وتلفت يمنة ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فاتجه إليها - وقد أغلق بابها نصف إغلاق - وما إن مرق منها حتى تذكر دكان البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأول مرة، وشاع الاضطراب في كل مكان. وانطلق الرصاص في غزارة مخيفة ثم متقطعا. وتراكمت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل، وعلت أصوات مزمجرة دلت على أن تجمعات ثائرة تنتقل من مكان إلى مكان بسرعة خاطفة. ودخل المشرب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عما وراءه: إن رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا، ثم جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدج: «غدروا بالأبرياء غدرا، لو كان تفريق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص في الهواء من مواقعهم

البعيدة، ولكنهم سايروا المظاهرة فى هدوء مصطنع، وجعلوا يوزعون أنفسهم على مخارج الطريق، وفجأة أشهروا المسدسات وأطلقوا الرصاص، على المقاتل أطلقوا بلا رحمة، وسقط الصغار يتخبطون فى دمهم، الإنجليز وحوش ولكن الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشية، إنها مذبحة مدبرة يا إلهى!» وجاء صوت من آخر المقهى يقول «كان قلبى يحدثنى بأن اليوم لن يمضى على خير»، فأجاب آخر: «أيام تنذر بالشر، فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقع أحداثا خطيرة، هذه معركة وستتلوها معارك، وأؤكد لكم هذا!».

- الضحايا الطلبة دائما، أعز أبناء الأمة، وا أسفاه! . .

- ولكن الضرب سكت أليس كذلك؟! وأنصتوا . .

- المظاهرة الأصلية عند بيت الأمة، وسيستمر الضرب هنالك ساعات طويلة! . .

ولكن الصمت ساد الميدان، ومضى الوقت ثقيلا مشحونا بالتوتر، وأخذت الظلمة تدنو حتى أضيئت انوار المقهى ثم لم يعد يسمع صوت كأنما حل بالميدان والشوارع المحيطة به الموت، وفتح باب المقهى على مصراعيه فتراءى الميدان خاليا من المارة والمركبات. ثم جاء طابور من فرسان البوليس ذوى الخوذات الفولاذية فطاف بالميدان يتقدمه الرؤساء الإنجليز. وكان باطن كمال لا يكف عن التساؤل عن مصير الأبناء. ولما دبت الحركة فى الميدان غادر المقهى متعجلا، ولم يعد إلى بيته حتى مر بالسكرية وقصر الشوق واطمأن على عبد المنعم أحمد ورضوان.

وخلا إلى نفسه فى مكتبته بقلب ملىء بالحزن والأسى والغضب، لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظل عقله غائبا فى منطقة بيت الأمة، فى هور والخطبة الثائرة والهتاف الوطنى وأزيز الرصاص وصرخات الضحايا، ووجد نفسه يحاول أن يتذكر اسم صاحب دكان البسبوسة التى اختبأ بها قديما ولكن الذاكرة لم تسعفه!

٥

كان منظر بيت محمد عفت بالجمالية من المناظر المألوفة المحبوبة لدى أحمد عبد الجواد. هذه البوابة الخشبية التى تبدو من الخارج كأنها مدخل وكالة قديمة، وذلك السور العالى الذى يخفى ما وراءه خلا رءوس الأشجار العالية، أما هذه الحديقة المظللة بأشجار التوت والجميز والمهندسة بأشجار الحناء والليمون والفل والياسمين فشأنها عجيب، وعجيب أيضا بركة المياه التى تتوسطها، ثم الفراندا الخشبية التى تمتد بعرض الحديقة. وكان محمد عفت واقفا على سلم الفراندا ينتظر القادم وهو يحبك عباءته المنزلية، أما على عبد الرحيم وإبراهيم الفار فقد جلسا على كرسيين متجاورين. وسلَّم أحمد على الإخوان ثم تبع محمد عفت إلى الكنبة التى تتوسط الفراندا وجلسا معا. وكانت بدانتهم قد زايلتهم جميعا فيما عدا محمد عفت الذى بدا مترهلا كما بدا وجهه شديد الاحمرار، وقد صلع على عبد الرحيم واشتعلت رءوس الآخرين شيبا، وانتشرت فى صفحات الوجوه التجاعيد، وبدا على عبد الرحيم وإبراهيم الفار أشد إذعانا للكبر، غير أن حمرة وجه محمد عفت كانت بالاحتقان أشبه، وبقى أحمد رغم ضموره وشيبه جميلا صافيا. وكان أحمد يحب هذا المجلس حبا جما، كما يحب منظر الحديقة التى تترامى حتى السور العالى المشرف على الجمالية، وقد مال برأسه إلى الوراء قليلا كأنما ليمكن أنفه العظيم من الارتواء بعبير الفل والياسمين والحناء، وربما أغمض عينيه أحيانا ليخلص لسماع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصان التوت والجميز. غير أن أنبل ما خالط قلبه

فى تلك اللحظة كان شعور الأخوة والصداقة الذى كان يكنه لهؤلاء الرجال . كان يرنو بعينيه الزرقاوين الواسعتين إلى وجوههم الحبيبة التى نكرها الكبر فيفيض قلبه بالأسى والحنان عليهم وعلى نفسه ، وكان أشدهم تعلقا بالماضى وذكرياته ، يفتنه كل ما يذكر بجمال الشباب وصبوة العواطف ومغامرات الفتوة . وقام إبراهيم الفار إلى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتساءل :

ـ من يلاعبنى؟

فقال أحمد مستنكرا وكان قليلا ما يشترك فى ألعابهم :

ـ أجل اللعب إلى حين ، لا يجوز أن نشغل به عن أنفسنا من أول الجلسة .

فأعاد الفار الصندوق إلى مكانه ، ثم جاء نوبى بصينية عليها ثلاثة أقداح شاى وكأس ويسكى بالصودا فتناول محمد عفت الكأس باسما وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاى وكان هذا التوزيع الذى يتكرر كل مساء كثيراً ما يضحكهم ، فقال محمد عفت وهو يلوح بالكأس فى يده ويشير إلى أقداح الشاى فى أيديهم :

ـ عفا الله عن الأيام التى أدبتكم!

فقال أحمد عبد الجواد متنهدا :

ـ إنها أدبتنا جميعا ، وأنت أولنا ، غير أنك قليل الأدب . .

وكان صدر إليهم أمر طبى واحد فى أوقات متقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر ، غير أن طبيب محمد عفت سمح له بكأس واحدة فى اليوم ، وظن أحمد عبد الجواد يومذاك أن طبيب صديقه يتسامح فيما يتشدد فيه طبيبه هو ، فما كان منه إلا أن عرض نفسه عليه ولكت الطبيب حذره فى جد وحزم قائلا :

«إن حالتك غير حالة صديقك» ، وقد افتضح أمر سعيه إلى طبيب

محمد عفت فكان موضع نقاش وتندر طويلين. وعاد أحمد يقول ضاحكا:

ـ لا شك أنك نفحت طبيبك برشوة كبيرة حتى سمح لك بهذه الكأس!

فقال الفار متأوها وهو يرنو إلى الكأس بيد محمد عفت:

ـ كدت والله أنسى نشوتها!

فقال له على عبد الرحيم ممازحا:

ـ فسدت توبتك بهذا القول يا عربيد.

فاستغفر الفار ربه ثم تمتم فى استسلام:

ـ الحمد لله..

ـ بتنا نحسد على كأس واحدة!.. أين.. أين النشوات؟!

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكا:

ـ إذا ندمتم فاندموا على الشر لا على الخير يا أولاد الكلب!

ـ إنك كسائر الوعاظ، ألسنتهم فى دنيا وقلوبهم فى دنيا أخرى..

وإذا بعلى عبد الرحيم يقول رافعا صوته إلى درجة جديدة منذرة بتغيير مجرى الحديث:

ـ يا رجال! ما رأيكم فى مصطفى النحاس؟! الرجل الذى لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبه الأسمى «دستور سنة ١٩٢٣»..

ففرقع محمد عفت بأصابعه وقال فى سرور:

ـ برافو.. برافو!.. إنه أصلب من سعد زغلول نفسه، من كان يرى الملك الجبار مريضا باكيا ثم يصمد أمامه بهذه الشجاعة النادرة ويردد فى ثبات صوت الأمة التى أولته زعامتها قائلا: «دستور سنة ١٩٢٣ أولا» وهكذا عاد الدستور، فمن كان يتصور ذلك؟

فقال إبراهيم الفار وهو يهز رأسه فى عجب :
- تصوروا هذا المنظر ، الملك فؤاد وقد حطمه المرض والشيخوخة ، يضع يده على كتف مصطفى النحاس فى مودة بالغة! ثم يدعوه إلى تأليف وزارة ائتلافية فلا يتأثر النحاس لذلك كله، ولا ينسى واجبه كزعيم أمين، يغفل لحظة واحدة عن الدستور الذى توشك الدموع الملكية أن تغطى عليه، لا يتأثر لشىء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة: دستور سنة ١٩٢٣ أولا يا مولاى.
على عبد الرحيم محاكيا نفس اللهجة :
- أو الخازوق أولا يا مولاى .
أحمد عبد الجواد ضاحكا :
- قسما بمن جرت مقاديره بأن نرى الويسكى بيننا ونتجنبه إنه لموقف عظيم.
وشرب محمد عفت بقية كأسه ثم قال :
- نحن فى عام ١٩٣٥ ، ثمانى سنوات مرت على موت سعد ، وخمسة عشر عاما على الثورة، ولا يزال الإنجليز فى كل مكان، فى الثكنات والبوليس والجيش وشتى الوزارات، الامتيازات الأجنبية التى تجعل من كل ابن لبؤة سيداً مهابا ما زالت قائمة، ينبغى أن تنتهى هذه الحال المؤسفة . .
- ولا تنس الجلادين أمثال إسماعيل صدقى ومحمد محمود والإبراشى.
- إذا ذهب الإنجليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء شأن، ستصبح الانقلابات فى خبر كان. .
- نعم، وإذا فكر الملك أن يلعب بذيله فلن يجد من يسانده!
وعاد محمد عفت يقول :
- سيجد الملك نفسه بين اثنتين فإما احترام الدستور وإما السلام عليكم!

وتساءل إبراهيم الفار فيما يشبه الشك :

ـ وهل يتخلى عنه الإنجليز إذا طلب حمايتهم؟

ـ إذا سلَّم الإنجليز بالجلاء فلماذا يحمون الملك؟

فتساءل الفار مرة أخرى :

ـ وهل يسلم الإنجليز بالجلاء حقا؟

قال محمد عفت فى ثقة من يعتز بثقافته السياسية :

ـ لقد دهمونا بتصريح هور فكانت المظاهرات، وكان الشهداء رحمة الله عليهم، ثم كانت الدعوة إلى الائتلاف، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣، أؤكد لكم أن الإنجليز راغبون الآن فى المفاوضة، حقا إن الإنسان لا يدرى كيف تنكشف هذه الغمة، كيف يمكن أن يذهب الإنجليز أو ينتهى نفوذ الخواجات، ولكن ثقتنا فى مصطفى النحاس لا نهاية لها . .

ـ ثلاثة وخمسون عاما من الاحتلال تنتهى بشوية كلام حول مائدة؟

ـ كلام قد سبق بدم زكى مسفوح . .

ـ ولو . .

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه :

ـ سيجدون أنفسهم فى مركز حرج وسط حالة دولية خطيرة .

ـ يستطيعون أن يجدوا دائما من يؤمن ظهرهم، وإسماعيل صدقى حى لم يمت! . .

فعاد محمد عفت يقول بلهجة العارف :

ـ حادثت كثيرين من المطلعين فوجدتهم متفائلين، يقولون إن العالم مهدد بحرب طاحنة، وإن مصر فى فوهة المدفع، وإن من صالح الطرفين الاتفاق المشرف . .

ثم واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه فى ثقة واطمئنان :

ـ إليكم خبراً هامًا، وعدت بأن أرشح فى دائرة الجمالية فى الانتخابات القادمة، وعدنى النقراشى نفسه.

وتهللت وجوه الأصدقاء سروراً، ثم لما جاء دور التعليق قال على عبد الرحيم متصنعًا الجد:

ـ لا يعيب الوفد إلا أنه يرشح حيوانات أحيانًا باسم نواب!

فقال أحمد عبد الجواد كأنما يدافع عن عيب الوفد:

ـ وماذا يفعل الوفد! إنه يريد أن يمثل الأمة كلها، أبناء حلال وأبناء سفلة، فمن يمثل أولاد السفلة إلا الحيوانات؟!

فلكزه محمد عفت فى جنبه وهو يقول:

ـ عجوز وقارح، أنت وجليلة شخص واحد، كلاكما عجوز وقارح!..

ـ إنى أرضى لو رشحوا جليلة، فهى عند اللزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه!

وهنا قال على عبد الرحيم باسمًا:

ـ قابلتها أول أمس أمام عطفتها، مازالت كالمحمل ولكن الكبر أكل عليها وبال!

فقال الفار:

ـ صارت معلمة قد الدنيا، بيتها شغال ليل نهار، ويموت الزمار وصباعه بيلعب.

فضحك على عبد الرحيم طويلاً ثم قال:

ـ كنت ماراً أمام باب بيتها فرأيت رجلا يتسلل إليه وهو يظن أنه بمأمن من الرقباء، فمن تظنونه كان؟.. (ثم أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبد الجواد).. المحروس كمال أفندى أحمد خوجة مدرسة السلحدار!..

ضحك محمد عفت والفار ضحكة عالية، أما أحمد عبد الجواد فقد اتسعت عيناه ودهشًا وانزعاجًا، ثم تساءل فى ذهول:

- كمال ابنى؟!..

- أى نعم، كان ملتفًا فى معطفه، وعلى عينه نظارته الذهبية، وشاربه الغليظ يختال وقارًا، كان يسير فى رزانة ومهابة كأنما ليس هو ابن «ضحكجى أغا»، وبنفس الوقار انعطف إلى البيت كأنما ينعطف إلى الجامع الحرام، فقلت فى نفس خفف الوطء يا بن المركوب!

وعلا الضحك، أما أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنه رأى أن يتخفف منه بالمشاركة فى الضحك. وتساءل محمد عفت بلهجة ذات مغزى وهو يحدق فى وجه أحمد:

- ما وجه العجب فى ذلك أليس هو ابن حضرتك!

فقال أحمد عبد الجواد وهو يهز رأسه عجبًا:

- عرفته دائمًا مؤدبًا مهذبًا هادئ الطبع، لا يرى إلا فى مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتى أشفقت عليه من الإغراق فى الانزواء والإفراط فى عمل لا جدوى منه..

فقال إبراهيم الفار مداعبًا:

- من يدرى فلعل فى بيت جليلة فرعًا من دار الكتب!

وقال على عبد الرحيم:

- أو لعله يعتزل فى مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أن الإنسان أصله قرد؟!

وضحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذى كان يعلم بخبرته أن الاستسلام للجد فى أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفًا سهلاً للمزاح والقفش، ثم قال:

- لهذا لا يفكر الملعون فى الزواج حتى ظننت به الظنون!..

ـ ما عمر المحروس الآن؟
فى التاسعة والعشرين! . .
ـ يا سلام! . . يجب أن تزوجه، لماذا يرغب عن الزواج؟
تجشأ محمد عفت ثم مسح على كرشه وهو يقول:
ـ هذه موضة فحسب ولكن بنات اليوم يزحمن الشوارع فضعفت الثقة بهن، ألم تسمعوا الشيخ حسنين وهو يغنى «يا ما نشوف حاجات تجنن، البيه والهانم عند مزين؟».
ـ ولا تنس الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام الشباب. إن خريجى الجامعة يتوظفون بعشرة جنيهات إن وجدوا وظيفة بطلوع الروح!
وتساءل أحمد عبد الجواد فى قلق بين:
ـ أخاف أن يعرف أن جليلة كانت يومًا صاحبتى أو تعرف هى أنه ابنى!
فتساءل على عبد الرحيم ضاحكًا:
ـ أحسبتها تستجوب الزبائن؟!
فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه:
ـ لو عرفته الفاجرة لقصت عليه قصة أبيه من الألف إلى الياء!
فهتف أحمد عبد الجواد وهو ينفخ:
ـ لا قدر الله ولا كان. .
فتساءل إبراهيم الفار:
ـ أتحسب أن الذى يستطيع أن يعرف أن جده الأول قرد يعجز عن معرفة أن أباه فاسق فاجر؟!
فضحك محمد عفت عاليًا حتى سعل، وصمت لحظات ثم قال:

ـ الحق أن مظهر كمال خداع، رزين هادئ متزمت، خوجة بكل معنى الكلمة..

فقال على عبد الرحيم بلهجة الترضية:

ـ يا سيدى ربنا يخليه ويطول عمره، ومن شابه أباه فما ظلم.. فعاد محمد عفت يتساءل:

ـ المهم أهو «حلنج» كأبيه؟.. أعنى هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهن؟

فقال على عبد الرحيم:

ـ أما هذا فلا أظن! يخيل إلى أنه يظل متقدمًا برزانته ووقاره حتى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة النصيب، ثم يأخذ فى نزع ثيابه بنفس الرزانة والوقار، ثم يرتمى عليها، وهو فى الغاية من الجد والرزانة كأنما يلقى درسًا خطيرًا!

ـ يخلق من ظهر الحلنج دهل!

وساءل أحمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخط: لماذا يبدو لى الأمر غريبًا؟!. وصمم على أن يتناسى الخبر. ولما رأى الفار يذهب إلى صندوق النرد ويعود به، قال دون تردد أنه آن لهم أن يلعبوا. بيد أن أفكاره ظلت تدور حول الخبر الجديد. وقال لنفسه متعزيًا أنه رباه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرسًا محترمًا فله أن يفعل ما يشاء. ولعله من حسن التوفيق أن يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيمين! ولو أنصف الحظ لتزوج كمال منذ سنوات، ولما تزوج ياسين أبدا، ولكن من يدعى القدرة على حل هذه الرموز؟ وإذا بالفار يسأله:

ـ متى رأيت زبيدة آخر مرة؟

فأجاب أحمد بعد تذكر:

ـ فى يناير الماضى، أى منذ عام تقريبًا، يوم جاءتنى فى الدكان لأبيع لها البيت . .

فقال إبراهيم الفأر :

ـ اشترته جليلة، ثم وقعت المجنونة فى حب عربجى كارو فتركها على الحديدة، وهى الآن تقيم بحجرة على سطح بيت سوسن العالمة فى حال من الاضمحلال يرثى لها!

فهز أحمد عبد الجواد رأسه فى أسف، وتمتم :

ـ السلطانة فى حجرة فوق السطح! . . سبحان من له الدوام . فقال على عبد الرحيم :

ـ نهاية محزنة، بيد أنها كانت متوقعة . .

فندت عن محمد عفت ضحكة رثاء وقال :

ـ فليرحم الله من يأمن إلى هذه الدنيا!

ثم دعا الفار إلى اللعب فتحداه محمد عفت، وسرعان ما التفوا جميعًا حول النرد، وأحمد عبد الجواد يقول :

ـ ترى من يكون حظه كجليلة، ومن يكون كزبيدة!

٦

فى إحدى حجرات قهوة أحمد عبده، جلس كمال وإسماعيل لطيف . وهى نفس الحجرة التى كان كمال يجالس فيها فؤاد الحمزاوى فى مطلع شبابه . وبالرغم من برودة ديسمبر كان جو القهوة دافئا، إذ أنه بإغلاق مدخلها يسد المنفذ الوحيد لها إلى سطح الأرض، فكان من الطبيعى أن تدفأ وإن انتشرت الرطوبة فى جنباتها بدرجة محسوسة . ولم يكن إسماعيل لطيف ليرضى بالجلوس فى قهوة أحمد عبده، لولا

رغبته فى مجاراة كمال. إنه الصديق القديم الذى لم تنقطع بكمال أسبابه، رغم أن مطالب الرزق دفعت به إلى طنطا خبيرًا محاسبًا مذ تخرج فى مدرسة التجارة. فكان إذا عاد إلى القاهرة فى إجازة اتصل به تليفونيا بمدرسة السلحدار، ونال منه موعدًا للقاء فى هذا الركن الأثرى. وجعل كمال ينظر إلى صديقه القديم، كما بدا له بمنظره المدمج وملامحه المدببة الحادة. ويعجب لما آل إليه حاله من رزانة وأدب واستقامة، جعلته مثالاً طيبًا للزوج والأب، الذى كان يومًا مثالاً فذا للقحة والاستهتار والفظاظة. وصب كمال الشاى الأخضر فى قدح صاحبه ثم فى قدحه وهو يقول باسما:

- يبدو أن قهوة أحمد عبده لا تعجبك!

فارتفع رأس إسماعيل فى تطاوله المعهود، وقال:

- إنها غريبة حقًا، ولكن لماذا لا نختار مكانًا فوق سطح الأرض؟!

- على أى حال هى أنسب مكان للناس المستقيمين أمثالك.

فضحك إسماعيل وهو يهز رأسه فى تسليم، كأنما يقر بأنه أصبح جديرًا حقًا بفضيلة الاستقامة، هو الذى كان وكان، وعند ذلك سأله كمال مجاملاً:

- كيف الحال فى طنطا؟

- عال، أما النهار فعمل متواصل فى المصلحة، وأما الليل فأقضيه مع زوجى وأولادى.

- وكيف حال الأنجال؟

- نحمده، إن راحتهم دائمًا على حساب تعبنا، ولكن نحمده فى جميع الأحوال..

فسأله كمال مدفوعا بحب الاستطلاع الذى يثيره فى نفسه حديث الأسرة بصفة عامة: .

- وهل وجدتهم حقًا السعادة الحقيقية، كما يقول العارفون؟

ـ نعم، إنهم لكذلك.

رغم متاعبهم؟

ـ رغم كل شىء!

وجعل كمال ينظر إلى صاحبه بفضول أشد. هذا شخص جديد لا يكاد يمت بصلة إلى إسماعيل لطيف الذى زامله فيمابين عامى ١٩٢١ و١٩٢٧، تلك الفترة الفذة فى حياته التى عاشها بكل جوارحه، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد، فكانت عهد الصداقة الحقة متمثلة فى حسين شداد، وعهد الحب الصادق متبلوراً فى عايدة، وعهد الحماسة العارمة مستمدة من شعلة الثورة المصرية الرائعة، ثم عهد التجارب العنيفة التى قذف بها الشك والمجون والأهواء، وقد كان إسماعيل لطيف هذا رمز العهد الأخير، ودليله الخطير، فأين هو اليوم من ذاك؟! وعاد إسماعيل لطيف يقول فى شىء من التذمر:

ـ بيد أن هناك أموراً تشغل بالنا باستمرار، كالكادر الجديد ووقف الترقيات والعلاوات، وأنت تعلم أننى تعودت على الحياة الرغيدة فى كنف أبى، ولكن أبى لم يترك ميراثًا، ووالدتى بدورها تستهلك كل معاشها، لذلك رضيت فى سبيل الرزق أن أعمل فى طنطا، وهل كان مثلى يرضى بذلك؟!

فضحك كمال قائلاً:

ـ مثلك ما كان يرضى بشىء!

فابتسم إسماعيل فيما يشبه الزهو أعتزازاً بماضيه الحافل الذى هجره بمحض اختياره. وسأله كمال:

ـ ألا تنازعك نفسك إلى معاودة شىء من الماضى؟

ـ كلا شبعت من كل شىء، وأستطيع أن أقول بأنى لم أضجر من حياتى الجديدة بعد، كل المطلوب منى أن أبدى شيئا من المهارة بين

حين وآخر، حتى أفوز ببعض النقود من والدتى، كذلك على زوجى أن تلعب نفس الدور مع أبيها، إذ أنى لا زلت مغرمًا بالحياة الرغيدة. .

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكًا:

ـ علمتنا وتركتنا وحدنا على الطريق. .

فضحك إسماعيل ضحكة عالية أعادت إلى وجهه الرزين كثيرًا من ملامح الماضى الماكرة، وقال:

ـ آآسف أنت على ذلك؟ كلا، أنت تحب هذه الحياة بإخلاص عجيب، غير أنك رجل معتدل، إنى فعلت فى سنوات لعبى القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك «ثم بلهجة جدية». . تزوج وغير حياتك!

فقال كمال بلهجة عابثة:

ـ هذا أمر جدير بالتفكير!

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ خُلق إسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب. على أى حال إنه الصديق القديم الباقى، أما حسين شداد فقد اختطفته فرنسا من وطنه، وكذلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومعاشه، لم يعد لهما من سبب فى القلب وأسفاه، لم يكن إسماعيل لطيف يومًا صديق الروح. ولكنه ذكرى حية من الماضى العجيب، لذلك فهو خليق بأن يعتز به، وأعتز به أيضًا لوفائه، لا مسرة روحية فى مصاحبته، ولكنه آية حية على أن الماضى لم يكن خيالاً، ذلك الماضى الذى أحرص على إثبات حقيقته حرصى على الحياة نفسها، ترى ماذا تصنع عايدة فى هذه اللحظة من الزمان؟ وأين هى فى عالم المكان؟ وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبها؟!. . كل أولئك أعاجيب.

ـ إنى معجب يا سيد إسماعيل، أنت شخص جدير بكل توفيق.

وألقى إسماعيل نظرة على ما حوله، استعرض بها السقف والفوانيس والحجرات والوجوه الحالمة والعاكفين على السمر واللعب، ثم تساءل:

- ماذا يعجبك فى هذه القهوة؟

فلم يجبه كمال على سؤاله، ولكنه قال بلهجة آسفة:

- أما علمت؟! سوف تهدم فى القريب ليقام على أنقاضها عمارة جديدة، سيختفى هذا الأثر إلى الأبد!

- مع ألف سلامة، فلتختف هذه المقبرة ليقوم فوقها عمران جديد.

أنطق بالحق؟ ربما، ولكن للقلب لواعجه، يا قهوتى العزيزة أنت قطعة من نفسى، فيك حلمت كثيراً وفكرت كثيراً، وفيك سكن ياسين أعوامًا، واجتمع فهمى بالثوار ليفكروا ويعملوا من أجل عالم أفضل، ثم إنى أحبك لأنك مصنوعة من مادة الحلم، ولكنما جدوى هذا كله؟. وما قيمة الحنين إلى الماضى؟. ربما ظل الماضى أفيونة أصحاب القلوب، وأشقى ما تصاب به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاك: فلنقل أى كلام ما دمنا لا نؤمن بشىء.

- فى هذا صدقت، إنى أقترح أن يهدموا الهرم إذا وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل!

- الهرم!. ما دخل الهرم فى قهوة أحمد عبده؟!

- أعنى الآثار، أعنى أن نهدم كل شئ فى سبيل اليوم والغد.

فضحك إسماعيل لطيف، وتطاول بعنقه - كما كان يفعل قديمًا كلما تحدى - ثم قال:

- أحيانا تكتب كلامًا يناقض هذا القول، إنى كما تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلة الفكر إكراما لك، وسبق أن صارحتك برأيى، أى نعم، مقالاتك عسيرة، المجلة كلها جافة والعياذ بالله، لم أستطع

المثابرة على اقتنائها لأن زوجتى لا تجد فيها شيئًا يقرأ، ولا تؤاخذنى فهذا قولها! أقول إنى وجدت أحيانًا فيما تكتب نقيض ما تقول الآن، ولكنى لا أزعم أنى أفهم كثيراً ـ وبينى وبينك ولا قليلاً ـ مما تكتب، وبهذه المناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتاب المحبوبون؟ لو فعلت لوجدت جمهوراً كثيراً، ولربحت مالا وفيراً. .

وفى زمن مضى كان يحتقر هذا الرأى فى عناد وثورة، الآن لا يزال يحتقره ولكن دون ثورة، لكنه يشك فى هذا الاحتقار، لا لشبهة فى أنه فى غير موضعه، ولكن لأنه يرتاب أحيانًا فى قيمة ما يكتب، وربما ارتاب فى ارتيابه نفسه، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه قد ضاق بكل شىء ذرعًا، وأن الدنيا تبدو أحيانًا كلفظة قديمة أندثر معناها.

ـ إنك لم ترض يومًا عن عقلى!

إسماعيل وهو يقهقه:

ـ أتذكر؟. يا لها من أيام!

ايام مضت، لم تعد نيرانها تحرق، لكنها مصونة فى موضعها كالجثة العزيزة، أو كعلبة الملبس المستكنة فى مكانها منذ ليلة عائدة. .

ـ ألم يبلغك شىء عن حسين شداد أو حسن سليم؟!

رفع إسماعيل حاجبيه الكثيفين، وقال:

ـ ذكرتنى! حدثت أمور فى العام الماضى الذى قضيته بعيداً عن القاهرة. . ثم استطرد فى اهتمام متزايد:

ـ علمت حال عودتى من طنطا أن أسرة شداد انتهت.

تفجرت فى قلب كمال ثورة اهتمام طاغية، وعانى كثيراً وهو يغالب آثارها الظاهرة، ثم تساءل:

ـ ماذا تعنى؟

أخبرتنى والدتى أن شداد بك أفلس، التهمت البورصة آخر مليم فى حوزته، انتهى شداد، ثم أنه لم يتحمل الصدمة فانتحر!

ـ يا له من خبر! متى حدث ذلك؟

ـ منذ أشهر، وضاع القصر الكبير فيما ضاع من متاع، ذلك القصر الذى عشنا فى حديقته زمنا لا ينسى. .

أى زمن وأى قصر، وأى حديقة، أى ذكريات، أى ألم نسى، أى نسيان مؤلم، الأسرة الرفيعة، الرجل العظيم، الحلم الكبير، أليس هذا الجيشان أضخم مما ينبغى أن يستدعيه الحال؟! وهذه الحقيقة التى تمخض عنها القلب أشد مما تستحق ذكريات عفى عليها النسيان؟

قال كمال بصوت حزين:

ـ انتحر البيك، وضاع القصر، ولكن ما مصير أهله؟

قال إسماعيل فى امتعاض:

ـ لم تعد لأم صديقنا إلا خمسة عشر جنيهًا شهريًا من ريع وقف، وقد انتقلت إلى شقة متواضعة بالعباسية، وقد زارتها والدتى فعادت تصف حالها وهى تبكى، تلك السيدة التى تقلبت فى نعيم لا يتصوره الخيال، ألا تذكر؟

يذكر ولا شك، أم يظنه نسى؟ يذكر الحديقة والكشك والنعيم الذى كان يترنم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنه الساعة حزين حقًا، إن الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية، ولن يحق له أن يحزن بعد الساعة على قهوة أحمد عبده التى يتهددها الزوال، فكل شىء ينبغى أن ينقلب رأسًا على عقب.

ـ إنه لشىء محزن، ومما يضاعف الحزن أننا لم نقم بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

ـ لا شك أنه عاد عقب الحادث، كذلك حسن سليم وعايدة، ولكن لا أحد منهم فى مصر الآن.

ـ وكيف عاد حسين تاركًا أسرته على حالها؟ ومن أين له أن ينفق بعد إفلاس والده؟

ـ سمعت أنه تزوج هناك، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملاً فى أثناء إقامته الطويلة فى فرنسا، لا أدرى شيئا عن هذا، فأنا لم أره منذ ودعناه معًا، كم مضى على ذلك؟ عشرة أعوام على وجه التقريب. أليس كذلك؟ إنه تاريخ قديم، كم أثار شجونى!

كم وكم، أما هو فالدموع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفية، إنها لم تفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدأ، وقلبه يقطر حزنًا، فيذكر بذلك القلب الذى اتخذ من الحزن شعاراً، إن هذا الخبر قد رجه رجًا عنيفًا حتى كاد ينفض عنه الحاضر كله، ويكشف عن الإنسان القديم الذى كان حبًا خالصًا وحزنًا خالصًا، أهذه هى نهاية الحلم القديم؟ الإفلاس والانتحار! كأنما قضى بأن تؤدبه هذه الأسرة بأدب الآلهة الساقطين! الإفلاس والانتحار، وإذا كانت عايدة لا تزال فى بحبوحة من العيش بفضل مكانة زوجها، فماذا طرأ على كبريائها الملائكى؟ وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة إلى . .

ـ كان لحسين أخت صغيرة. ما أسمها؟ إنى أذكره حينا وأنساه أحيانًا كثيرة!

ـ بدور، إنها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة . .

تصور آل عايدة فى حياة متواضعة! كحياة هؤلاء الناس حولنا، فهل تمضى بدور يومًا بجورب مرفو؟ وهل تتخذ من الترام مركبًا؟ آه . . لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين ومهما يكن لعقلك من رأى فى الطبقات وفوارقها، فإنك تشعر من جراء هذا الانقلاب بإنهيار مخيف

ويعز عليك أن تسمع بأن مثُلك العليا تتمرغ فى التراب فلتهنأ على أى حال بأنه لم يبق من الحب شىء، أجل . . ماذا بقى من الحب القديم؟ إذا قال لا شىء فإن قلبه يخفق فى حنان عجيب عند تردد أى أغنية من أغانى ذلك العهد، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيها وأنغامها، فما معنى ذلك؟ لكن مهلاً، إنها ذكرى الحب لا الحب نفسه، ونحن نحب الحب فى جميع الأحوال خاصة الأحوال التى لا حب فيها، أما فى هذه اللحظة فإننى أشعر كأنى غريق فى بحر الهوى، ذلك أن المرض الكامن ينفث سمومه حين الضعف الطارئ، وما الحيلة ما دام الشك زلزل الحقائق جميعًا يقف عند الحب فى حذر، لا لأنه شىء فوق الشك، ولكن احترامًا للحزن، وحرصًا على حقيقة الماضى.

وعاد إسماعيل إلى المأساة سائقًا كثيرًا من التفاصيل، حتى ضاق بها فيما بدا، فقال بلهجة من يود الفراغ من السيرة كلها:

ـ الدوام لله إنه شىء مؤسف حقًا، ولكن حسبنا نكد . .

ولم يحاول كمال أن يدعوه إلى مزيد. كان فيما قال الكفاية، إلى أن وجد رغبة إلى الصمت والتأمل. وكان يبكى بكاء صامتًا بدموع غير منظورة يذرفها قلبه. وأدهشه ذلك بصفته مريضًا قديمًا قد برئ من مرضه، وقال لنفسه متعجبًا: تسعة أعوام أو عشرة! ما أطولها وما أقصرها، ترى ما صورة عايدة الآن؟ كم يود أن يديم إليها النظر ليطلع على سر ذلك الماضى الساحر. بل ليقف على سر نفسه. إنه الآن لا يراها إلا لمحًا خاطفًا فى نغمة قديمة معادة، أو صورة فى إعلان صابون. أو من سباته كالفزع وهو يهمس: هذه هى! ولكن ما هى على الحقيقة قسمة من قسمات نجمة سينمائية، أو ذكرى متسللة، فيستيقظ والواقع؟! ونبا به مجلسه، فتاقت نفسه إلى رحلة مغامرة فى دنيا الغيب، فقال لإسماعيل:

ـ أتقبل دعوتى إلى كأسين فى مكان لطيف مأمون؟

فقهقه إسماعيل قائلاً :

ـ إن زوجتى تنتظرنى لنذهب معًا إلى زيارة خالتها . .

ولم يكترث لرفض دعوته . طالما كانت نفسه نديمه . وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث . أى حديث . وفيما بين ذلك قال كمال لنفسه : قد نضيق بالحب إذا وجد، ولكن شد ما نفتقده إذا ذهب .

٧

مليح هذا المجلس . . غير أن اليد قصيرة، من هذا الموضع الدافئ ترى الغادى والرائح . . من شارع فاروق وإليه . . ومن الموسكى وإليه . . ومن العتبة وإليها، ولولا برودة يناير القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة، تاركًا رغم أنفه الركن البديع التابع للقهوة على الطوار المقابل، ولكن سيأتى الربيع يومًا . . أجل سيأتى غير أن اليد قصيرة، ستة عشر عامًا أو يزيد وأنت حبيس الدرجة السابعة، دكان الحمزاوى بيع بأبخس الأثمان . . وربع الغورية على ضخامته لا يدر إلا جنيهات . . أما بيت قصر الشوق فمسكنى ومأواى، وإذا كان لرضوان جد غنى فكريمة لا عائل لها غيرى، رب أسرة وعشيق، ولكن للأسف اليد قصيرة .

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شاب طويل نحيل ذى شارب مربع ونظارة ذهبية، يخطر فى معطفه الأسود قادمًا من الموسكى متجها نحو العتبة، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كأنما يهم بالقيام، ولكنه لم يفارق مجلسه . ولولا أن الشاب كان مسرعًا لمضى إليه ودعاه إلى مجالسته . كمال خير سمير حين الضجر، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين، لمَ تعجلت الزواج قبل الأوان؟ ولمَ وقعت فيه مرة أخرى قبل أن أفَيق من لطمته الأولى؟ ولكن منَ ذا الذى

لا يشكو: أعزب كان أم متزوجًا؟ وكانت الأزبكية ملاذا ومتعة، ثم حل بها البوار فهى اليوم بؤرة الحثالة والسفلة، لم يبق لك من عالم المسرات إلا لذة المشاهدة فى هذا المفرق من الطريق ثم، الصيد الرخيص، وخير الصيد الرخيص خادمة مصرية من العاملات فى الأسرة الإفرنجية.. فهى فى الغالب مهذبة المظهر نظيفة، أما سيد مزاياها دون منازع فضعف الخلق، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار.

كان قد فرغ من حسو قهوته، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه إلى ملتقى الطرق، يتابع كل ذات حسن، فتنطبع على عدسة عينه صور النساء من ذوات المعاطف والملاءات اللف، يراهن كلا وأجزاء فى مثابرة لا تعرف الكلال. كان يجلس أحيانًا فيطول به الجلوس حتى العاشرة، وفى أحيان أخرى ربما لم يطل به الجلوس إلا ريثما يشرب قهوته، ثم ينهض مسرعًا فى أثر صيد قد آنس منه استجابة ورخصًا، كأنه تاجر روبابيكيا. ولكنه كان يقنع فى الغالب بالمشاهدة، وربما تبع الحسناء دون مقصد جدى، أما الإقدام الحق، كأن يصطاد خادمًا خليعة أو أرملة فوق الأربعين، فكان يقع على فترات وفى حرص شديد. إذ أنه لم يعد الرجل الذى كان، لا لأن الموارد ناءت بالأعباء فحسب، ولكن لسن الأربعين التى نزلت به ضيفًا دون دعوة أو استئذان. يا لها من حقيقة مرعبة! «وشعرة بيضاء فى عارضى طالما أوصيت الحلاق بمعالجتها، وقال الحلاق إن أمر الشعرة هين، ولكن الشيب لا يلبث أن ينفجر. تبًا لهما، للحلاق وللشيب، ووصف الرجل صبغة مفيدة ولكنى لن ألجأ إليها. بيد أن أبى بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة، أين أنا من أبى؟! لا فى الشيب وحده، كان شابًا فى الأربعين، وكان شابًا فى الخمسين، أما أنا! رباه لم أفرط أكثر مما أفرط أبى. أرح رأسك وأتعب قلبك، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقًا

كما يرويها الرواة؟ أين زنوبة من هذا كله؟! جانب من الزواج خدعة بنت كلب، ولكن قوته فى أنك تحتضن الخدعة ما حييت، وسوف تدول دول وتنقلب أزمان، ولم يزل الدهر يتمخض عن امرأة سارحة ورجل جاد فى أثرها، الشباب لعنة، والكهولة لعنات، فأين راحة القلب أين؟ وأتعس ما فى الدنيا أن تتساءل يومًا ذاهلاً أين أنا؟!

وغادر القهوة فى منتصف العاشرة، فقطع العتبة متمهلاً إلى شارع محمد على، ثم مال إلى حانة «النجمة»، وحيا «خالو» المائل وراء البار فى وقفته التقليدية، فرد الرجل تحيته بابتسامة عريضة كشفت عن أنياب صفر مثرمة، ثم أشار بذقنه إلى الحجرة الداخلية كأنما ليخبره بأن أصحابه فى الانتظار. وكان يمتد أمام البار دهليز ينتهى إلى ثلاث حجرات متداخلة يضج جوها بالعربدة، فمضى إلى الأخيرة منها، ولم يكن بها إلا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطل على عطفة الماوردى، قد صفت بها ثلاث موائد متفرقة فى الأركان، خلت اثنتان وأحدق بالثالثة أصحابه الذين استقبلوه مهللين، شأنهم كل مساء. كان ياسين ـ رغم شكواه ـ أصغرهم سنًا، أما أكبرهم فكان أعزب من أصحاب المعاشات، يليه فى مجلسه باشكاتب بالأوقاف، فرئيس المستخدمين بإدارة الجامعة، ثم محام من ذوى الأملاك غير مشتغل. كان الإدمان يلوح فى سحناتهم نظرة ذابلة وبشرة محتقنة أو بالغة الشحوب، وكانوا يتوافدون إلى الحانة فيما بين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها إلا فى الهزيع الأخير من الليل، يتجرعون أردأ أنواع الخمر وأشدها مفعولاً وأرخصها ثمنًا، غير أن ياسين لم يكن يلازمهم من البداية إلى النهاية، أو لم يكن يفعل ذلك إلا فى القليل النادر، وفيما عدا ذلك فكان يمضى معهم ساعتين أو ثلاثا كيفما اتفق، وكالعادة استقبله الأعزب العجوز قائلاً:

ـ أهلا بالحاج ياسين. .

وكان يصر على وصفه بالحاج إكرامًا لإسمه المبارك، أما المحامى وكان أشدهم إدمانًا فقال:

ـ تأخرت يا بطل، حتى قلنا لقد عثر فى امرأة ستحرمنا من أنسه الليلة كلها..

فعلق الأعزب العجوز على كلام المحامى متفلسفًا:

ـ لا يفرق بين الرجل والرجل إلا امرأة!

فقال له ياسين مداعبًا، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف:

ـ لا خوف عليك من هذه الناحية..

فقال العجوز وهو يرفع الكأس إلى فيه:

ـ إلا لحظات شيطانية، فقد تستثيرنى بنت فى الرابعة عشرة..

فقال الباشكاتب:

ـ الاسم لطوبة والفعل لأمشير!

ـ لا أفهم ما تقصد بهذا الكلام البارد.

ـ ولا أنا فاهم!

وجاء خالو بالكأس والترمس، فتناول ياسين الكأس وهو يقول:

ـ يناير هذا العام شايف كيفه.

فقال رئيس المستخدمين:

ـ لله فى خلقه شئون، جاء يناير بالبرودة ولكنه ذهب بتوفيق نسيم إلى غير رجعة!

فصاح المحامى:

ـ انقذونا من السياسة، مازلنا نسكر ونغز بالسياسة حتى أخمدت أنفاسنا، شوفوا حكاية ثانية..

فقال رئيس المستخدمين :

ـ حياتنا فى الواقع سياسية ولا شيء غير هذا .

ـ أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة ، مالك أنت والسياسة؟

فقال الرئيس محتدًا :

ـ درجة سادسة قديم من فضلك ، من أيام سعد!

فقال الأعزب العجوز :

ـ أنا درجتى السادسة من أيام مصطفى كامل ، لذلك أحلت بها على المعاش إكرامًا لذكراه . . اسمعوا ، أليس من الأفضل أن نسكر ونغنى؟

فقال ياسين وهو يهم بإفراغ كأسه :

ـ لنسكر أولاً يا والدى . .

لم يتمتع ياسين فى حياته بنعمة الصداقة العميقة ، ولكنه كان له فى كل مجلس ـ قهوة أو حانة ـ أصحاب ، وكان يألف بسرعة ويؤلف بأسرع من ذلك . ومنذ اتخذ هذه الحانة ـ تبعًا لتطور حالته المادية ـ مجلسًا ليليًا مختاراً عرف هذه الجماعة ، وتوثقت أسباب السمر بينهم ، غير أنه لم يقابل أحدًا منهم فى الخارج ، ولم يسع إلى ذلك ، جمع بينهم الإدمان والاسترخاص ، وكان رئيس المستخدمين أرقاهم مركزاً ، ولكنه كان كثير العيال ، أما المحامى فقد جاء هذه الحانة جريًا وراء سمعة خمرها القوية ، بعد أن لم تعد تؤثر فيه الخمور النظيفة إلا فى النادر ، ثم ألفها واعتادها . وجعل ياسين يشرب ويثرثر ، قاذفًا بنفسه فى دوامة العربدة التى تجتاح المكان وترتطم بأركانه . وكان العجوز الأعزب أحب أفراد الجماعة إليه . ولم يكن يشبع من مداعبته خاصة فيما يتعلق بالرموز الجنسية ، فكان الرجل يحذره من الإفراط . ويذكره بمسئولياته العائلية ، فيقول له ياسين فى استهانة ومباهاة ، نحن قوم خلقنا لهذا ، هكذا أبى ،

وهكذا كان جدى من قبل، وأعاد هذا القول فى هذه السهرة، فتساءل المحامى مازحًا.

ـ وأمك؟ . . أكانت كذلك أيضًا؟

وضحكوا كثيراً وضحك ياسين، غير أن قلبه غاص فى صدره متوجعًا وأفرط فى الشراب. وخيل إليه رغم نشوته أنه يتدهور، فلا المكان مكانه، ولا الخمر خمره، ولا اليوم يومه «وفى كل مكان يتغامزون علىَّ، فأين أنا من أبى؟ ليس أتعس من أن يزيد عمرك وتنقص نقودك، بيد أن رحمة الشراب واسعة، تفيض عليك أنسا، أنسًا رقيقا وعزاء جميلاً يهون عنده كل خطب، فقل ما أعظم مسرتى، لن يعود العقار الذى ضاع، ولا الشباب الذى انقضى، ولكن الخمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر، رضعتها شابًا يافعا، وهاهى تؤنس رجولتى، وسوف يهتز لها طربًا رأسى المجلل بالمشيب، بذلك يفرح منى القلب رغم العناء، وغدا عندما يستوى رضوان رجلاً وتتهادى كريمة عروسًا، أشرب أنخاب السعادة فى العتبة الخضراء، فما أعظم مسرتى».

وإذا بالجماعة تغنى «أسير العشق يا ما يشوف هوان» ثم غنت «يا جارة الوادى» فى جو صاخب وأصوات معربدة، فردد الغناء أقوام من سائر الحجرات والدهليز، ثم ساد صمت مرهق فعاد رئيس المستخدمين يتحدث عن استقالة توفيق نسيم، ويتساءل عن المعاهدة التى تهدف إلى حماية مصر من خطر إيطاليا، ذلك الجار الثقيل القائم فى ليبيا، فما كان من الجماعة إلا أن رددت فى صوت واحد «إرخى الستارة اللى فى ريحنا . . أحسن جيرانا تجرحنا». ورغم إفراط العجوز فى الشراب والعربدة، فقد احتج على هذه الإجابة الماجنة، ورماهم بالهذر فيما يليق به الجد. فأجابوه فى صوت واحد مرددين «صحيح خصامك والا هزار» فلم يسع الشيخ إلا أن يضحك، وأن يعود إلى مشاركتهم بلا تحفظ.

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل، فبلغ بيته فى قصر الشوق حوالى الواحدة صباحًا. وكعادته كل ليلة جعل يمر بحجرات شقته كأنما يقوم بجولة تفتيشية، فوجد رضوان فى حجرته يذاكر، وقد رفع الشاب رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة. وكان الحب بينهما عميقًا، كذلك الاحترام رغم أن رضوان كان يعلم أن والده لا يعود هذه الساعة إلا ثملاً. أما ياسين فكان يعجب بجمال ابنه أيما إعجاب، كما يعجب بذكائه واجتهاده، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذى سيرفع من شأنه، ويعز من كبريائه، ويعزيه عن أمور كثيرة، سأله:

ـ كيف تجد دروسك؟

وإشار إلى نفسه كأنما يقول له «نحن هنا». فابتسم رضوان، وابتسمت فيه عينا هنية المكحولتان، فعاد أبوه يسأل:

ـ أيزعجك إذا أدرت الفونوغراف؟

ـ أما عنى فلا. ولكن الجيران نائمون فى هذه الساعة المتأخرة.

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئًا:

ـ نوم العافية!

ومر بحجرة نوم «الأولاد» فوجد كريمة تغط فى نومها على فراش صغير، على حين بقى فراش رضوان فى الجانب الآخر من الحجرة خاليًا ينتظر فراغه من مذاكرته. وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعبها، ولكنه ذكر ما يصحب إيقاظها فى تلك الساعة من تذمر فعدل عن خاطرته. واتجه صوب حجرته. أجمل الليالى فى هذا البيت حقًا هى ليلة الجمعة، تلك العطلة المقدسة، فإذا عاد إلى بيته ليلة الجمعة ـ بصرف النظر عن الساعة التى يعود فيها ـ فإنه لا يتردد فى أن يدعو رضوان إلى مجلسه بالصالة، ثم يوقظ كريمة وزنوبة، ويدير الفونوغراف، ويمضى فى محادثتهم ـ وممازحتهم حتى الهزيع الأخير من الليل. وكان مغرمًا

بأسرته ـ خاصة رضوان ـ أجل لم يكن يشغل نفسه ـ أو لم يكن لديه من الوقت ـ ليتابعهم برعايته وتوجيهه، تاركًا أمرهم لعناية زنوبة وحكمتهم الفطرية! ومهما يكن الأمر فإنه لم يطق لحظة واحدة أن يمثل حيالهم الدور القاسى الذى مثله أبوه حياله، وكره من صميم قلبه أن يخلق فى قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذى كان يجده نحو أبيه! والحق أنه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أراده. وعندما كان يجمعهم حوله بعد منتصف الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ، وهو فى نشوة من الخمر والحب، كان يمازحهم ويسامرهم، وربما قص عليهم نوادر السكارى الذين صادفهم فى الحانة، غير عابئ بأثر ذلك فى الأنفس البريئة، مستهينًا باحتجاجات زنوبة التى تومئ بها إليه من وراء وراء، فيبدو وكأنما نسى نفسه وجرى على سجيته دون حذر أو مبالاة.

وفى حجرته وجد زنوبة ـ كالعادة ـ نائمة وليست بنائمة. هكذا كانت أبدا، فقبل أن يلج الحجرة يترامى إليه شخيرها، حتى إذا توسطها تحركت وفتحت عينيها وقالت بلهجتها الساخرة «حمدًا لله على السلامة». ثم تنهض لمعاونته على خلع ثيابه وترتيبها. وقد بدت فى صورتها الطبيعية أكبر من سنها، وكثيراً ما ظنها تماثله سنًا. ولكنها باتت أليفته واشتبكت جذورها بجذوره، تلك الغانية القديمة التى نجحت فى معاشرته فيما لم تنجح فيه سيدة من قبل، فأرست حياته الزوجية على أساس متين، نعم لقد انتابت حياتهما فى أول الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنها بدت دائمًا حريصة على حياتهما الزوجية كل الحرص. ومع الأيام صارت أما، ومنيت بالثكل، فلم يبق لها غير كريمة، غير أن ذلك دعاها إلى مضاعفة الاستمساك بحياتها الزوجية، خاصة بعد أن تهددها الذبول وناوأها الكبر المبكر، ثم علمتها الأيام أن تتحلى بالصبر والمهادنة، وأن تتمرس بدور «السيدة» بكل معنى الكلمة، وغالت فى ذلك إلى حد أنها لم تكن تتبرج خارج بيتها حتى فازت أخيرًا باحترام

بين القصرين والسكرية إلى حد ما! ، وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والمودة، على الرغم من أنها لم تكن تجد نحوه حبًا، خاصة بعد أن ثكلت فى الذكر الوحيد الذى أنجبته لياسين، وكانت رغم تغيرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقتها ونظافتها، وقد لاحظها ياسين باسما وهى تعيد ترتيب شعرها أمام المرآة، ومع أنه كان يضيق بها أحيانًا إلى حد الضجر، إلا أنه كان يشعر بحق بأنها أصبحت شيئًا ثمينًا فى حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال.

وجاءت بشال فتلفعت به وهى تقفقف من البرد، وقالت متشكية:

ـ ما أشد البرد! هلا رحمت نفسك من السهر فى الشتاء؟!

فقال ساخرًا:

ـ الخمر تغير الفصول كما تعلمين، لم تتعبين نفسك بالاستيقاظ؟

ـ فنفخت قائلة:

ـ فعلك متعب وكلامك متعب!

بدا فى لبابه كالمنطاد، ومسح بيده على كرشه وهو يرنو إلى المرأة فى ارتياح، وكانت عيناه السوداوان تشتعلان، ثم ضحك فجأة قائلاً:

ـ لو رأيتنى وأنا أتبادل التحية مع العساكر! أمسى عساكر آخر الليل أصدقائى الأعزاء!

فغمغمت وهى تتنهد:

ـ يا فرحتى!

٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير فى الغورية بخطواته المتئدة مما يلفت الأنظار حقًا. كان فى السابعة عشرة من عمره، مكحول العينين،

متوسط القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء، أنيق الملبس إلى حد التبرج، ينتسب ببشرته الوردية إلى آل عفت، فهو يشع بهاء ونوراً، وتنم حركاته عن دلال من لا يخفى عليه جماله، وعندما مر بالسكرية أتجه رأسه إليها فيما يشبه الابتسام، وذكر لتوه عمته خديجة وابنيها عبد المنعم وأحمد، فوجد لذكرهما شعوراً لا يخلو من فتور، والحق أنه لم يجد من نفسه مشجعًا ـ ولو مرة ـ على أن يتخذ أحدًا من أقربائه صديقًا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. وسرعان ما اجتاز بوابة المتولى، ثم مال إلى الدرب الأحمر، حتى بلغ به المسير باب بيت قديم فطرقه وانتظر، وفتح الباب عن وجه حلمى عزت، صديق صباه، وزميله اليوم بكلية الحقوق، ومنافسه ـ فيما بدا ـ فى الجمال. وتهلل وجه حلمى لرؤياه، ثم تعانقًا وتبادلاً قبلة كعادتهما عند اللقاء. ومضيا معا يصعدان السلم، وفى اثناء ذلك جعل حلمى ينوه بربطة رقبة صديقه وتجاوب لونها مع قميصه وجوربه، وكان يضرب بهما المثل فى الأناقة وحسن الذوق، فضلاً عن أن اهتمامهما بالملابس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو دراسة القانون. وانتهيا إلى حجرة كبيرة عالية السقف، دل وجود الفراش والمكتب بها على انها معدة للنوم والمذاكرة معًا. والحق أنهما طالما سهراً بها يذاكران، ثم ناما جنبا إلى جنب على الفراش الكبير ذى الأعمدة السوداء والناموسية. ولم يكن بيات رضوان خارج البيت بالشىء الجديد، فقد اعتاد منذ صباه أن يدعى إلى أكثر من بيت لقضاء عدة أيام، كبيت جده محمد عفت بالجمالية، أو بيت أمه بالمنيرة التى لم تنجب غيره رغم زواجها من محمد حسن، ولذلك ولميل أبيه الطبيعى على اللامبالاة، وترحيب زنوبة الخفى بكل ما يبعده عن بيتها ولو إلى حين، لم يجد معارضة فى البيات عند صديقه فى مواسم المذاكرة، ثم صار الأمر بعد ذلك مألوفًا فلم يكن أحد ليعيره أى اهتمام، وفى مثل هذا الجو من اللامبالاة نشأ حلمى عزت. توفى أبوه ـ وكان مأمور قسم ـ

منذ عشرة أعوام. وفى ذلك الوقت كانت أخواته الست قد تزوجن، فعاش وحده مع أمه العجوز، ووجدت المرأة صعوبة فى بادئ الأمر فى السيطرة عليه، ثم ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كله. وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير، وإيجار الدور الأول من بيتها القديم، فلم تعرف الأسرة الحياة الرهيفة منذ وفاة الأب، ولكن حلمى لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسية حتى التحق بكلية الحقوق، محافظًا فى أثناء ذلك كله على ما تتطلبه حياته من مظاهر الاحترام. وكان سرور حلمى بلقاء صديقه لا يعادله سرور، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة إلا به، لذلك بعث وجوده فى نفسه نشاطًا وحماسة، فأجلسه على الكنبة الملاصقة لباب المشربية وجلس إلى جانبه، وراح يفكر فى اختيار موضوع - وما أكثر المواضيع لمحادثته، غير أن نظرة واجمة لاحت فى عينى رضوان اعترضت تيار حماسه، فرنا إليه متسائلاً، ثم خمن ما هنالك فتمتم:

- زرت والدتك؟. أراهن أنك قادم من هناك..

أدرك رضوان أن صدق تخمين صاحبه يرجع إلى وجهه هو، فلاح الضجر فى عينيه، وهز رأسه بالإيجاب دون أن يتكلم، فسأله حلمى:

- وكيف حالها؟

- عال...

ثم وهو يتنهد:

- ولكن هذا المدعو محمد حسن!! أنت لم تعرف معنى أن يكون لأمك زوج غير أبيك!

فقال حلمى مواسيًا:

- كثيراً ما يقع هذا، لا عيب فيه، ثم إنه شىء قديم!

فهتف رضوان حانقًا:

ـ لا لا لا ، إنه دائمًا فى البيت ، لا يبرحه إلا إلى عمله فى الوزارة ، نفسى مرة أزورها فأجدها وحدها ، ويطيب له أن يمثل دور الوالد والمرشد ، سحقًا له ، وعند كل مناسبة يذكرنى بأنه رئيس أبى فى إدارة المحفوظات . ولا يتردد عن انتقاد مسلكه فى عمله ، ولكنى من ناحيتى لا أسكت له . .

وصمت دقيقة حتى يهدأ انفعاله ، ثم واصل حديثه :

ـ أمى حمقاء إذ رضيت أن تتزوج من هذا الرجل ، ألم يكن من الأفضل أن تعود إلى أبى؟

وكان حلمى يعرف الكثير عن سيرة ياسين المشهورة ، فقال باسما :

ـ فى العشق ياما كنت أنوح !

فلوح رضوان بيده معاندًا ، وهو يقول :

ـ ولو ! إن ذوق النساء سر مخيف والأدهى من ذلك أنها فيما يبدو راضية !

ـ لا تسع وراء ما ينغص صفوك . .

فقال رضوان فى نبرات حزينة :

ـ يا للعجب ، إن جانبًا عريضًا من حياتى ينضح بالتعاسة ، إنى أمقت زوج أمى ولا أحب امرأة أبى ، جو مشحون بالبغضاء ، إن أبى ـ كأمى ـ لم يحسن الاختيار ، ولكن ماذا فى وسعى أن أفعل؟ ! وامرأة أبى تحسن معاملتى ولكن لا أتصور أنها تحبنى ، هذه الحياة ما أرذلها !

وجاءت خادم عجوز بالشاى ، فتحلب ريق رضوان الذى عانى فى الطريق من رياح فبراير القاسية . وساد الصمت وهما يذيبان السكر . وتغير تعبير وجه رضوان فأذن ذلك بإنهاء السيرة المحزنة ، ورحب حلمى بذلك فقال فى ارتياح :

ـ تعودت المذاكرة معك ، فلا أدرى كيف أذاكر وحدى . .

فابتسم رضوان متجاوبًا مع هذا الشعور الرقيق، ولكنه سأله فجأة:

- هل اطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد المفاوضة؟

- نعم. ولكن كثيرين يلغطون متشائمين بالجو الذى يحيط بالمفاوضة.

- ويبدو أن إيطاليا - التى تهدد حدودنا - هى محور المفاوضة الحقيقى، والإنجليز من جانبهم يهددون فى حال فشل الاتفاق!

- إن دماء الشهداء لم تبرد بعد، وعندنا دماء جديدة!

فهز حلمى رأسه قائلاً:

- هذا كلام يقال، لقد سكت القتال وبدأ الكلام، ما رأيك؟

- على أى حال فإن للوفد أغلبية ساحقة فى هيئة المفاوضة، تصور أنى سألت محمد حسن زوج أمى عن رأيه فى الموقف، فقال لى ساخراً: «أتتوهم حقًا أن الإنجليز يمكن أن يخرجوا من مصر؟!»، هذا هو الرجل الذى ارتضته أمى زوجًا!

فضحك حلمى عزت عاليًا وسأله:

- وهل يختلف رأى أبيك عن ذلك؟

- إن أبى يكره الإنجليز، وحسبه ذلك.

- أيكرههم من صميم قلبه؟

- إن أبى لا يكره ولا يحب شيئاً من صميم قلبه!

- إنى أسألك عن رأيك أنت، هل أنت مطمئن؟

- لم لا، حتى متى تبقى القضية معلقة؟ أربعة وخمسون عامًا من الاحتلال، أف، لست أنا التعيس وحدى!

فتناول حلمى عزت آخر رشفة من قدحه وقال باسمًا:

- يبدو لى أنك كنت تحادثنى بهذه الحماسة عندما وقعت عيناه عليك!

ـ من؟

فابتسم حلمى عزت ابتسامة غريبة، وقال:

ـ كلما تحمست تورد وجهك وبرز جمالك فى أحسن أحواله، وفى لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شك وأنت تحادثنى، كان ذلك يوم ذهب وفد الطلبة إلى بيت الأمة داعين إلى الاتحاد، ألا تذكر ذلك اليوم؟

فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول إخفاءه:

ـ نعم، ولكن من هو؟

ـ عبد الرحيم باشا عيسى!

فتفكر رضوان قليلاً ثم تمتم:

ـ رأيته مرة عن بعد..

ـ أما هو فقد رآك اليوم لأول مرة.

وارتسمت على وجه رضوان علامة استفهام، فعاد حلمى يقول:

ـ وعندما قابلنى عقب انصرافك سألنى عنك، وطلب إلى أن أقدمك إليه فى أول فرصة!

وتبسم رضوان ثم قال:

ـ هات كل ما عندك.

فقال حلمى وهو يربت منكب صاحبه:

ـ دعانى وسألنى بخفته ـ على فكرة هو خفيف جداً: ـ «من المليح الذى كان يحدثك؟» فأجبته أنه زميل فى الحقوق وصديق قديم واسمه كذا الخ. فسألنى باهتمام: «ومتى تقدمه إلى؟» فسألته بدورى متجاهلا غرضه: «ولمه يا باشا؟» فانفجر قائلاً كالغاضب ـ

هكذا تبلغ به خفة الروح أحيانا ـ: «لأعطيه درسًا فى الديانه يابن الكلب». فضحكت بدورى حتى كتم فمى بيده . .

وساد الصمت لحظة دوت فيها الريح فى الخارج، وترامى صوت ارتطام ضلفة شباك بجدار، ثم علا صوت رضوان وهو يتساءل:

ـ سمعت عنه كثيرًا، أهو كما يقال؟

ـ وأكثر . . .

ـ لكنه عجوز!

فقال حلمى عزت وأساريره تنطق بالضحك دون صوت:

ـ هذا فى المرتبة الأخيرة من الأهمية، إنه رجل كبير المقام، ظريف، ذو نفوذ ولعل شيخوخته أجل فائدة من الشباب . .

فعاود رضوان الابتسام، ثم تساءل:

ـ أين منزله؟

ـ فيللا هادئة فى حلوان.

ـ آه تكتظ بالقاصدين من كافة الطبقات!

ـ سنكون ضمن مريديه، لم لا؟! إنه من شيوخ الساسة ونحن من شبابهم!

فتساءل رضوان فى شىء من الحذر:

ـ وزوجه وأولاده؟

ـ يالك من جاهل، إنه أعزب، لم يتزوج قط ولا يحب هذه السيرة، كان وحيد أبويه، وهو يعيش وحده مع خدمه كأنه مقطوع من شجرة، وإذا عرفته فلن تسلو عنه أبدًا . .

وتبادلا نظرة باسمة طويلة تفيض بالمؤامرات، حتى قال حلمى عزت فى شىء من الجزع:

ـ سلنى متى نذهب لزيارته من فضلك؟

فقال رضوان وهو ينظر إلى ثمالة الشاى فى قدحه :

ـ متى نذهب لزيارته؟

٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع النجاة بحلوان آية فى البساطة والأناقة. فيللا سمراء مكونة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار تكتنفه حديقة أزهار، ويستهل بسلاملك. وكان البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة فى صمت مريح. وكان يجلس على أريكة عند الباب البواب وسائق السيارة، بواب نوبى بارع القسمات ممشوق القوام، وسائق فى ريق الشباب مورد الخدين. وهمس حلمى عزت فى أذن رضوان وهو يمد بصره نحو السلاملك :

ـ صدق الباشا فيما وعد، فلا زائر اليوم غيرنا!

وكان حلمى عزت معروفًا لدى البواب والسائق، فوقفا لاستقباله فى أدب، ولما داعبهما ممازحًا انطلقا يضحكان دون كلفة. وكان الجو قارص البرودة رغم جفافه، فدخلا بهو استقبال آية فى الفخامة، تتصدره صورة كبيرة لسعد زغلول فى بذلة التشريفة، ومال حلمى عزت إلى مرآة ممتدة طولاً حتى السقف تتوسط الجدار الأيمن، فألقى على صورته نظرة متفحصة طويلة، فلم يتردد رضوان أن يلحق به. وأن يمتحن منظره بنظرة مثلها، حتى قال حلمى باسما :

ـ قمران يرتديان بذلة وطربوشا، واللى يعشق جمال النبى يصلى عليه!

وجلسا متجاورين على كنبة مذهبة ذات غطاء أزرق وثير. ومرت

دقائق ثم سمعت حركة آتية من وراء الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد، فاتجه ناحيتها رأس رضوان وقلبه يخفق باهتمام. وما لبث أن تراءى الرجل فى بذلة سوداء أنيقة، تنتشر بين يديه رائحة زكية، وقد بدا داكن السمرة، حليق الوجه، نحيل الجسم، مائلاً إلى الطول نوعًا، ذا قسمات دقيقة براها الكبر، وعينين صغيرتين ذابلتين، أما طربوشه فقد مال إلى الأمام حتى كاد يمسى حاجبيه، وكان يتقدم هادئًا وقورًا فى خطوات متقاربة وبطيئة معًا، فانعكس منه إلى قلب الشاب إجلالا وطمأنينة. ولازم الصمت حتى وقف أمام الشابين اللذين وقفا لاستبقاله، ثم تفحصهما بنظرة ثاقبة ثبتت على رضوان طويلاً حتى اختلج جفناه، ثم ابتسم فجأة، فشاع فى الوجه القديم إيناس وجاذبية قربت المسافة التى تفصل بينه وبينهما حتى لم تعد شيئًا. ومد حلمى يده فتناولها الآخر واستبقاها فى يده، ثم مد بوزه وانتظر، فأدرك حلمى غرضه، وسرعان ما عرض له خده فقبله، ثم نظر صوب رضوان قائلاً بصوت رقيق:

- لا تؤاخذنى يابنى، فهذه هى طريقة السلام عندى..

ومد رضوان يده فى حياء، فتناولها الرجل وهو يتساءل ضاحكًا:

- وخدك؟

فتورد وجه رضوان، وهتف حلمى مشيرًا إلى نفسه:

- المخابرة يا سعادة الباشا مع ولى الأمر!

فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة رضوان، ثم دعاهما إلى الجلوس وهو يجلس على مقعد كبير على كثب منهما، وقال باسما:

- ولى أمرك هذا ملعون يا رضوان، أليس هذا هو أسمك؟ أهلا وسهلاً، لقد رأيتك فى صحبة هذا الولد الشقى، فراقنى أدبك وتمنيت لقاءك، وها أنت لم تضن على به..

ـ إنى سعيد بالتشرف بمعرفتك يا سعادة الباشا .

فقال الرجل وهو يدير خاتمًا ذهبيًا كبيراً فى بنصر يسراه :

ـ أستغفر الله يا بنى ، لا تستعمل عبارات التعظيم وألقاب التفخيم ، إننى لا أحب شيئًا من هذا كله ، الذى يهمنى حقًا هو الروح اللطيف والنفس الصافية والإخلاص ، أما سعادة الباشا وسعادة البك فكلنا أبناء آدم وحواء ، الواقع لقد راقنى أدبك فوددت لو أدعوك على بيتى ، فأهلاً بك وسهلاً ، أنت زميل حلمى فى كلية الحقوق ، أليس كذلك؟

ـ نعم يا فندم ، إننا زملاء من عهد خليل أغا الابتدائية . .

فرفع الرجل حاجبيه الأشيبين فى إعجاب قائلاً :

ـ زمالة صبا ! . . (ثم وهو يهز رأسه) . . جميل ، جميل ، لعلك مثله من حى الحسين؟

ـ نعم يا سيدى ، ولدت فى بيت جدى السيد محمد عفت بالجمالية ، وأقيم الآن بمنزل والدى بقصر الشوق . .

ـ أحياء مصر الأصيلة ، البقاع الطيبة ، ما رأيك لقد عشت فيها دهراً مع المرحوم أبى فى بيرجوان ، كنت وحيد أبوى ، وكنت عفريتًا ، وطالما جمعت الصبيان فى شبه زفة ومضينا من حارة إلى حارة نعاكس طوب الأرض ، ويا ويل الدنف لو رماه القدر إلى طريقنا ، وكان أبى يثور غضبه فيجرى ورائى بالعصا . . قلت يا بنى إن جدك هو محمد عفت؟

فقال رضوان بفخار :

ـ نعم يا سيدى . .

فتفكر الباشا قليلاً ثم قال :

ـ أذكر أنى رأيته مرة فى بيت نائب الجمالية ، رجل وجيه ووطنى

صادق، كاد يرشح نائبًا فى الانتخابات القادمة لولا تنحيه فى آخر لحظة لصديقه النائب القديم، إن الاتحاد الأخير أوجب الصداقة فى الانتخابات حتى يظفر إخواننا الأحرار الدستوريون ببعض المقاعد، إذن أنت زميل حلمى فى الحقوق! جميل، القانون سيد الدراسات، وهو يتطلب لدراسته ذكاء لماحا، أما عن المستقبل فما عليك إلا الاجتهاد!

وجد فى نبراته الأخيرة ما يوحى بالوعد والتشجيع، فدب فى قلبه الطموح والحماسة فقال:

ـ نحن لم نفشل ولا مرة واحدة فى حياتنا الدراسية!

ـ برافو، هذا هو الأساس، بعد ذلك تجىء النيابة ثم القضاء وسيوجد دائمًا من يفتح الأبواب المغلقة أمام المجتهدين، حياة القضاء شىء عظيم، عمادها الذكاء اليقظ والضمير الحى، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة، فالوطنية تحتم علينا أحيانًا أن نهجر أعمالنا المحبوبة ولكن إلى اليوم تجد من يضرب بنا المثل فى العدالة والنزاهة، فضع نصب عينيك فى الاجتهاد والنزاهة وأنت حر بعد ذلك فى حياتك الخاصة، قم بواجبك وافعل ماتشاء، أما إذا قصرت فى الواجب فلن يرى الناس فيك إلا النقائص، ألا ترى أنه لا يحلو لكثير من الفضوليين إلا أن يقولوا فلان الوزير به الداء الفلانى. وفلان الشاعر به الداء العلانى. حسن، ولكن ليس كل المصابين وزراء وشعراء، فكن وزيرًا وشاعرًا أولاً وافعل بعد ذلك ما تشاء، لا يغيبن عن ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان. .

وهنا قال حلمى عزت بخبث:

ـ كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه، أليس كذلك يا سعادة الباشا؟

فثنى الرجل رأسه إلى منكبه الأيمن، وقال:

ـ طبعًا، سبحان من له الكمال وحده، الإنسان ضعيف جدًا يا رضوان، ولكن عليه أن يكون قويًا فى الجوانب الأخرى. مفهوم؟ لو تشاء أحدثك عن كبار الرجال فى الدولة ولن تجد واحدًا خاليًا من داء، وسوف نتحادث طويلاً ونتدارس العبر كيما تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة . .

فنظر حلمى إلى رضوان قائلاً:

ـ ألم أقل لك إن صداقة الباشا كنز لا يفنى؟

فقال عبد الرحيم عيسى موجهًا الخطاب إلى رضوان الذى لم تكد تتحول عنه عيناه:

ـ إنى أحب العلم وأحب الحياة وأحب الناس، وديدنى أن آخذ بيد الصغير حتى يكبر، وأى شىء فى الدنيا خير من الحب؟ يجب إذا واجهتنا مشكلة قانونية أن نحلها معًا، وإذا فكرنا فى المستقبل أن نفكر معًا، وإذا نازعتنا أنفسنا إلى الراحة أن نرتاح معًا، ما وجدت رجلاً حكيمًا مثل حسن بك عماد، اليوم هو من رجال السلك السياسى المعدودين، ودعك أنه من أعدائى السياسيين. ولكنه كان إذا تفرغ لبحث قتله، وإذا طرب رقص عاريًا، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيمًا واسع . . . الإدراك! ألست واسع الإدراك يا رضوان؟

فأجاب عنه حلمى عزت من فوره:

ـ إذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه! . .

فأشرق وجه الباشا بابتسامة طفلية نمت عن رغبته التى لا حد لها فى المسرة، وقال:

ـ هذا الولد عفريت يا رضوان، ولكن ما حيلتى؟ إنه زميل صباك

يا بخته، ولست أنا القائل إن الطيور على أشكالها تقع. لازم أنت أيضًا عفريت، خبرنى يا رضوان من أنت؟ هه. إنك تركتنى أتكلم بلا وعى وأنت صامت كدهاة السياسة، هه؟ قل يا رضوان ماذا تحب وماذا تكره؟

عند ذاك دخل الخادم حاملاً صينية القهوة، وكان فتى أمرد شبيها بالبواب والسائق، فشربوا أكواب الماء الممزوجة بالزهر، وجعل الباشا يقول:

ـ الماء بالزهر شراب أهل الحسين، أليس كذلك؟

فغمغم رضوان باسما:

ـ نعم يا سيدى.

فقال الباشا وهو يهز رأسه طربًا:

ـ يا أهل الحسين مدد!

وضحكوا جميعًا، حتى الخادم ابتسم وهو يغادر البهو، واستطرد الباشا متسائلاً:

ـ ما تحب؟ وماذا تكره؟ تكلم بصراحة يا رضوان، دعنى أيسر لك الجواب، أأنت مهتم بالسياسة؟

فقال حلمى عزت:

ـ كلانا فى لجنة الطلبة.

ـ هذا أول سبب للمقاربة بيننا، وهل لك فى الأدب؟

فأجاب حلمى عزت:

ـ إنه مغرم بشوقى وحافظ والمنفلوطى..

فنره الباشا قائلاً:

ـ اسكت أنت، أريد يا أخى أن أسمع صوته..

فضحكوا، وقال رضوان باسمًا:

ـ إنى أموت فى شوقى وحافظ والمنفلوطى..

فقال الباشا بإعجاب:

ـ «أموت فى» ياله من تعبير، لا تسمعه إلا فى الجمالية، أهى نسبة إلى الجمال يا رضوان؟ إذن أنت من هواة «فضة ذهب» و«فى الليل لما خلى» و«من يكن» و«فنن يشيله وفنن يحطه»، الله.. الله، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جمالية، وهل تحب الغناء؟

ـ إنه من غواة..

ـ اسكت أنت.

فضحكوا مرة أخرى، وقال رضوان:

ـ أم كلثوم.

ـ جميل، لعلى من عشاق القديم، ولكن الغناء كله جميل، فأنا أحبه ثقيله وخفيفه كما يقول المعرى، وأموت فيه كما تقول حضرتك. جميل جدًا، الليلة عجب.

ودق جرس التليفون، فنهض الباشا إليه، ووضع السماعة على أذنه وهو يقول: آلو!

ـ أهلاً أهلاً معالى الباشا.

ـ ....

ـ أنا قلت رأيى للزعيم صراحة، وهو رأى ماهر والنقراشى أيضًا.

ـ ....

ـ آسف يا باشا، لا أستطيع. أنا لا أنسى أن الملك فؤاد هو الذى عارض فى ترقيتى يومًا، والملك فؤاد آخر من يتكلم فى الأخلاق، وعلى أى حال سأقابلك غدًا فى النادى، سلام عليكم يا باشا..

وعاد الرجل متجهم الوجه، ولكنه ما كاد يرى وجه رضوان حتى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلاً:

ـ نعم يا سيد رضوان، تعارفنا وما أجمل التعارف، أنصحك بالاجتهاد، أنصحك بألاتتخلى عن الواجب والمثل الأعلى، بعد ذلك أحدثك عن الطرب والهناء. .

وهنا نظر رضوان فى ساعته، فلاح الجزع فى وجه الباشا وقال:

ـ إلا هذا!، الساعة عدو مجالس الأنس.

فتمتم رضوان فى شىء من الارتباك:

ـ ولكنا تأخرنا يا سعادة الباشا.

تأخرنا!. أتعنى أنه تأخر بى العمر!! أخطأت يا بنى، مازلت أحب السهر والجمال والغناء بعد الساعة الواحدة، السهرة لم تبدأ بعد، لم نقل إلا بسم الله الرحمن الرحيم، لا تعترض. السيارة تحت أمركما حتى الصباح، وبلغنى أنك تبيت خارج البيت للمذاكرة، فلنذاكر، لم لا؟. ما أحلى أن أعود إلى المدخل فى القانون العام أو شىء من الشريعة، بهذه المناسبة من يدرس لكم الشريعة؟ الشيخ إبراهيم نديم، مساه الله بالخير، إنه كابتن عظيم، لا تدهش، سنؤرخ يومًا لكل رجال العصر، يجب أن تفهم كل شىء، ليلتنا ليلة محبة وصداقة، خبرنى يا حلمى ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة؟

فقال حلمى باطمئنان:

ـ ويسكى وصودا وشواء.

فقال الباشا ضاحكًا:

ـ وهل الشواء شراب يا شقى؟

١٠

عقب الغداء من يوم الخميس يلتئم شمل أسرة خديجة على نحو لا يكاد يتغير. وهكذا جمعت الصالة بين الأب إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، ولما كان من النادر أن تبقى خديجة بدون عمل فقد جلست بينهم وهى تطرز غطاء مائدة، وقد بدأ الكبر أخيراً على إبراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جبارة، فشاب شعره وترهل بعض الشىء، وإن حافظ فيما عدا ذلك على صحة يحسد عليها، وكان يدخن سيجارة، ويأخذ مكانه بين ابينه فى هدوء وطمأنينة. تعكس عيناه البارزتان نظرة الخمول واللامبالاة التقليدية، على حين لم ينقطع الشابان عن الحديث، فيما بينهما حينا، أو مع الأب أو الأم التى شاركت فى الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم. لم يعد فى الجو ما ينغص على خديجة صفوها، إذ لم يبق من ينازعها السيادة فى بيتها مذ توفيت حماتها. كانت تقوم بواجباتها بهمة لا تخذلها أبدا، وترعى سمانتها بعناية فائقة وهى جوهر جمالها كله، وتحاول فرض رعايتها على الجميع، الأب والابنين، فيطاوع الرجل، وأما عبد المنعم وأحمد فيشق كل سبيله كما يرى مستعيذين بحبها من سطوتها. وقد نجحت منذ سنوات فى حمل زوجها على احترام تقاليد الدين، فمارس الرجل الصلاة والصوم واعتادهما، وكان عبد المنعم وأحمد قد شبا على ذلك من قبل، غير أن أحمد توقف عن أداء الفريضة منذ عامين، وجعل يتهرب من استجواب أمه كلما استجوبته أو يتعلل بعذر أو بآخر. وكان إبراهيم شوكت يحب أبنيه حبا جما، ويعجب بهما أشد الإعجاب، وينوه فى كل فرصة بنجاحهما

المتواصل الذى بلغ بعبد المنعم كلية الحقوق وبأحمد نهاية المرحلة الثانوية، وفى ذلك كانت خديجة تقول فى مباهاة :

- كل هذا ثمرة اهتمامى أنا، لو ترك الأمر لك ما فلح أحدهما ولا كان له شأن . .

وقد ثبت أخيراً أنها نسيت مبادئ القراءة والكتابة لعدم الاستعمال مما جعلها هدفًا لسخرية إبراهيم، حتى اقترح ابناها أن يذكراها بما نسيت ردًا لجميلها الذى تباهى به، فغضبت قليلاً وضحكت كثيراً، ثم لخصت الحال فى كلمة قائلة :

- لا حاجة بامرأة إلى الكتابة والقراءة ما دامت لا تكتب رسائل غرام!

بدت فى أسرتها سعيدة راضية، ولعل شهية عبد المنعم وأحمد لم تكن تعجبها كثيراً، كما أن نحافتهما كانت تغيظها فقالت باستياء :

- قلت ألف مرة إنه يجب أن تغيرا ريقكما على البابونج ليفتح شهيتكما، يجب أن تأكلاً جيداً، ألا تريان أباكما كيف يأكل؟

وابتسم الشابان وهما ينظران نحو أبيهما، فقال الرجل :

- ولماذا لا تضربين المثل بنفسك، وأنت تأكلين كالطاحونة؟

فقالت باسمة :

- إنى أترك لهما الحكم والخيار .

فقال إبراهيم محتجًا :

- عينك يا شيخة! أصابتنى، لذلك نصحنى الدكتور بأن أخلع أسنانى . .

فلاحت فى عينيها نظرة رقيقة، وقالت :

- لا تجزع، ستذهب بشرها، ولن تشكو ألما بعد ذلك إن شاء الله . .

وهنا خاطبها أحمد قائلاً :

- جارنا ساكن الدور الثانى يرجو أن يؤجل دفع الأجرة حتى الشهر القادم، قابلنى على السلم فرجانى فى ذلك!

فسألته وهى تنظر إليه مقطبة :

ـ وماذا قلت له؟

ـ وعدته بأن أحدث أبى . .

ـ وهل حدثت أباك؟

ـ ها أنا أحدثك أنت!

ـ إننا لا نشاركه فى شقته فلا يجوز له أن يشاركنا فى رزقنا، ولو تساهلنا معه لتبعه ساكن الدور الأول، أنت لا تعرف الناس فلا تتدخل فيما لا يعنيك . .

فنظر أحمد إلى أبيه متسائلاً :

ـ ما رأيك يا بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت قائلاً :

ـ فى عرضك لا تصدع دماغى، عندك أمك . .

فعاد أحمد على أمه قائلاً :

ـ إذا تساهلنا مع رجل مزنوق فلن نجوع . .

فقالت خديجة بامتعاض :

ـ لقد حدثتنى زوجه وأجلت لها الدفع فليترح بالك، ولكنى أفهمتها أن أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب، أفى ذلك خطأ؟ إنى ألام أحيانًا لأنى لم أتخذ من جاراتى صديقات، ولكن من يعرف الناس يحمد الله على الوحدة . .

فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه :

ـ وهل نحن خير الناس؟

فعبست خديجة قائلة :

ـ نعم، إلا إذا كان لك فى نفسك رأى آخر!

فقال عبد المنعم:

- رأيه في نفسه أنه خير الناس جميعًا، لا رأى إلا رأيه، والحكمة موقوفة على رأسه!

فقالت خديجة متهكمة:

- ومن رأيه أيضًا أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرتها!

فقال عبد المنعم ضاحكًا:

- إنه غير مقتنع بأنه من حق بعض الناس أن يملكوا بيوتًا على الإطلاق..

فقالت خديجة وهى تهز رأسها:

- يا عينى على الرأى الفقرى..

وحدج أحمد أخاه بنظرة غاضبة، فهز عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول:

- راجع نفسك قبل أن تغضب..

فقال أحمد محتجًا:

- يحسن بنا ألا نتناقش معا!

- بل انتظر حتى تكبر..

- إنك أكبر منى بعام لا أكثر..

- أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة..

- هذا المثل لا أومن به!

- اسمع، لا يهمنى إلا شيء واحد، هو أن تعود إلى الصلاة معى..

فهزت خديجة رأسها بأسف وهى تقول:

- صدق أخوك، الناس تكبر تعقل أما أنت فأعوذ بالله منك، حتى أبوك صلى وصام، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت؟ إنى أتساءل ليل نهارًا!

فقال عبد المنعم بصوت قوى شديد الثقة بنفسه :

ـ بالصراحة إن رأسه يحتاج إلى تطهير من الداخل . .

ـ إنه . .

ـ اسمعى ، هذا الشاب لا دين له ، هذا ما بت أعتقده . .

فلوح أحمد بيده كالغاضب ، وهتف متسائلاً . .

ـ من أين لك الحق فى الحكم على القلوب؟

ـ الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يدارى ابتسامة) يا عدو الله!

فقال إبراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوئه وطمأنينته :

ـ لاتتهم أخاك ظلمًا .

وقالت خديجة مخاطبة عبد المنعم وهى تلحظ أحمد :

ـ لا تسلب أخاك أعز ما يملك الإنسان ، كيف لايكون مؤمنا؟! إن آل أمه لا تنقصهم إلا العمائم ليكونوا من رجال الدين ، وكان جده من صميم رجال الدين ، لقد نشأنا فوجدنا من حولنا يصلون ويتعبدون كأننا فى جامع!

فقال أحمد متهكما :

ـ مثل خالى ياسين . . !

وندت عن إبراهيم شوكت ضحكة ، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب :

ـ تكلم عن خالك بأدب ، ماله؟ قلبه عامر بالإيمان وربنا يهديه ، انظر إلى جدك وجدتك .

ـ وخالى كمال؟

ـ خالك كمال من محاسيب الحسين ، أنت لا تدرى شيئًا .

ـ بعض الناس لا يدرون شيئًا . .

فسأل عبد المنعم محتدا :

ـ لو كان الناس جميعًا مهملين فى دينهم، فهل يشفع لك ذلك؟

فقال أحمد فى هدوء :

ـ على أى حال اطمئن، فلن تؤخذ يومًا بذنبى!

وهنا قال إبراهيم شوكت :

ـ كفاكما خصاما، نفسى أراكما كرضوان ابن خالكما . .

فحدجته خديجة بنظرة استياء، كأنما عز عليها أن يعد رضوان خيرًا من ابنيها، فقال إبراهيم موضحًا رأيه :

ـ هذا الشاب على صلة بكبار الساسة، شاب ذكى، وقد ضمن بذلك مستقبلاً باهرًا . .

فقالت خديجة غاضبة :

ـ لست من رأيك، رضوان شاب سيئ الحظ، ككل شاب يحرمه سوء الحظ من رعاية أمه، وزنوبة «هانم» لا تهتم فى الواقع بأمره، أنا لا أنخدع بحسن معاملتها له فهذه سياسة كسياسة الإنجليز، لذلك لا يقر للمسكين قرار، وأكثر أيامه يبيتها خارج بيته، أما صلته بالكبراء فلا معنى لها، إنه طالب مع عبد المنعم فى سنة واحدة، فما معنى هذا التداخل الخطير؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال . .

فرمقها إبراهيم بنظرة كأنما يقول لها : «لا يمكن أن تقرينى على رأى»، ثم قال مواصلاً إيضاح رأيه :

ـ ليس الشبان اليوم كما كانوا فى الزمن الماضى، السياسة غيرت كل شيء، فكل كبير له مريدوه منهم، والطموح الذى يريد أن يشق سبيله فى الحياة لابد له من كبير يرجع إليه، إن مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتصالاته الوثيقة بالكبراء!

فقالت خديجة بكبرياء :

ـ أبى يسعى الناس إلى التعرف به ولا يسعى هو إلى أحد، أما عن السياسة فأبنائى لا شأن لهم بها، لو أتيح لهما أن يريا خالهما الشهيد لأدركا من نفسيهما معنى كلامى، بين يحيا فلان ويسقط فلان يهلك أبناء الناس، ولو عاش المرحوم فهمى لكان من أكبر القضاة اليوم . .

فقالت عبد المنعم :

ـ لكل طريقته، نحن لا نقلد أحدًا، ولو أردنا أن نكون كرضوان لكنا : . .

فقال خديجة :

ـ أحسنت !

وقال له أبوه باسمًا :

ـ أنت كأمك، وكلاكما لا تساويان شيئًا . .

ودق الباب، فجاءت الخادم تؤذن بقدوم الجارة الساكنة فى الدور الأول، فقالت خديجة وهى تهم بالقيام :

ـ ماذا تريد يا ترى؟ . . إن كان فى الأمر تأجيل دفع أجرة فلن يفصل بيننا إلا قسم الجمالية !

١١

كان الموسكى شديد الزحام، اكتظ بأهله وما أكثرهم فضلاً عما استجد عليه ذلك اليوم من تيارات بشرية تدفقت من ناحية العتبة . وكانت شمس

إبريل الصافية تقذف لهبا، فشق عبد المنعم وأحمد سبيلهما فى جهد غير يسير وهما يتصببان عرقًا. وقال أحمد وهو يتأبط ذراع أخيه:

ـ حدثنى عن شعورك..

فتفكر عبد المنعم قليلاً، ثم راح يقول:

ـ لا أدرى، الموت رهيب، فما بالك بموت ملك، وكان طريق الجنازة مكتظًا بالناس بصورة لم أشهدها من قبل، أنا لم أشهد جنازة سعد زغلول حتى أستطيع المقارنة بين الجنازتين، ولكن يبدو لى أن أكثر الناس كان متأثرًا على نحو ما، وبعض النساء يبكين، نحن المصريين قوم عاطفيون..

ـ لكنى أسألك عن شعورك أنت؟

فعاد عبد المنعم يفكر وهو يتفادى من الارتطام بالناس، ثم قال:

ـ لم أكن أحبه، وهذا اعتنقناه جميعًا فأنا لم أحزن، ولكننى لم أسر كذلك، تابعت النعش بعين من لا قلب له، لا له ولا عليه، غير أن فكرة الجبار فى النعش أثرت فى، لا يمكن أن يمر منظر كهذا دون أن يؤثر فى، لله الملك جميعًا، هو الحى الباقى فليت الناس يعلمون، غير أنه لو مات الملك قبل أن تتغير الحالة السياسية التى كانت قائمة لزغرد كثيرون وكثيرون جدًا، وأنت ما شعورك؟

ـ أنا لا أحب الطغاة أيا كانت الحالة السياسية!

ـ هذا حسن، ولكن منظر الموت؟!

ـ ولا أحب الرومانتيكية المريضة!

فتساءل عبد المنعم فى ضجر:

ـ أسررت إذن؟

ـ تمنيت أن يمتد بى العمر حتى أرى العالم وقد خلص من كافة الطغاة على اختلاف أسمائهم وأوصافهم..

وسكتا قليلاً وكان التعب قد نال منهما كل منال، ثم عاد أحمد يتساءل:

ـ وماذا عما بعد ذلك؟

فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التى اشتهر بها:

ـ فاروق غلام، ليس له دهاء أبيه ولا نابه الأزرق، فإذا سارت الأمور سيراً حسنا، فنجحت المفاوضات، وعاد الوفد إلى الحكم، فسوف تستقر الأمور وينقضى عهد المؤامرات، . . المستقبل حسن فيما يبدو . .

ـ والإنجليز؟

ـ إذا نجحت المفاوضات انقلب الإنجليز أصدقاء، وبالتالى ينقطع التحالف القائم بين السراى والإنجليز ضد الشعب، فلا يجد الملك بدا من احترام الدستور.

ـ الوفد خير من غيره . .

ـ بلا شك، إنه لم يحكم طويلا حتى يعرف مدى قدرته، وقريبا تكشف التجربة عن إمكانياته الحقيقية، إنى أوافقك على أنه خير من غيره، ولكن طموحنا لن يقف عنده!

ـ طبعا، إنى أومن بان حكم الوفد نقطة ابتداء حسنة لتطور أعظم، وهذا كل ما هنالك، ولكن هل نتفق مع الإنجليز حقا؟

ـ إما الاتفاق وإما العودة إلى حكم صدقى، فى أمتنا احتياطى من الخونة لا ينفد، كل مهمته دائما تأديب الوفد إذا قال للإنجليز «لا»، وإنهم لفى الانتظار، هذه هى المأساة . .

وعندما بلغا السكة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة أمام جدهما أحمد عبد الجواد الذى كان متجها صوب الصاغة، فتقدما إليه وسلما عليه بإجلال، فسألهما باسما:

ـ من أين وإلى أين؟

فقال عبد المنعم :

ـ كنا نتفرج على جنازة الملك فؤاد . .

فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفتيه :

ثم صافحهما ومضى كل إلى حال سبيله ، وأتبعه أحمد نظره قليلا ، ثم قال :

ـ جدنا ظريف وأنيق ، لقد ملأ أنفى شذا طيبا . .

ـ نينة تروى عن جبروته الأعاجيب . .

ـ لا أظنه جبارا ، هذا شيء لا يصدق .

فضحك عبد المنعم قائلاً :

ـ إن الملك فؤاد نفسه بدا فى أواخر عهده لطيفًا طيبًا .

وضحكا معًا . مضيا إلى قهوة أحمد عبده . وفى الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحمد شيخًا مرسل اللحية حاد البصر يتوسط جمعًا من الشبان يتطلعون إليه فى اهتمام ، فتوقف وهو يقول لأخيه :

ـ الشيخ على المنوفى صديقك ، أخرجت الأرض أثقالها ، ينبغى أن أتركك هنا . .

فقال عبد المنعم :

ـ تعالى اجلس معنا ، أحب أن تجالسه وتسمع له ، ناقشه كيفما شئت ، كثير ممن حوله من طلبة الجامعة . .

فقال أحمد وهو يخلص ذراعه من ذراع أخيه :

ـ لا ياعم ، كدت مرة أشتبك معه فى عراك ، أنا لا أحب المتعصبين ، مع السلامة . .

فحدجه عبد المنعم بنظرة انتقاد ، ثم قال بحدة :

ـ مع السلامة، ربنا يهديك . .

وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ على المنوفى ناظر مدرسة الحسين الأولية، فنهض الرجل لاستقباله ـ وقد نهض معه جميع الجلوس حوله ـ وتعانقا، ثم جلس الشيخ وجلسوا وهو يتساءل متفحصًا عبد المنعم بعينيه الحادتين:

ـ لم نرك أمس؟ . .

ـ المذاكرة . .

ـ الاجتهاد عذر مقبول، ومال أخيك قد تركك وذهب؟

فابتسم عبد المنعم ولم يجب، فقال الشيخ على المنوفى:

ـ ربنا الهادى، لا تعجبوا له، لقد صادف مرشدنا كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشد المخلصين لدعوته، ذلك أن الله إذا أراد لقوم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان، ونحن جنود الله، ننشر نوره، ونحارب عدوه، وهبنا أرواحنا له من دون الناس، فما أسعدكم جنود الله . .

وقال أحد الجالسين:

ـ ولكن مملكة الشيطان كبيرة!

فقال الشيخ على المنوفى معاتبًا:

ـ انظروا إلى من يخاف دنيا الشيطان والله معه! ماذا نقول له؟ نحن مع الله والله معنا فماذا نخاف؟ منْ من جنود الأرض يتمتع بقوتكم؟ وأى سلاح أحد من سلاحكم؟ الإنجليز والفرنسيون والألمان والطليان جل اعتمادهم على الحضارة المادية، أما أنتم فاعتمادكم على الإيمان الصادق، إن الإيمان يفل الحديد، الإيمان أقوى قوة فى العالم، املأوا قلوبكم الطاهرة بالإيمان تخلص الدنيا لكم . .

فقال آخر :

ـ نحن مؤمنون، ولكننا أمة ضعيفة .

فكور الشيخ قبضته وشد عليها وهو يهتف :

ـ إذا كنت تستشعر ضعفًا فإيمانك يعتوره نقص وأنت لا تدرى، الإيمان خالق القوة وباعثها، إن القنابل تصنعها أيد كأيدينا وهى ثمرة القوة قبل أن تكون من مسبباتها، كيف انتصر النبى على أهل الجزيرة؟ وكيف قهر العرب العالم كله؟

فقال عبد المنعم بحماسة :

ـ الإيمان . . الإيمان . .

غير أن صوتًا رابعًا تساءل :

ـ ولكن كيف كان للإنجليز هذه القوة وهم قوم غير مؤمنين؟

فابتسم الشيخ متخللا لحيته بأصابعه وهو يقول :

ـ لكل قوى إيمانه، إنهم يؤمنون بالوطن وبالمصلحة، أما الإيمان بالله فهو فوق كل شىء، وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها. يجب أن يبعث الإسلام كما بعث أول مرة، نحن مسلمون إسما فيجب أن نكون مسلمين فعلاً، لقد من الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقت الذلة علينا، فلنعد إلى الكتاب، هذا هو شعارنا، العودة إلى القرآن، بذلك نادى المرشد فى الإسماعيلية، ومن ساعتها ودعوته تسرى فى الأرواح، غازية القرى والدساكر حتى تملأ القلوب جميعًا . .

ـ ولكن أليس من الحكمة أن نتجنب السياسة؟

ـ الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة، إن الله أرحم من أن يترك

أخطر الأمور الإنسانية دون تشريع وتوجيه، وهذا فى الواقع هو درسنا الليلة . . .

كان الشيخ شديد الحماسة، وكانت طريقته أن يقرر حقيقة ما، ثم تدور حولها المناقشات ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه، يقوم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث. وكان يتحدث وكأنه يخطب، أو كأنه يخطب الجالسين فى القهوة جميعًا. فسمعه أحمد وهو جالس فى أقصى المكان، يحتسى الشاى الأخضر، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. وكان يقيس الشقة بينه وبين هذه المجموعة المتحمسة فى عجب، ويجد نحوها ازدراء وغضبًا، وثار به التحدى مرة فهم بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتى لا يعكر على رواد القهوة صفاء راحتهم، ولكنه عدل عما هم به فى اللحظة التى تذكر وجود أخيه بينهم. وأخيراً لم يجد بدا من مغادرة القهوة، فقام ساخطًا وغادرها . .

١٢

عاد عبد المنعم إلى السكرية حوالى الثامنة مساء. وكان الجو سكت حنقه فمال إلى اللطافة وشاعت فيه رقة الربيع . كان الدرس ما يزال يكبر فى رأسه ويتردد فى قلبه، ولكن أعياه الجهد والفكر. وعبر حوش البيت فى ظلام دامس ثم اتجه إلى السلم، وفى تلك اللحظة فتح باب الدور الأول، وعلى الضوء المنبعث من داخل الشقة رأى شبحًا يتسلل إلى الخارج ثم أغلق الباب وراءه وسبقه إلى السلم. وخفق قلبه وجرى دمه حاراً كحشرة هيجها القيظ. رآها فى الظلام تنتظر عند أول بسطة وتتطلع نحوه فتطلع نحوها، ولم يتحول عنها رأسه. وعجب كيف

يستغفل الصغار الكبار، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحجة زيارة الجيران، وسوف تزور الجيران، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق بسطة السلم المستكنة فى الظلام. ولتوه وجد رأسه فارغًا، تبخر ما كان يصطرع فيه من أفكار وتطاير، وتركز هو فى رغبة واحدة هى أن يشبع النهم الذى بات يؤرق أعصابه وأعضاءه. أما ذلك الإيمان الصادق فيبدو أنه ولى غاضبًا، أو غاص فى الأعماق يدمدم حانقًا ولكن صوته ضاع فى أزيز النار المستعرة. أليست هى فتاته؟. بلى، تشهد بذلك حنايا الحوش وبئر السلم وركن السطح المطل على السكرية. وكانت بلا ريب ترقب عودته لتلتقى به فى اللحظة المناسبة. كل هذا العناء من أجله هو! ومضى متعجلاً حذراً حتى وقف إزاءها على البسطة، لا يكاد يفصل بينهما شىء، وقد سطع أنفه شذا شعرها، ودغدغ عنقه تردد أنفاسها. وربت منكبها برقة هامسًا:

ـ نصعد إلى البسطة الثانية فنكون فى موضع آمن من هذا.

تقدمته دون أن تنبس فتبعها محاذراً. وبلغا البسطة الثانية فيما بين الدورين فوقفت مستندة إلى الجدار ووقف بين يديها، ثم أحاطها بذراعيه فقاومته بحكم العادة مقدار ثانية ثم سكنت فى حضنه..

ـ حبيبتى..

ـ انتظرتك فى النافذة، نينة مشغولة باستعدادات شم النسيم.

ـ كل سنة وانت طيبة، دعينى أشم النسيم بين شفتيك..

والتقت شفتاهما فى قبلة طويلة جائعة. ثم تساءلت:

ـ أين كنت؟

ذكر فى سرعة خاطفة درس السياسة فى الإسلام، ولكنه أجاب:

ـ مع بعض الأصدقاء فى القهوة..

قالت بلهجة تشى بالاحتجاج:

ـ القهوة ولم يبق على الامتحان إلا شهر؟
ـ ولكن أعرف واجبى، سأقبلك قبلة ثانية جزاء سوء ظنك بى . .
ـ صوتك عال، أنسيت أين نحن؟
ـ نحن فى بيتنا، فى غرفتنا، هذه البسطة هى غرفتنا!
ـ العصر وأنا ذاهبة إلى خالتى نظرت إلى فوق لعلى أراك فى النافذة، فإذا بوالدتك تطل على الحارة فالتقت عينى بعينها فارتعدت من الخوف.
ـ ماذا خفت؟
ـ خيل إلى أنها عرفت عمن أبحث وأنها كشفت سرى . .
ـ تعنين سرنا، إنه شىء واحد يربطنا، ألسنا الآن شيئًا واحدًا؟

وضمها إلى صدره بعنف فى رغبة جامحة، وفى الوقت نفسه كأنما كان يجد هاربًا من أصوات المعارضة الخافتة فى أعماقه باستسلام يائس، فلفحته نيران متأججة، واحتوته قوة قادرة على إذابة اثنين فى دوامة واحدة . .

وند عن الصمت تنهيدة ثم تردد أنفاس، وشعر أخيرا بأنه هو وأنها هى وأن الظلام يضم شبحين. ثم جاءه همسها الرقيق يقول فى استحياء:

ـ نتقابل غدًا؟

فرد فى امتعاض حاول ما أستطاع التستر عليه:

ـ نعم . . ، نعم، ستعلمين فى حينه . .
ـ أخبرنى الآن . .

فقال والامتعاض يزداد ثقلاً على قلبه:

ـ لا أدرى كيف يكون وقتى غدًا!
ـ لمه؟ . .

ـ اذهبى بالسلامة، سمعت صوتًا!

ـ كلا لا صوت هناك . .

ـ لا ينبغى أن يجدنا أحد هكذا . .

وربت كتفها كأنما يربت خرقة ملوثة، وتخلص من ذراعيها فى رقة مفتعلة ثم رقى فى السلم على عجل. كان والداه جالسين فى الصالة يستمعان إلى الراديو، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضاءة الشراعة مما دل على أن أحمد يذاكر، فحياهما تحية المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه. واستحم، توضأ، وعاد إلى حجرته فصلى، ثم تربع على سجادة الصلاة وراح فى تأمل عميق. كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة، وكان صدره يضطرم شجنا، وهفت نفسه إلى البكاء، ودعا ربه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشد أزره فى مقاومة الغواية. ذلك الشيطان الذى يعترضه فى صورة فتاة ويندفع فى دمه رغبة جامحة. ودائمًا أبدا يقول عقله لا فيقول قلبه نعم، ثم يتلقفه ذلك الصراع المخيف الذى ينتهى بالهزيمة والندم. كل يوم تجربة وكل تجربة جحيم فمتى ينقضى هذا العذاب؟! إن نضاله الروحى كله مهدد بالخراب وكأنما يبنى قصوراً فى الهواء ولن يقر قرار لغارق فى الطين، فليت الندم يستطيع أن يرجع ساعة مضت.

١٣

أخيراً اهتدى أحمد إبراهيم شوكت إلى مبنى مجلة «الإنسان الجديد» بغمرة. كان المبنى يقع فى مكان وسط بين محطتى الترام، وكان مكونًا من دورين وبدروم، فأدرك لأول وهلة أن الدور الأعلى مسكن كما استدل من الغسيل المعلق فى شرفته، أما الدور الأول فقد ثبتت لافتة

باسم المجلة على بابه، وأما البدروم فقد خصص للمطبعة التى رأى آلاتها خلل قضبان النوافذ. وصعد درجات أربعًا إلى الدور الأول، ثم سأل أول من التقى به ـ وكان عاملاً يحمل بروفات ـ عن الأستاذ عدلى كريم صاحب المجلة، فأشار الرجل إلى باب مغلق فى نهاية صالة خالية من الأثاث حيث تراءت لافتة رئيس التحرير، فمضى وهو يتلفت فيما حواليه عله يجد حاجبا ولكنه ألفى نفسه منفرداً بالباب فتردد لحظة ثم طرق برقة حتى جاءه صوت من الداخل يقول «أدخل» ففتح الباب ودخل، فالتقت عيناه فى نهاية الصالة بعينين واسعتين تحدقان به متسائلتين من تحت حاجبين كثيفين أشيبين، فرد الباب وراءه وقال بصوت المعتذر:

ـ لا مؤاخذة، دقيقة واحدة..

فقال الرجل بصوت رقيق:

ـ تفضل..

وتقدم أحمد من مكتب كدست فوقه الكتب والأوراق، ثم سلم على الأستاذ الذى قام لاستقباله، ثم جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له فى الجلوس. شعر بالارتياح والزهو وهو يرنو إلى الأستاذ الكبير الذى تلقى عنه النور والعرفان فى الأعوام الثلاثة الماضية، سواء عن مؤلفاته أم مجلته، فراح يملأ عينيه من الوجه الشاحب الذى خط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم يبق له من أمارات الفتوة إلا عينان عميقتان تشعان بريقا نفاذا. هذا أستاذه، أو أبوه الروحى كما يدعوه، وإنه الآن فى حجرة الوحى التى لا جدران لها ولكن رفوف الكتب تمتد عاليا حتى السقف.

وقال الأستاذ بلهجة المتسائل:

ـ أهلاً وسهلاً؟

فقال أحمد بلباقة:

ـ جئت لأسدد الاشتراك .

ولما اطمأن إلى الأثر الطيب الذى أحدثه قوله استدرك قائلاً :

ـ وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها إلى المجلة من أسبوعين .

فابتسم الأستاذ عدلى كريم وهو يتساءل :

ـ اسم حضرتك؟

ـ أحمد إبراهيم شوكت .

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطيبة التذكر ثم قال :

ـ إنى أذكرك ، أنت أول مشترك فى مجلتى . نعم ، وجئتنى بثلاثة مشتركين ، هه؟ إنى أذكر اسم شوكت ، وأظننى أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة؟

فقال أحمد بارتياح ممتنا لهذا التذكر الجميل :

ـ جاءنى كتاب حضرتك اعتبرتنى فيه «صديق المجلة الأول» !

ـ هذا حق ، إن مجلة الإنسان الجديد مجلة مبدأ ولا بد لها من أصدقاء مؤمنين لتشق طريقها فى زحمة مجلات الصور والاحتكار ، فأنت صديق المجلة ، أهلاً وسهلاً ، ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل؟

ـ كلا ، إنى لم آخذ البكالوريا إلا فى هذا الشهر .

فضحك الأستاذ عدلى كريم قائلاً :

ـ أنت فاهم أن المجلة لا يزورها إلا الحاصل على البكالوريا؟ !

فابتسم أحمد فى ارتباك وقال :

ـ كلا طبعًا ، أعنى أنى كنت صغيراً .

فقال الأستاذ جاداً :

ـ لا يليق بقارئ الإنسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين ، فى بلادنا

شيوخ جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شبانا بعقولهم، وفيها شبان فى ربيع العمر ولكنهم معمرون ـ منذ ألف سنة أو أكثر ـ بعقولهم، وهذا هو داء الشرق. . (ثم بلهجة أرق) وهل أرسلت إلينا مقالات من قبل؟

ـ ثلاث مقالات كان مصيرها الإهمال، ثم مقالة أخيرة كنت أطمع فى نشرها!

ـ عن ماذا؟ لا تؤاخذنى فإنى أتلقى عشرات المقالات يوميًا؟

ـ عن رأى لوبون فى التعليم وتعليقى عليه!

ـ على أى حال ستبحث عنها فى السكرتارية ـ الحجرة المجاورة لحجرتى ـ وتعلم بمصيرها. .

وهم أحمد بالقيام ولكن الأستاذ عدلى أشار إليه بالاستمرار فى الجلوس وهو يقول:

ـ المجلة اليوم فى شبه إجازة، أرجو أن تمكث معى قليلاً لنتحدث.

فتمتم أحمد بارتياح عميق:

ـ بكل سرور يا فندم.

ـ قلت إنك أخذت البكالوريا هذا العام، كم سنك؟

ـ ستة عشر عامًا.

ـ سن مبكرة، حسن، هل المجلة منتشرة فى المدارس الثانوية؟

ـ كلا للأسف. .

ـ أعلم هذا، أكثرية قرائنا فى الجامعة، القراءة فى مصر ملهاة رخيصة، ولن تتطور حتى نؤمن بأن القراءة ضرورة حيوية.

ثم بعد قليل من الصمت:

ـ وما حال التلاميذ؟

فنظر إليه أحمد متسائلاً كأنما يستزيده تفسيراً لقوله، فقال الرجل:

- إنى أسأل عن الناحية السياسية باعتبارها أوضح من غيرها..

- الأغلبية الساحقة من التلاميذ وفديون..

- ولكن ثمة كلام عن حركات جديدة؟

- مصر الفتاة؟.. لا وزن لها، فرقة تعد على الأصابع، الأحزاب الأخرى لا أنصار لها إلا أقارب زعمائها، وهناك قلة لا تهتم بشئون الأحزاب كافة، وآخرون - وأنا منهم - نفضل الوفد على غيره ولكننا نطمع فيما هو أكمل..

فقال الرجل بارتياح:

- هذا ما أسأل عنه، الوفد حزب الشعب، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى آن واحد، كان الحزب الوطنى حزباً تركياً دينياً رجعياً، أما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ومطهرها من الشوائب والخبائث، إلى أنه مدرسة الوطنية والديمقراطية، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة، نريد مرحلة جديدة من التطور، نريد مدرسة اجتماعية، لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة، ولكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والإنسانية.

فهتف أحمد بحماس:

- ما أجمل هذا الكلام!

- ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء، أما مصر الفتاة فحركة فاشستية رجعية مجرمة، ليست دون الرجعية الدينية خطراً وهى ليست إلا صدىً للعسكرية الألمانية والإيطالية التى تعبد القوة وتقوم على الاستبداد وتزرى بالقيم الإنسانية والكرامة البشرية، إن

الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفود فينبغى استئصاله . .

فعاد أحمد يقول متحمسًا :

ـ إن جماعة «الإنسان الجديد» تؤمن بهذا كل الإيمان . .

فهز الرجل رأسه الكبير فى أسف وهو يقول :

ـ ولذلك فالمجلة هدف للرجعيين من كافة النحل ، إنهم يرمونني بإفساد الشباب !

ـ كما اتهموا سقراط من قبل . .

فابتسم الأستاذ عدلى كريم فى ارتياح وقال :

ـ وما وجهتك؟ أعنى أى كلية تقصد؟

ـ الآداب . .

فاعتدل الأستاذ فى جلسته ، وقال :

ـ الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى ، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية ، فاعرف سبيلك ، فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مرضية عملت أجيالاً على تجميد العقل وقتل الروح ، ومهما يكن من أمر ـ ولا تدهش أن يصارحك بهذا الرأى رجل معدود فى الأدباء ـ فالعلم أساس الحياة الحديثة ، ينبغى أن ندرس العلوم وأن نشبع بالعقلية العملية ، الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقريًا ، وعلى الأدباء أن ينالوا حظهم منه . لم يعد العلم وقفًا على العلماء ، أجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف ، ولكن على كل مثقف أن يضىء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلى بأسلوبه ، ينبغى أن يحل العلم محل الكهانة والدين فى العالم القديم .

فقال أحمد مؤمنا على قول أستاذه :

ـ ولذلك كانت رسالة «الإنسان الجديد» هى تطوير المجتمع على أساس علمى . .

فقال عدلى كريم باهتمام :

ـ أجل على كل منا أن يقوم بواجبه ، ولو وجد وحيداً فى الميدان . .

فهز أحمد رأسه موافقًا فعاد الآخر يقول :

ـ ادرس الآداب كما تشاء ، واعن بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات ، ولا تنس العلم الحديث ، ولا يجب أن تخلو مكتبتك ـ إلى جانب شكسبير وشوبنهور ـ من كونت وداروين وفرويد وماركس وإنجلز ، لتكون لك حماسة أهل الدين ولكن ينبغى أن تذكر أن لكل عصر أنبياءه ، وأن أنبياء هذا العصر هم العلماء .

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحت بأنها تحية الختام فنهض أحمد مادا يده ، وسلم ثم غادر الحجرة ممتلئا حياة وسعادة . وفى الصالة الخارجية ذكر الاشتراك والمقالة فمال إلى الحجرة المجاورة ، وطرق الباب مستأذنا ثم دخل . رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب ، اثنان خاليان ، والثالث جلست عليه فتاة . لم يكن يتوقع هذا فوقف ينظر إليها فى حيرة وتساؤل . كانت فى العشرين ، عميقة السمرة ، سوداء العينين والشعر ، وكان فى أنفها الدقيق وذقنها المدبب وفمها الرقيق ما يوحى بالقوة ، دون أن يفسد ملاحتها . ساءلت وهى تتفحصه :

ـ أفندم؟

فقال يعزز مركزه :

ـ الاشتراك . .

ودفع المبلغ وأخذ الإيصال ، وفى أثناء ذلك كان قد تغلب على ارتباكه فقال :

ـ كنت قد أرسلت مقالة إلى المجلة ، وأخبرنى الأستاذ عدلى كريم بأنها فى السكرتارية .

وهنا دعته للجلوس على كرسى أمام المكتب فجلس ثم سألت:

ـ عنوان المقالة من فضلك؟

قال دون أن يشعر بارتياح لموقفه هذا أمام فتاة:

ـ التعليم عند لوبون.

ففتحت دوسيها، وفرت أوراقًا حتى استخرجت المقال، ولمح أحمد خطه فخفق قلبه، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنهاوفرت عليه عناء المحاولة إذ قالت:

ـ موقع عليه بما يأتى «يلخص وينشر فى باب رسائل القراء».

فشعر أحمد بخيبة أمل، ولبث لحظات ينظر إليها دون أن ينبس، ثم تساءل:

ـ فى أى عدد؟

ـ فى العدد القادم.

فسأل بعد تردد:

ـ ومن الذى يلخصه؟

ـ أنا.

وداخله شعور بالامتعاض، ولكنه سأل:

ـ ويوقع عليه باسمى؟

فقالت ضاحكة:

ـ طبعًا، ينشر عادة ما يفيد بأنه جاءتنا رسالة من الأديب (ثم وهى تنظر إلى الإمضاء) أحمد إبراهيم شوكت ثم نورد تلخيصًا وافيًا لفكرتك!

فتردد قليلاً ثم قال:

ـ كنت أفضل لو نشرت بأكملها..

فقالت باسمة :

ـ المرة القادمة إن شاء الله . .

فجعل ينظر إليها صامتًا ثم سألها :

ـ حضرتك موظفة هنا؟

ـ كما ترانى !

نازعته نفسه أن يسألها عن مؤهلاتها ولكن شجاعته خذلته فى اللحظة الأخيرة فسألها :

ـ اسم حضرتك من فضلك لأطلبك فى التليفون إذا لزم الأمر !

ـ سوسن حماد .

ـ متشكر جدًا .

ونهض محييًا إياها بيده ، وقبل أن يغادر الحجرة التفت نحوها قائلاً :

ـ أرجو أن تلخصيها بعناية . .

فقالت دون أن تنظر إليه :

ـ إنى أعرف واجبى !

فغادر الغرفة نادمًا على قوله . .

١٤

كان كمال فى حجرة مكتبه عندما جاءت أم حنفى لتقول له :

ـ سى فؤاد الحمزاوى عند سيدى الكبير . .

ونهض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة مسرعًا إلى تحت . إذن عاد فؤاد إلى القاهرة بعد غيبة عام ، عاد وكيل نيابة قنا العتيد ! وكان

تجيش بصدره مشاعر صداقة ومودة بيد أن شوائب عدم الارتياح شابتها، فصداقته لفؤاد كانت ولا تزال تنطوى على نوع من الصراع، صراع من الحب والنفور، بين المودة والغيرة، ومهما يحاول أن يتسامى بعقله فالغرائز تشده على رغمه إلى الإسفاف الدنيوى. فلم يكن يشك وهو يهبط السلم فى أن هذه الزيارة ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها فى الوقت نفسه ستنكأ جروحًا كادت أن تندمل. وعندما مر فى الصالة بمجلس القهوة المكون من الأم وعائشة ونعيمة سمع أمه وهى تهمس قائلة:

ـ سوف يطلب يد نعيمة..

ولما شعرت بوجوده التفتت إليه قائلة:

ـ صديقك بالداخل، ما ألطفه، أراد أن يقبل يدى فمنعته!

ورأى والده متربعًا على الكنبة وفؤاد جالسًا على مقعد قبالته، فتصافح الصديقان القديمان وكمال يقول:

ـ حمدًا لله على السلامة، أهلاً وسهلاً.. أنت فى إجازة

فأجاب عنه السيد أحمد باسمًا:

ـ بل نقل إلى نيابة القاهرة، نقل أخيرًا بعد غربة طويلة فى الصعيد..

فجلس كمال على الكنبة وهو يقول:

ـ مبارك، من الآن فصاعدًا نرجو أن نراك من آن لآخر.

فقال فؤاد:

ـ طبعًا، وسنقيم من أول الشهر القادم بالعباسية، استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلى..

لم تتغير هيئة فؤاد كثيرًا، ولكن صحته تقدمت بدرجة محسوسة فامتلأ عوده وتورد وجهه، أما عيناه فلا زالتا تشعان ذلك الوميض الذكى. وسأل السيد أحمد الشاب قائلاً:

ـ وكيف حال والدك؟.. لم أره منذ أسبوع.

ـ ليست صحته على ما يرام، إنه لا يزال آسفًا على ترك المحل، لكن المأمول أن يكون خليفته قائمًا بالواجب.

ـ الأمر يقتضينى اليوم يقظة متواصلة، كان والدك يقوم بكل شىء شفاه الله وعافاه..

واعتدل فؤاد فى جلسته ووضع رجلاً على رجل فلفتت هذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج، أما السيد فلم يبد عليه حتى أنه لاحظها. أهكذا تتطور الأمور؟ أجل إنه وكيل نيابة قد الدنيا، ولكن أنسى من يكون الشخص المتربع أمامه؟ رباه ليس هذا فحسب، لقد أخرج علبة سجائر وقدمها للسيد فاعتذر شاكرًا! حقًا إن النيابة تنسى، ولكن من المؤسف أن يمتد نسيانها إلى ولى النعمة الذى يبدو أن فضله تبدد فى الهواء كدخان هذه السيجارة الفاخرة. ولم يكن فى حركات فؤاد تكلف من أى نوع كان، كان سيداً قد تعود السيادة، وقال السيد مخاطبًا كمال:

ـ وهنئه أيضًا فقد رقى من مساعد إلى وكيل نيابة.

فقال كمال باسمًا:

ـ مبارك.. مبارك، أرجو أن أهنئك قريبًا بكرسى القضاء.

فقال فؤاد:

ـ الخطوة التالية إن شاء الله.

ربما استباح لنفسه ـ عندما يصير قاضيًا ـ أن يبول أمام الرجل المتربع أمامه! أما مدرس ابتدائى فيظل مدرسًا ابتدائيًا، وحسبه شاربه الغليظ وأطنان الثقافة التى عوجت رأسه.

ونظر السيد أحمد إلى فؤاد باهتمام وهو يسأل:

ـ وكيف حال السياسة؟

فقال فؤاد بارتياح :

ـ وقعت المعجزة! وقعت المعاهدة فى لندن، أصغيت إلى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفظات الأربعة فلم أصدق أذنى، من كان يصدق هذا؟

ـ إذن أنت من الراضين على المعاهدة؟

فقال وهو يهز رأسه هزة أصحاب الشأن :

ـ فى الجملة نعم، للمعاهدة أعداء مخلصون وآخرون غير مخلصين، فإذا تأملنا الظروف التى تحيط بنا، وذكرنا أن شعبنا صبر على عهد صدقى رغم مرارته دون أن يثور عليه. فينبغى أن نعد المعاهدة خطوة موفقة، أزالت التحفظات ومهدت الطريق لإلغاء الامتيازات الأجنبية، وحددت مدة الاحتلال بعد قصره على منطقة معينة، إنها خطوة عظيمة بلا شك.

كان حماس السيد أحمد للمعاهدة أقوى وإحاطته بظروفها أقل، وكان يود أن يتجاوب الآخر معه تجاوبًا أشد، فلما خاب ظنه قال بعناد :

ـ على أى حال ينبغى أن نذكر أن الوفد قد أعاد إلى الأمة دستورها وحقق لها الاستقلال ولو بعد حين. .

وفكر كمال : كان فؤاد دائمًا «باردًا» فى الناحية السياسية، ولعله لم يتغير، ولكنه يبدو مائلاً إلى الوفد، أما أنا فطالما كنت مندفعًا مع العاطفة، ثم انقلبت لا أومن بشىء، والسياسة نفسها لم تسلم من شكى النهم، ولكن قلبى لا يزال ينبض بالوطنية رغم عقلى.

وعاد فؤاد يقول ضاحكًا :

ـ إن النيابة فى عهود الانقلاب تنكمش إلى الوراء على حين يحتل البوليس المقدمة، إذ أن عهود الانقلاب عهود بوليسية، فإذا عاد الوفد إلى الحكم ردت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده، ففى

عهد الحكم الطبيعى يكون القانون هو الكلمة العليا .

فعلق السيد على ذلك قائلاً :

ـ وهل يمكن أن ننسى عهد صدقى؟! لقد كان الجنود يجمعون الأهالى بالعصى أيام الانتخابات، وكثير من الأعيان من أصدقائنا خربت بيوتهم وأشهر إفلاسهم ثمنا لثباتهم على مبدأ الوفد، ثم إذا بنا نرى «الشيطان» ضمن هيئة المفاوضات فى لباس الوطنيين الأحرار!

فقال فؤاد :

ـ كانت الظروف توجب الاتحاد، ولم يكن هذا الاتحاد ليكمل دون أن ينضم إليه الشيطان وأعوانه، والعبرة بالخواتيم .

ولبث فؤاد فى حضرة السيد فترة غير يسيرة، احتسى فى أثنائها القهوة، وجعل كمال يتفحصه بعناية فانتبه إلى بذلته الحريرية البيضاء الأنيقة، والوردة الحمراء التى تزين عروتها، وإلى الشخصية القوية التى أضفتها عليه الوظيفة، فشعر فى أعماقه بأنه سيسر ـ رغم كل شئ ـ إذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته، غير أن فؤاد لم يطرق هذا الموضوع، وبدا عليه أنه يرغب فى الذهاب وما لبث أن قال للسيد .

ـ آن وقت ذهابك إلى الدكان، سأمكث بقية الوقت مع كمال، وسوف أزور حضرتك قبل سفرى إلى الإسكندرية، حيث أننى قررت أن أقضى بقية أغسطس وبعض سبتمبر فى المصيف .

ونهض قائمًا فصافح السيد مودعًا ثم غادر الحجرة يتقدمه كمال، وصعدا معا إلى الدور الأعلى حيث استقرا فى حجرة المكتب، وجعل فؤاد يتصفح الكتب المصفوفة على الأرفف باسمًا ثم تساءل :

ـ ألا أستطيع أن أستعير منك كتابًا؟

فقال كمال وهو يدارى عدم ارتياحه :

ـ بكل سرور، ماذا تقرأ عادة فى أوقات فارغك؟

ـ عندى دواوين شوقى وحافظ ومطران، وبعض كتب الجاحظ والمعرى، وأحب بصفة خاصة «أدب الدنيا والدين»، إلى مؤلفات كتابنا المعاصرين، هذا إلى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل، ولكن انكبابى على القانون يلتهم أكثر وقتى . .

ثم نهض فجال جولة استعراضية بين الكتب قارئًا عناوينها ثم عاد وهو ينفخ قائلاً:

ـ مكتبة فلسفية قحة، لا ناقة لى فيها ولا جمل، إنى أقرأ مجلة الفكر التى تكتب فيها، وأتابع مقالاتك التى تظهر تباعًا منذ سنوات، لا أزعم أنى قرأتها جميعًا، أو أنى أذكر منها شيئًا، إن المقالة الفلسفية أثقل ما يقرأ، ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل، لماذا لا تكتب فى الموضوعات الجذابة؟

طالما سمع بأذنه نعى مجهوده، ولكنه لم يحزن لذلك كثيرًا كأنما أعتاده، إن الشك يلتهم فيما يلتهم الحزن نفسه، والشهرة ما هى؟ والجاذبية ما هى؟ ولكن مما يسره حقًا ألا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه. وسأله:

ـ ماذا تعنى بالموضوعات الجذابة؟

ـ الأدب مثلاً.

ـ قرأت لطائف منه مذ كنا معا ولكننى لست أديبًا . .

فضحك فؤاد قائلاً:

ـ إذن أبق فى الفلسفة وحدك، ألست فيلسوفًا؟

ألست فيلسوفا؟! عبارة مطبوعة فى أعماقه، ارتجف من هول وقعها قلبه، هكذا هى مذ ألقيت عليه فى شارع السرايات من ثغر عايدة!

ولكى يدارى جيشة صدره ضحك ضحكة عالية، ثم ذكر الأيام التى كان فؤاد يتودده ويتبعه كظله، ها هو الآن يطالعه رجلاً خطيراً جديراً بالتودد والولاء! ماذا جنيت من حياتى؟ وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك فجأة قائلاً:

- ولو!..

فتساءل كمال بعينه عن معنى هذا فعاد الآخر يقول:

- كلأنا يجرى نحو الثلاثين دون أن يتزوج، جيلنا مكتظ بالعزاب، جيل الأزمة، ألا زلت عند رأيك؟

- لا أتزحزح..

- لا أدرى لم أعتقد بأنك لن تتزوج أبدا.

- أنت بعيد النظر طول عمرك..

فقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة كأنما ليعتذر بها سلفًا عما سيقول:

- أنت رجل أنانى، تأبى إلا أن تستأثر بكل حياتك لنفسك، يا أخى لقد تزوج النبى ولم يمنعه ذلك من ممارسة حياته الروحية العظيمة..

ثم مستدركًا وهو يضحك:

- تؤاخذنى على ضرب المثل بالنبى، كدت أنسى أنك... ولكن مهلاً، إنك لم تعد الملحد القديم، أنت الآن تشك حتى فى الإلحاد، وهذه خطوة كسب للإيمان..

فقال كمال بهدوء:

- دعنا من التفلسف فإنك لا تحبه وخبرنى لِمَ لم تتزوج أنت ما دام هذا هو رأيك فى العزوبية؟

وشعر لتوه بأنه ما كان ينبغى له أن يطرح هذا السؤال خشية أن يفسره الآخر بأنه استدراج إلى الكلام فى خطبة نعيمة! ولكن فؤاد لم يبد عليه

أنه فكر فى هذا، بل ضحك ضحكة عالية وإن لم تخرج به عن حد الوقار، وقال:

ـ أنت تعلم أنى لم أفسد إلا متأخرًا، لم أفسد مثلك فى زمن مبكر، فأنا لم أشبع بعد!

ـ أتتزوج إذا شبعت؟

فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنما يطرد الكذب وقال بلهجة المعترف:

ـ ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلأصبر فترة أخرى، أصبر حتى ارقى قاضيا مثلاً فيسعنى أن أصاهر وزيرًا إذا شئت. .

يا بن جميل الحمزاوى! عروس من صلب وزير وحماتها من المبيضة! أتحدى ليبنتز أن يبرر هذا ولو كان يبرر وجود الشر فى الخليقة!

ـ أنت تنظر إلى الزواج نظرة. .

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكًا:

ـ خير من الذى لا يعيره نظرة على الإطلاق! . .

ـ ولكن السعادة. .

ـ لا تتفلسف! السعادة فن ذاتى، قد تجدها عند كريمة وزير بينا لا تجد إلا التعاسة فى وسطك، الزواج معاهدة كالتى وقعها النحاس بالأمس، مساومة وتقدير ودهاء وبعد نظر وفوائد وخسائر، وفى بلدنا لا تأتى الرفعة إلا عن هذا السبيل، فى الأسبوع الماضى عين مستشارًا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخدم القضاء عمرى مجتهدًا ناصبًا دون أن أظفر بهذا المركز السامى!

ومعلم ابتدائى ما قوله؟ فى الدرجة السادسة ينقضى عمره، ولو طفح بالفلسفة رأسه. .

ـ إن مركزك يغنيك عن أمثال هذه المغامرات. .

ـ لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يألف وزارته!

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال:

ـ أنت فى حاجة إلى شىء من الفلسفة، تحتاج إلى جرعة من سبينوزا..

ـ اشبع منه أنت، لكن دعنا من هذا، وخبرنى عن أماكن اللهو والشراب، فى قنا كنت أختلس اللذة فى حذر، إن مركزنا يحتم علينا الانزواء ومجانبة البشر، والصراع الأبدى بيننا وبين البوليس يوجب الحذر أكثر، وكيل النيابة مركز خطير متعب..

عودة إلى الحديث الذى هدد مرارتى بالانفجار، حياتى فى ضوئك تأديب وتهذيب وأشد امتحان لفلسفتى الحائرة فى هذه الحياة.

ـ تصور أن الظروف تجمعنى بكثير من الأعيان، ثم يدعوننى إلى سراياتهم، فأجد أن الواجب يقضى بأن أرفض دعوتهم كيلا يؤثر مؤثر فى قيامى بواجبى، ولكن عقليتهم لا تفهم هذا، فأعيان الإقليم جميعًا يرموننى بالكبر وأنا منه براء.

«بل أنت غرور وكبر وغيرة على الواجب معًا». وقال موافقًا:

ـ نعم.

ـ ولنفس الأسباب خسرت رجال البوليس، أنا لا ارضى عن طرقهم الملتوية، لذلك أقف لهم بالمرصاد، ورائى القانون، ووراءهم همجية القرون الوسطى، إن الجميع يكرهوننى ولكن الحق معى..

الحق معك، هذا ما أعرفه فيك من قديم، الذكاء والنزاهة، ولكنك لا تحب ولا يمكن أن تحب، أنت لا تتمسك بالحق لوجه الحق وحده ولكن لوجه الحق والغرور والكبرياء والشعور بالنقص، هكذا الإنسان، إنى

أصطدم بأمثالك حتى فى الوظائف الحقيرة، الإنسان العذب القوى أسطورة، ولكن ما قيمة الحب؟ وما المثالية؟ وما أى شىء؟!

وهكذا طال بهما الحديث، وعندما هم فؤاد بالذهاب مال على أذن كمال متسائلاً:

ـ أنا جديد فى القاهرة، طبعًا أنت تعرف بيتًا بل بيوتًا، مستورة طبعًا؟

فقال كمال باسما:

ـ إن المدرس كوكيل النيابة يتحرى الستر دائمًا..

ـ عال. سنلتقى قريبًا، إننى مشغول الآن بترتيب الشقة الجديدة ولابد أن نسهر كم مرة معا!

ـ اتفقنا..

وغادرا الحجرة معًا فلم يتركه حتى أوصله إلى باب السكة، وعندما مر بالدور الأول فى أثناء عودته التقى بأمه واقفة تنتظره عند المدخل، فسألته بلهفة:

ـ ألم يكلمك؟

فأدرك ما تسأل عنه، وشعر لذلك بألم لم يشعر بمثله، ولكنه تجاهل الأمر وتساءل بدوره:

ـ عن ماذا؟

ـ نعيمة!

فأجاب ممتعضًا:

ـ كلا..

ـ عجيبة!..

وتبادلا نظرة طويلة، ثم عادت أمينة تقول:

ـ ولكن الحمزاوى كلم أباك!

فقال كمال وهو يدارى ما استطاع من ثورة حنقه :

ـ لعله لم يكن فيما قال نائبًا عن ابنه . .

فقالت أمينة غاضبة :

ـ هذا عبث لا يليق . . ألا يدرى من يكون هو ومن تكون هى؟ كان ينبغى أن يفهمه جدك حقيقة مركزه .

ـ إن فؤاد برىء ، لعل والده أسرع دون تدبر بحسن نية . .

ـ ولكن حدث ابنه دون شك فهل رفض الآخر؟ ذلك الذى جعلناه موظفًا محترمًا بنقودنا ! . .

ـ لا داعى للكلام فى هذا الموضوع . .

ـ إن هذا يا بنى أمر لا يتصوره العقل ، ألا يدرى أن مصاهرته لا تشرفنا ! . .

ـ إذن لا تأسفى عليها . .

ـ لست آسفة ولكنى غاضبة للإهانة . .

ـ لا إهانة هنالك ، ليس إلا سوء تفاهم . .

وعاد إلى حجرته حزينًا خجلاً ، وجعل يحدث نفسه : نعيمة وردة جميلة ، بيد أنى رجل لم يبق لى من الفضائل إلا حب الحقيقة فينبغى أن أسأل نفسى أهى حقًا كفء لوكيل نيابة؟ يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك فى حياته من هى أجل ثقافة وأعز محتدًا وأكثر مالاً وجمالاً ايضًا ، لقد تسرع أبوه الطيب وليس هذا خطأه ، ولكنه كان وقحًا فى حديثه معى ، وهو وقح بلا شك ، إنه رجل ذكى نزيه كفء وقح مغرور ، وما هذا بذنبه ولكن الذنب ذنب هذه الفوارق التى تخلق فينا شتى الأمراض .

١٥

كانت مجلة «الفكر» تشغل الدور الأرضى بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز ، وكانت حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسيوطى تطل بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاء ليل نهار ، والحق أنه كلما أقبل كمال على إدارة المجلة ذكره موضعها الأرضى ورثاثة أثاثها بمكانة «الفكر» في بلده، وبمكانته هو فى مجتمعه. واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وود، ولا عجب فقد اتصلت بينهما أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أى منذ بدأ كمال يبعث إليه بمقالاته الفلسفية ، ثم مضت ستة أعوام وهما على تعاون صادق غير مأجور، والواقع أن جميع كتاب المجلة كانوا من المتعاونين فى سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده! . .

وكان عبد العزيز يرحب بكافة الكتاب المتطوعين حتى المختصين ـ مثله ـ فى الفلسفة الإسلامية، ومع أنه كان أزهرى النشأة إلا أنه سافر إلى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محصلاً ومستمعًا دون أن يحصل على درجة علمية، وكان فى غنى عن السعى للرزق بعقار يملكه يدر عليه شهريًا خمسين جنيهًا ولكنه أنشأ مجلة «الفكر» فى عام ١٩٢٣ ، وثابر على إصدارها بالرغم من أنها لم تكن تزيد دخله شيئًا يضاهى بعض ما يبذله فيها من جهد. وما كاد يستقر المجلس بكمال حتى دخل الحجرة رجل فى مثل سنه، يرتدى بذلة من التيل الرمادى، طويل القامة، وإن كان دون كمال طولاً، نحيفًا، ولكنه أكثر امتلاء منه، مستطيل الوجه، متوسط الجبين، ممتلئ الشفتين، ذو أنف دقيق وذقن مدبب أضفى على سمنته طابعًا خاصًا. تقدم خفيفًا باسم

الثغر فمد يده إلى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هذا ثم قدمه إلى كمال قائلاً:

- الأستاذ رياض قلدس مترجم بوزارة المعارف، انضم حديثًا إلى جماعة كتاب «الفكر»، وقد أمد مجلتنا العلمية بدم جديد بتلخيصه الشهرى للمسرحيات العالمية وكتابة القصة القصيرة.

ثم قدم كمال قائلاً:

- الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد، لعلك من قراء مقالاته!

فتصافح الرجلان ورياض يقول بإعجاب:

- إنى أقرأ مقالاته منذ سنوات، مقالات قيمة بكل معنى الكلمة..

فشكر كمال متلقيًا ثنياءه بحذر، ثم جلسا على كرسيين متقابلين أمام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذى مضى يقول:

- لا تنتظر يا أستاذ رياض أن يرد عليك بالمثل قائلاً إنه قرأ قصصك القيمة، إنه لا يقرأ قصصا ألبتة..

فضحك رياض ضحكة جذابة كشفت عن أسنان نضيدة لامعة فلجاء الثنيتين ثم قال:

- ألا تحب الأدب إذن؟ ما من فيلسوف إلا وله فلسفة خاصة عن الجمال، وهى لا تتأتى له إلا بعد اطلاع واسع على شتى الفنون ومنها الأدب طبعا..

فقال كمال فى شىء من الارتباك:

- لست أكره الأدب، طالما ارتحت فى جنات شعره ونثره، ولكن أوقات الراحة قليلة!

- معنى ذلك أنك قرأت ما استطعت من القصص إذ أن الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصة والتمثيلية..

فعاد كمال يقول:

ـ قرأت عددًا وفيرًا منها على مدى العمر، بيد أننى . .

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسيوطى قائلاً وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعدا أن تقنعه بأفكارك الجديدة، وحسبك أن تعلم الآن أنه فيلسوف، وأن ولعه مركز فى الفكر.

ثم التفت إلى كمال متسائلاً :

ـ جئت بمقال الشهر؟

فأخرج كمال ظرفًا متوسطًا ووضعه فى سكون أمام الأستاذ الذى تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثم تصفح العنوان وهو يقول :

ـ عن برجسون؟ . . حسن!

فقال كمال :

ـ فكرة تقديم عامة تبين الدور الذى لعبته فلسفته فى تاريخ الفكر الحديث، وربما ألحقتها بمقالات أخرى تفصيلية . .

وكان رياض قلدس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يحدج كمال بنظرة لطيفة :

ـ تتبعت مقالاتك منذ سنوات، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الإغريق، وهى مقالات متنوعة وأحيانًا تكون متناقضة بالقياس إلى ما تعرض من فلسفات، فأدركت أنك مؤرخ، بيد أننى حاولت عبثًا أن أهتدى إلى موقفك أنت مما تكتب، وأى فلسفة تنتمى إليها . . ؟

فقال عبد العزيز الأسيوطى :

ـ نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العام، ولعل الأستاذ كمال يتمخض فيما بعد عن فلسفة جديدة، ولعلك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكماليزم!

فضحكوا جميعًا، وخلع كمال نظارته وراح يجلو ناظريها، وكان سرعان ما يندمج فى الحديث خاصة إذا آنس إلى محدثه، وبدا الجو صافيًا عذبًا، وقال كمال:

- إنى سائح فى متحف لا أملك فيه شيئًا، مؤرخ فحسب، لا أدرى أين أقف. .

فقال رياض قلدس فى اهتمام يتزايد:

- أى فى مفترق الطريق، وقفت فى ميدانك عهدًا قبل أن أعرف وجهتى، ولكنى أرجح أنه موقف ذو قصة، لأنه عادة يكون نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة، ألم تعرف ألوانًا من الإيمان قبل موقفك هذا؟

نغمة هذا الحديث تعيد إليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جذورها بالقلب، هذا الشاب وهذا الحديث، خلت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتى اعتاد أن يحدث نفسه كلما افتقد من يحدثه، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أن يبعث هذا النشاط الروحى فى صدره، لا إسماعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوى ولا عشرات المدرسين، هل آن للمكان الذى خلا بذهاب حسين شداد أن يشغل؟! وأعاد وضع النظارة على عينيه وابتسم قائلاً:

- لذلك قصة طبعًا، وكالعادة كان لى إيمانى الدينى، ثم إيمانى بالحقيقة.

- أذكر أنك عرضت الفلسفة المادية بحماس يدعو للريبة. .

- كان حماسًا صادقًا ثم لم ألبث أن حركت رأسى مرتابًا. .

- لعلها الفلسفة العقلية؟

- ثم لم ألبث أن حركت رأسى مرتابًا، الفلسفات قصور جميلة ولكنها لا تصلح للسكنى. .

فقال عبد العزيز باسمًا :

ـ و شهد شاهد من أهلها!

فهز كمال كتفيه استهانة، أما رياض فواصل تحقيقه قائلاً :

ـ هنالك العلم فلعله نجا من شكك؟

ـ إنه دنيا مغلقة حيالنا لا نعرف إلا بعض نتائجها القريبة، ثم اطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون فى مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية، وآخرين ينوهون بقانون الاحتمال، وغيرهم ممن تراجعوا عن ادعاء الحقيقة المطلقة، فلم ألبث أن حركت رأسى مرتابًا!

فابتسم رياض قلدس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول :

ـ حتى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى أذنى، ودار رأسى، وما زال يدور فى فضاء مخيف، ما الحقيقة؟! ما القيم؟ ما أى شىء؟ إنى أحيانًا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذى أشعر به عند الوقوع فى الشر! . .

فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال :

ـ لقد انتقم الدين منك، هجرته جريًا وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليدين!

وقال رياض قلدس، وكان يبدو فى قوله مجاملاً لا أكثر :

ـ موقف الشك هذا لذيذ! مشاهدة وتأمل وحرية مطلقة، وأخذ من كل شىء أخذ السائح!

فقال عبد العزيز مخاطبًا كمال :

ـ أنت أعزب فى فكرك، كما أنت أعزب فى حياتك!

وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم أن الاثنين نتيجة لشىء ثالث؟ وقال رياض قلدس :

ـ العزوبة حال مؤقتة، وربما كان الشك كذلك!

فقال عبد العزيز :

ـ ولكنه فيما يبدو لن يميل إلى الزواج أبدًا . .

فقال رياض متعجبًا :

ـ ما الذى يحول بين الشك والحب؟ وما الذى يمنع محبًا من الزواج؟، أما الإصرار على العزوبة فليس من الشك فى شىء، الشك لا يعرف الإصرار!

فتساءل كمال، وهو غير جاد فى باطنه :

ـ ألا يحتاج الحب إلى شىء من الإيمان :

فقال رياض قلدس ضاحكًا :

ـ كلا، إن الحب كالزلزال الذى يرج الجامع والكنيسة والماخور على السواء . .

زلزال؟ ما أصدقه من تشبيه، زلزال يهدم كل شىء يغرقه فى صمت الموت .

ـ وأنت يا أستاذ قلدس، لقد أطريت الشك، فهل أنت من أهله؟

فقال عبد العزيز ضاحكًا :

ـ إنه ذلك نفسه!

وضجوا بالضحك، ثم قال رياض وكأنما كان يقدم نفسه :

ـ لبثت فيه فترة ثم مرقت منه، لم أعد اشك فى الدين لأنى كفرت به، ولكنى أومن بالعلم والفن، إلى الأبد إن شاء الله!

عبد العزيز متسائلا فى تهكم :

ـ إن شاء الله الذى لا تؤمن به؟

فقال رياض قلدسن باسما :

ـ الدين ملك الناس، أما الله فلا علم لنا به، من ذا الذى يستطيع أن

يقـــول لا أومـــن باللـــه، أو يقـــول أومـــن باللـــه؟ الأنبـيـاء هم المؤمنون الحقيقيون، وذلك أنهم رأوه أو سمعوه أو خاطبوا رسل وحيه!

فقال كمال:

ـ ولكنك تؤمن بالعلم والفن؟

ـ نعم..

ـ الإيمان بالعلم له وجاهته، ولكن الفن..؟! أنا أفضل أن أومن بالأرواح على أن أومن بالقصة مثلا!

فحدجه رياض بنظرة عاتبة، وقال بهدوء:

ـ العلم لغة العقول، والفن لغة الشخصية الإنسانية جميعًا!

ـ ما أشبه هذا الكلام بالشعر!

فتقبل رياض تهكم كمال بابتسامة متسامحة، وقال:

ـ العلم يجمع البشر فى نور أفكاره، والفن يجمعهم فى عاطفة سامية إنسانية، وكلاهما يطور البشرية ويدفعها إلى مستقبل أفضل..

يا للغرور! يكتب قصة من صفحتين كل شهر، ويظن أنه يطور البشرية، وأنا لست دونه سماجة، فلأننى ألخص فصلاً من كتاب تاريخ الفلسفة لفدنج، أطالب فى أعماقى بالمساواة على الأقل بفؤاد جميل الحمزاوى وكيل نيابة الدرب الأحمر، ولكن كيف تطاق الحياة دون ذلك؟ مجانين نحن أم عقلاء أو مجرد أحياء؟ أف من كل شىء!

ـ وما قولك فى العلماء الذين لا يشاركونك فى حماستك للعلم؟

ـ لا ينبغى أن نفسر تواضع العلم بالعجز أو اليأس، العلم سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزاتها، وهو دين المستقبل..

ـ والقصة؟

بدا رياض لأول مرة وهو يدارى استياءه، فاستدرك الآخر كالمعتذر:

ـ أعنى الفن عمومًا؟

فقال رياض قلدس متسائلا فى حماسة:

ـ أتستطيع أن تعيش فى وحدة مطلقة؟ لابد من النجوى، من العزاء، من المسرة، من الهداية، من النور، من الرحلة فى أنحاء المعمورة والنفس هذا هو الفن..

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز:

ـ خطر لى خاطر.. أن نجتمع نحن وبعض الزملاء مرة كل شهر للحديث فى شتى الفكر، على أن ينشر حديثنا بعنوان «محاورة شهر كذا»..

فقال رياض قلدس وهو يرمق كمال بنظرة ودية:

ـ إن حديثنا لن ينقطع، أو هذا ما أوده، أنعد أنفسنا أصدقاء؟

فقال كمال بحماسة صادقة:

ـ بكل تأكيد، يجب أن نتقابل فى كل فرصة..

شمل كمال إحساس بالسعادة لهذه «الصداقة الجديدة»، كان يشعر بأن جانبًا ساميًا من قلبه استيقظ بعد سبات عميق، فاقتنع أكثر من قبل بخطورة الدور الذى تلعبه الصداقة فى حياته، وبأنها عنصر حيوى لا غنى له عنه، أو يظل كالظامئ المحترق فى صحراء..

١٦

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة، فعاد كمال من الموسكى والساعة تدور فى الثامنة مساء، يتنفس جوا خانقًا شديد الحرارة، وتمهل

عند عطفة الجوهرى ثم مال إليها، ومرق من ثالث باب على يسار الداخل، ورقى فى الدرج حتى الدور الثانى، ثم دق الجرس، ففتحت الشراعة عن وجه امرأة قد جاوزت الستين، حيته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية، وفتحت الباب فدخل صامتًا، أما المرأة فقالت ترحب به:

ـ أهلا بابن الحبيب، أهلا بابن أخى..

وتبعها إلى صالة تتوسط حجرات، فيها كنبتان متقابلتان بينهما سجادة قصيرة مزركشة وخوان ونارجيلة، وشذا بخور فى الأركان، كانت المرأة بدينة، هشة من كبر، عاصبة الرأس بمنديل منمنم بترتر، مكحولة العينين تلوح فيهما نظرة ثقيلة تشى بوطأة الكيف، وفى تضاعيف وجهها آثار جمال دابر واستهتار مقيم، تربعت على الكنبة أمام النارجيلة، وأومأت إليه ليجلس إلى جانبها، فجلس وهو يسأل باسما:

ـ كيف حال الست جليلة؟

فهتفت محتجة:

ـ قل عمتى..!

ـ كيف حالك يا عمتى؟

ـ الحال معدن يا بن عبد الجواد،.. (ثم بصوت مرتفع أجش).. بنت يا نظلة..

وبعد دقائق جاءت الخادم بكأسين مترعتين ووضعتهما على الخوان، فقالت جليلة:

ـ اشرب، طالما قلتها لأبيك فى الأيام الحلوة الماضية..

فتناول كمال الكأس، وهو يقول ضاحكًا:

ـ من المؤسف حقًا أنى جئت بعد فوات الأوان!

وهى تلكمه لكمة وسوست لها الأساور الذهبية التى تغطى ساعديها :

ـ يا عيب الشوم ، أكنت تريد أن تعيث فساداً حيث سجد أبوك؟ !

ثم مستدركة :

ـ ولكن أين أنت من أبيك؟ ، كان متزوجًا للمرة الثانية حين عرفته ، تزوج مبكراً على عادة أهل زمان ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقنى زمنا كان أحلى الحياة ، ثم رافق زبيدة ربنا يأخذ بيدها ، ثم عشرات غيرنا سامحه الله ، أما أنت فلا تزال أعزب ، ولا تزور بيتى مع ذلك إلا كل ليلة جمعة ، يا عيب الشوم ، أين الرجولة أين؟ !

أبوه الذى عرفه عن لسانها غير أبيه الذى عرفه بنفسه ، بل غير أبيه الذى حدثه عنه ياسين ، رجل الغريزة ، والحياة العارمة ، لم تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه؟ حتى ليلة الجمعة التى يزور فيها هذا البيت لا يصفو له «الحب» فيها إلا بالخمر ، فلولا السكر لبدا له الجو متجهما باعثا على الانهزام ، وأول ليلة رمت به المقادير إلى هذا البيت ليلة لاتنسى ، رأى المرأة لأول مرة فدعته إلى مجالستها ريثما تفرغ له فتاة ، ولما جره الحديث إلى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة : أأنت أبن السيد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين؟ نعم أتعرفين أبى؟ يا ألف أهلا وسهلاً . . أتعرفين أبى ! . . أعرفه أكثر مما تعرفه أنت . . مازج عرقه عرقى . . وزففت له أختك . . كنت فى أيامى كأم كلثوم فى أيامك الكالحة . . سل عنى طوب الأرض ، تشرفنا يا ستى ، اختر من بناتى من تعجبك وليس بين الخيرين حساب ، هكذا فسق أول مرة فى هذا البيت على حساب والده . وجعلت تنظر إلى وجهه طويلاً حتى انقبض قلبه ، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها ، إذ أين هذا الرأس الغريب وذلك الأنف العجيب من الوجه البدرى المورد؟ ثم طال الحديث كل مطال ، فعرف

عنها تاريخ أبيه السرى، ميزاته وجلائل أعماله ومغامراته وخفى صفاته، «وأنا من شدة الحيرة متردد أبدًا بين وهج الغريزة ونسمة التصوف!».

فقال كمال يحييها:

- لا تبالغى يا عمتى، أنا مدرس والمدرس يحب الستر، ولا تنسى أنى فى العطلة أزورك كل أسبوع مرات لا مرة، ألم أكن عندك أول أمس؟ إنى أزورك كلما..

«كلما لجت بى الحيرة، إن الحيرة تدفعنى إليك قبل الشهوة».

- كلما ماذا يا سيد نينة؟

- كلما فرغت من العمل..

- قل غير هذا الكلام. أف من زمانكم أف، كانت فلوسنا من الذهب وفلوسكم من الحديد والنحاس، وطربنا كان من لحم ودم وطربكم راديو، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حواء، عندك كلام يا خوجة البنات؟

وأخذت من النارجيلة نفسًا ثم غنت:

يا خوجة البنات علمهم ضرب الآلات ونغمهم

فضحك كمال، ومال نحوها فقبل خدها قبلة جمعت بين المودة والمداعبة، فهتفت:

- شاربك كالشوك، كان الله فى عون عطية!

- إنها تحب الأشواك.

- بهذه المناسبة كان عندى بالأمس ضابط النقطة على سن ورمح، ولا فخر، كافة زبائنى من سادة القوم، أم تظن أنك تتصدق على بزيارتك؟!

- يا ست جليلة، إنك لجليلة..

ـ أحبك إذا سكرت، فإن السكر يذهب عنك وقار الخوجة ويردك إلى شيء من أبيك، لكن خبرني ألا تحب عطية؟ . . إنها تحبك!

هذه القلوب التي حجرتها فظاظة الحياة كيف تحب؟ ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التي تجود بالحب وتستطيبه؟، فإما أن تحبه بنت صاحب المقلى فيعرض عن حبها، وإما أن يحب عايدة فتعرض عن حبه، فقاموس حياته لم يعرف للحب من معنى سوى الألم، ذلك الألم العجيب الذي يحرق النفس حتى تبصر على ضوء نيرانه المتقدة عجائب من أسرار الحياة، ثم لا تخلف وراءها إلا حطامًا، قال يعلق على قولها متهكمًا:

ـ أحبتك العافية . .

ـ لم تعمل في المقدر إلا منذ طلاقها!

ـ الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه! . .

ـ الحمد لله في جميع الأحوال.

وابتسم ابتسامة ذات معنى، فأدركت معناها وقالت كالمحتجة:

ـ أتستكثر على أن أنوه بحمد الله؟ آه منك يا بن عبد الجواد، اسمع لا ابن لي ولا بنت، وقد شبعت من الدنيا، وعند الله العفو.

من عجب أن حديث المرأة تتردد فيه كثيراً هذه النغمة الموحية بالزهد! وجعل يختلس إليها النظر وهو يتجرع بقية كأسه. وكانت الخمر تأخذ في نفث سحرها معه من أول كأس. ووجد نفسه يتذكر عهداً مضى أيام كان للكأس فرحة سماوية، ما أكثر الأفراح التي ولت، في البدء كانت الشهوة ثورة وانتصار، ثم انقلبت مع الزمن فلسفة حمراء، ثم أخمد نشواتها الزمن والعادة، ولم تخل في أحايين كثيرة من عذاب التردد بين السماء والأرض، ذلك قبل أن يسري الشك بين الأرض والسماء.

ودق الجرس. ودخلت عطية، بيضاء لدنة ممتلئة، لحذائها أطيط ولضحكتها رنين، فقبلت يد المعلمة، ثم ألقت نظرة باسمة على الكأسين الفارغتين وهى تقول مداعبة كمال:

ـ خنتنى!

ومالت على أذن المعلمة فهمست قليلاً، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة، وسارت إلى الحجرة إلى يمين مجلس المعلمة، فلكزته جليلة قائلة:

ـ قم يا نور العين. .

تناول طربوشه ومضى إلى الحجرة، ولم تلبث نظلة أن لحقت به حاملة صينية عليها زجاجة وكأسان ومزة خفيفة، فقالت لها عطية:

ـ هاتى لنا رطلين من العجاتى، أنا جوعانة!

خلع الجاكتة ومد ساقيه فى ارتياح، ثم جلس يراقبها وهى تخلع حذاءها وفستانها، ثم وهى تسوى قميصها أمام المرآة وتسرح شعرها. الجسم الذى يحبه، الأبيض اللدن الممتلئ، ترى كيف كان جسم عايدة؟، كثيراً ما تبدو لذاكرته وكأنما لم يكن لها جسم، وحتى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقتها فإنما تستقر فى روحه كالمعانى المجردة، أما ما يلتصق عادة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصدور والسيقان والأرداف فلا يذكر ألبتة أن حواسه اتجهت إلى شىء منها، واليوم لو عرضت له حسناء كل ميزاتها الرشاقة والسمرة والنحافة ما ارتضى أن يبتاعها بريال، فكيف كان هذا الحب؟، وكيف ظلت ذكراه مصونة بالإجلال والتقديس رغم ازدرائه لكل شىء؟!

ـ الدنيا حر، أف. .

ـ إذا لطشتنا الخمر استوى لدينا الحر والبرد. .

ـ لا تأكلنى بعينيك، وارفع نظارتك!

مطلقة ذات بنين، تغطى كآبتها المعتمة بالعربدة، وتمتص الليالى النهمة أنوثتها وإنسانيتها دون مبالاة، يختلط فى أنفاسها الوجد الكاذب بالمقت، وهى للاستعباد شر صورة، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هى نجاة من الفكر!

وارتمت إلى جانبه ومدت يدها البضة إلى الزجاجة وأخذت تملأ الكأسين، هذه الزجاجة تباع فى هذا البيت بضعف ثمنها، كل شىء هنا غال إلا المرأة، إلا الإنسان، ولولا الخمر ما أمكن ذلك المجلس، كى يغيب عن عين البشرية المحملقة فى اشمئزاز، غير أن حياتنا لا تخلو من مومسات من نوع آخر، منهم وزراء وكتاب!

وبحلول الكأس الثانية فى جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرة. «هذه المرأة أشتهيها منذ زمن وحتى متى لا أدرى، الشهوة سلطان مستبد أما الحب فشئ آخر، وكم يبدو فى لباس عجيب إذا برئ من الشهوة، وإذا أتيح لى يومًا أن أجدهما فى كائن بشرى عرفت الاستقرار المنشود، ولذلك فلن تزال الحياة تبدو لى عناصر يعوزها الانسجام، أنا أنشد «الزواج» فى الحياتين العامة والخاصة، لا أدرى أيهما أصل الأخرى، ولكنى متأكد أنى تعس رغم سلوكى فى الحياة الذى ضمن لى حظى من مسرات الفكر ولذات الجسد، كالقطار الذى ينطلق فى قوة ولكنه لا يدرى من أين ولا إلى أين. والشهوة حسناء طاغية سرعان ما يصرعها القرف، ويهتف القلب ناشدا فى يأس أليم السعادة السرمدية، عبثًا، لذلك فالشكوى لا تنقطع، والحياة خدعة كبرى، وينبغى أن نتجاوب مع حكمتها الخفية كى نتقبل هذه الخدع راضين. فنكون كالممثل الذى يعى دوره الكاذب على المسرح، ولكنه رغم ذلك يعبد فنه».

وتجرع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتى أغرقت عطية فى الضحك، وهى تحب السكر من صميم قلبها ولكنه يفعل بها الأفاعيل، فإذا لم

يوقفها عند حدها علا صوتها فتشنجت ثم بكت وتقيأت. ولعبت الخمر برأسه فاهتز طربًا، ومد إليها بصره فانبسطت أساريره. هى الآن امرأة فحسب لا مشكلة، وكأنه لم تعد ثمة مشكلة فى الوجود، الوجود نفسه ـ أثقل مشكلة فى الحياة ـ لم يعد مشكلة، ولكن اشرب واغرق فى القبل..

ـ ما ألطفك إذا ضحكت بلا سبب!

ـ إذا ضحكت بلا سبب فاعلمى أن الأسباب أجل من أن تذكر..

١٧

عاد عبد المنعم إلى السكرية ملتفا فى معطفه، يحبك من آن لآخر طاقيته ليتقى بها برد الشتاء القارص، وكان الظلام شاملاً رغم أن الساعة لم تجاوز السادسة مساء، وما كاد يبلغ مدخل السلم حتى فتح باب الدور الأول وتسلل الشبح اللطيف الذى كان ينتظر. وخفق قلبه وجعل يحملق فى الظلام بعينين متقدتين، وتابع شبحها وهو يرقى فى السلم فى خفة وحذر أن يحدث صوتًا، فوجد نفسه موزعًا بين رغبة تغريه بالاستسلام وإرادة تحثه على السيطرة على أعصابه التى تلوح بالخيانة والإنهيار. وذكر ـ الآن فقط! ـ أنها واعدته الليلة من قبل، وقد كان بوسعه أن يقدم موعد عودته أو يؤخره فيتجنب هذا اللقاء، ولكنه نسى ذلك كله، لشد ما ينسى! ولم يكن ثمة وقت للتدبر والتذكر، فليترك هذا إلى حينه، عندما يخلو إلى نفسه فى حجرته، إلى تلك اللحظة التى ستشهده. منتصراً ظافراً أو منهزمًا مغلوبًا على أمره، وارتقى السلم فى أعقابها دون أن يعزم على أمر، ملقيًا بنفسه فى خضم الامتحان، ولم يكن شىء لينسيه آلام صراعه الأبدى. وفوق البسطة خيل إليه أن

شبحها يضخم حتى ملأ عليه المكان والزمان. وقال وهو يخفى قلقه ويضمر الصمود مهما كلفه الأمر:

ـ مساء الخير..

فجاء الصوت الرقيق يقول:

ـ مساء الخير، أشكرك لأنك سمعت نصيحتى ولبست معطفك..

فغلبه التأثر لرقتها، ذابت فى حلقه كلمة أوشك أن يجبها بها، ثم قال مداريًا ارتباكه:

ـ خشيت أن تمطر السماء..

فرفعت رأسها إلى أعلى كأنما تنظر على السماء، وقالت:

ـ ستمطر عاجلاً أو آجلاً، ليس فى السماء نجم، وقد ميزتك بصعوبة عندما دخلت الحارة.

فاستجمع قواه المتلاطمة، وقال فيما يشبه التحذير:

ـ الجو بارد، وجو السلم خاصة شديد الرطوبة!

فقالت الصغيرة بصراحة تعلمتها على يديه:

ـ لا أشعر بالبرد فى قربك!..

فلفحت وجهه حرارة منبعثة من الداخل، ونم حاله على أنه سيعاود الخطأ على رغمه، وجعل يستعدى إرادته ليتغلب على الرجفة السارية فى بدنه، فسألته:

ـ مالك لا تتكلم؟

وأحس بيدها على منكبه تضغطه برقة، فما تمالك أن طوقها بذارعه، وقبلها قبلة طويلة، ثم أمطرها قبلات حتى سمع صوتها الرقيق يقول لاهثا:

ـ لا أطيق البعد عنك..

فواصل عناقه متذاوبًا فى حضنها، وهى تهمس فى أذنه:

ـ أتمنى لو أبقى هكذا إلى الأبد..

فشد عليها الوثاق قائلاً بصوت متهدج:

ـ يا للأسف!.

فتباعد رأسها فى الظلام قليلاً، وهى تتساءل:

ـ علام تأسف يا حبيبى؟

فقال بعد تردد:

ـ على الخطأ الذى نتردى فيه..

ـ أى خطأ بالله؟

تخلص منها برقة، وراح يخلع معطفه، فطواه، ثم هم بأن يضعه على الدرابزين، ولكنه عدل عن فكرته فى اللحظة الأخيرة ـ لحظة هائلة ـ فثناه على ذراعه ـ ثم تراجع إلى الوراء خطوة. كانت أنفاسه تضطرب ولكن عزمة اعترضت تيار استسلامه فقلبت كل شىء. وعادت يدها تتلمس السبيل إلى عنقه فأمسك بها، وانتظر حتى هدأت أنفاسه، ثم قال بهدوء:

ـ هذا خطأ كبير..

ـ أى خطأ؟! لست أفهم شيئًا..

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، أنت تعبث بها إشباعًا لرغبة لا ترحم، ولن يكون لهذا العبث من غاية، ليس إلا عبثًا تجلب به غضب الله ومقته.

ـ يجب أن تفهمى، أنستطيع أن نعلن ما نفعل؟

ـ نعلنه؟

ـ انظرى كيف تستنكرين! ولكن لماذا لا نعلنه إن لم يكن عيبًا مزريًا؟

وشعر بيدها تتصيده، فارتقى إلى أولى درجات السلم التالية، وكان مطمئنا إلى أنه جاز منطقة الخطر بسلام:

ـ اعترفي بأننا مخطئان، فلا ينبغي أن نصر على الخطأ. .

ـ عجيب أن أسمع منك هذا الكلام. .

ـ لا عجب، إن ضميرى لم يعد يحتمل الخطيئة، إنها تعذبنى وتفسد على صلاتى.

«صامتة! آذيتها فليسامحنى الله، يا للألم، ولكننى لن أتراجع، أحمد الله على أن الخطأ لم يدفعك إلى ما هو شر منه. .».

ـ يجب أن يكون ما حصل درسًا لنا فلا نعود إلى مثله، أنت صغيرة، وقد أخطأت، فلا تجرى مرة أخرى وراء الخطأ.

وقالت فى نبرات باكية:

ـ لم أخطىء. . أتنوى هجرى؟ ماذا تقصد؟

وكان قد تمالك قوته فقال:

ـ عودى إلى بيتك، لا تفعلى شيئا ترين وجوب التستر عليه، لا تقابلى أحدا فى الظلام. .

فقال الصوت متهدجا:

ـ أتهجرنى؟ أنسيت كلامك عن حبنا؟

ـ كلام من لا عقل له، أنت مخطئة، ليكن هذا درسا لك، احذرى الظلام قد تكون فيه نهايتك، أنت صغيرة، فمن أين لك هذه الجرأة؟!

تردد فى الظلام انتحابها، ولكنه لم يرق قلبه، كان منتشيا بلذة نصر قاسية:

ـ عى كل كلمة، ولا تغضبى، واذكرى أننى لو كنت نذلاً ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضى عليك، أستودعك الله. . .

ورقى فى السلم وثبا، انتهى من العذاب، ولن يكون طعمة لأنياب الندم، ولكن ليذكر قول أستاذه الشيخ على المنوفى: إن مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة. أجل ليذكر هذا. وخلع ملابسه على عجل وارتدى الجلباب، ثم قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة:

ـ أريد أن أخلو قليلا إلى والدى فى حجرة المكتب، فانتظر قليلا من فضلك..

وفى طريقه إلى الحجرة رجا والده أن يتبعه، فرفعت خديجة رأسها إليه متسائلة:

ـ خير؟..

ـ سأحدث أبى أولا، ثم يأتى دورك.

وتبعه إبراهيم شوكت صامتا، كان الرجل قد ركب طاقم أسنانه الجديد، وعاودته طمأنينته الخاملة بعد أن واجه الحياة بلا أسنان ستة أشهر كاملة. وجلسا جنبا إلى جنب والأب يقول:

ـ خير إن شاء الله!

فقال عبد المنعم دون تردد أو تمهيد:

ـ أريد يا أبى أن أتزوج!

فحملق الرجل فى وجهه، ثم قطب باسما كأنه لم يفهم شيئا، وهز رأسه فى حيرة ثم قال:

ـ الزواج؟ كل شىء رهن بوقته، لماذا تحدثنى عن ذلك الآن؟

ـ أريد أن أتزوج الآن..

ـ الآن؟! ما زلت فى الثامنة عشرة من عمرك، ألا تنتظر حتى تأخذ شهادتك؟

ـ لا أستطيع..

وهنا فتح الباب ودخلت خديجة، وهى تتساءل:

ـ ماذا يدور وراء ذلك الباب؟ هل توجد أسرار تحل لأبيك وتحرم علىّ؟

فقطب عبد المنعم متنرفزا، على حين راح إبراهيم يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول:

ـ عبد المنعم يريد أن يتزوج..

فتفحصته خديجة كأنما تخاف عليه الجنون، وهتفت:

ـ يتزوج؟ ماذا أسمع؟ هل قررت أن تترك الجامعة؟

فقال عبد المنعم بصوت قوى غاضب:

ـ قلت إنى أريد أن أتزوج لا أن أهرب من المدرسة، سأواصل الدراسة متزوجا، هذا كل ما هنالك..

فقالت خديجة وهى تردد عينيها بينه وبين أبيه:

ـ عبد المنعم أأنت جاد حقا؟

ـ فصاح:

ـ كل الجد...

فضربت المرأة كفا على كف وقالت:

ـ أصابتك عين، ماذا حصل لعقلك يا ابنى؟

فنهض عبد المنعم غاضبا وهو يقول:

ـ ما الذى جاء بك؟ كنت أريد أن أختلى بأبى أولا ولكنك لا صبر لك، أصغيا إلى، أريد أن أتزوج، أمامى عامان حتى أنتهى من دراستى، وأنت يا أبى تستطيع أن تعولنى هذين العامين، لولا تأكدى من هذا، ما عرضت طلبى.. فجعلت خديجة تقول:

ـ يا لطف الله! أكلوا عقله!

ـ من هم الذين أكلوا عقلى؟

ـ الله بهم أعلم . . منهم لله ، أنت أدرى بهم ، وسنعرفهم عما قليل . .

فخاطب الشاب أباه قائلا :

ـ لا تصغ إليها ، إنى لا أدرى حتى الساعة من التى ستكون من نصيبى ، اختاروها بأنفسكم ، أريد زوجة لائقة ، أى زوجة!

فسألته داهشة :

ـ أتعنى أنه لا توجد واحدة بالذات هى السبب فى هذه البلوى؟

ـ أبدا ، صدقينى ، اختارى لى بنفسك . .

ـ وما الداعى إلى السرعة إذن؟ دعنى أختار لك ، أعطنى مهلة ، إنها مسألة عام أو عامين!

فعلا صوته وهو يقول :

ـ أنا لا أهزل ، دعينى فهو يفهمنى خيرا منك!

فسأله أبوه بهدوء :

ـ ما وجه السرعة؟

فقال عبد المنعم وهو يغض بصره :

ـ لا أستطيع البقاء دون زواج .

فتساءلت خديجة :

ـ وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون؟

فقال الشاب مخاطبا أباه :

ـ لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون!

فتفكر إبراهيم قليلا ، ثم قال حسما للموقف :

ـ يكفى هذا الآن ، وسنعود إلى الموضوع فى فرصة أخرى . .

وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها، وأخذها من يدها فغادر الحجرة إلى مجلسها فى الصالة. وتحادث الزوجان مقلبين الأمر على جميع وجوهه، وبعد أخذ ورد طويلين مال إبراهيم إلى تأييد طلب ابنه، وتولى بنفسه إقناع زوجه، حتى سلمت بالمبدأ، وعند ذاك قال إبراهيم:

عندنا نعيمة بنت أخى، فلن نتعب فى البحث عن عروس..

فقالت خديجة باستسلام:

- أنا التى أقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث المرحوم إكراما لعائشة، فلا اعتراض لى على اختيار نعيمة زوجة لابنى، إن سعادة عائشة تهمنى جدا كما تعلم، ولكنى أخاف تفكيرها، وأحسب ألف حساب للشذوذ الذى طرأ عليها، ألم نلمح أمامها مرات عن رغبتنا فى تزويج نعيمة من عبد المنعم؟ ومع ذلك خيل إلى أنها كانت ترحب بابن جميل الحمزاوى عندما قيل إن والده طلب له يدها..

- هذا تاريخ قديم، مضى عليه عام أو أكثر، والحمد لله أنه لم يتم، فما كان يشرفنى أن يأخذ بنت أخى شاب مثله مهما تكن وظيفته، الأصل عندى كل شىء، نعيمة عندنا على العين والرأس..

فقالت خديجة وهى تتنهد:

- على العين والرأس، ترى ماذا يقول أبى عن هذا اللعب إذا علم به؟!

فقال إبراهيم:

- سيرحب به دون شك، كل شىء يبدو كالحلم، ولكن لن أندم، فإنى موقن بأن تجاهل رغبة عبد المنعم خطأ لا يغتفر، ما دام فى الإمكان تحقيقها!..

١٨

لم يطرأ على البيت القديم فى بين القصرين أى تغيير يذكر، إلا أن الجيران بما فيهم حسنين الحلاق ودرويش الفوّال والفولى اللبان وأبو سريع صاحب المقلى وبيومى الشرباتلى، كل أولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أن اليوم تزوج حفيدة السيد أحمد من ابن عمها ـ وخالتها ـ عبد المنعم. حافظ السيد أحمد على تقاليده القديمة فمضى اليوم كغيره من الأيام، فاقتصر على دعوة الأهل، وغاية الأمر أن أعدت الغدة لوليمة عشاء. وكان الوقت فى مطلع الصيف، وقد اجتمعوا جميعا فى حجرة الاستقبال، السيد أحمد عبد الجواد وأمينة وخديجة وإبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد وياسين وزنوبة ورضوان وكريمة، ما عدا نعيمة التى كانت تأخذ زينتها فى الدور الأعلى بمعاونة عائشة.

ولعل السيد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقى على الاجتماع العائلى ظلا من الوقار الذى لا تستسيغه المناسبة السعيدة، فانتقل عقب الاستقبال بقليل إلى حجرته، حيث لبث ينتظر حضور المأذون. وكان السيد قد صفَّى تجارته وباع الدكان مؤثرا الراحة لشيخوخته، لا لأنه بلغ الخامسة والستين فحسب، ولكن لأن استعفاء جميل الحمزاوى اضطره إلى بذل نشاط مضاعف لم يعد يحتمله، فقرر إنهاء حياته العملية، قانعا بما تخلف له من تصفية دكانه وما ادخر من مال من قبل قدَّر أن يكفيه بقية العمر. وكان حدثا هاما فى حياة الأسرة، جعل كمال يتساءل عن حقيقة الدور الذى كان يلعبه جميل الحمزاوى فى حياته عامة وحياة أبيه خاصة، ولبث السيد فى حجرته منفردا، يتأمل أحداث اليوم فى

صمت، كأنما لا يصدق حقا أن العريس هو عبد المنعم حفيده. ويوم فاتحه إبراهيم شوكت فى الأمر عجب، واستنكر، كيف تسمح لابنك بأن يحدثك بهذه الصراحة وأن يملى إرادته عليك، إنكم آباء خلقتم لإفساد الأجيال، ولو فى غير الظرف الذى يدرك دقته لقال لا، ولكن كانت هناك عائشة، فحيال تعاستها تخلى عن عناده التقليدى كله، ولم يطق - خاصة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوى من تعليقات - أن يخيب لها رجاء - وإذا كان زواج نعيمة يخفف من لوعة قلبها فأهلا به وسهلا. هكذا دفعه الحرج إلى أن يقول نعم، وأن يسمح للصبيان أن يملوا إرادتهم على الكبار وأن يتزوجوا قبل أن يتجاوزوا مرحلة التلمذة. ودعا عبد المنعم إلى مقابلته، وطلب إليه أن يتعهد بإتمام دراسته، فتكلم عبد المنعم كلاما جميلا مريحا مستشهدا فى أثناء ذلك بالقرآن والحديث، فترك فى نفس جده آثارا متباينة من الإعجاب والسخرية، هكذا يتزوج التلميذ اليوم على حين أن كمال لم يفكر فى الزواج بعد، وعلى حين رفض هو يوما أن تعلن خطبة المرحوم فهمى - مجرد إعلان خطبة - الذى مات قبل أن يجنى ثمرة شبابه الغض، وهكذا يبدو أن العالم قد انقلب على رأسه، وأن دنيا عجيبة أخرى تشب، وأننا غرباء بين أهلينا، اليوم يتزوج التلاميذ ولا ندرى ماذا يصنعون غدا. وفى حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن حديث طويل:

- لذلك أخلينا الدور الثانى من سكانه، وسيستقبل الليلة العروسين وهو على أحسن حال.

فقال لها ياسين بلهجة غادرة:

- عندك كافة المواهب التى تجعل منك «حماة» لا نظير لها، ولكنك لن تستطيعى استغلال مواهبك الفذة مع هذه العروس!

فأدركت ما يرمى إليه، ولكنها تجاهلته قائلة:

ـ العروس ابنتى وابنة أختى . .

وقالت زنوبة تلطف من تعريض ياسين :

ـ خديجة هانم سيدة كاملة!

فشكرتها خديجة، وكانت تقابل توددها بالشكر والاحترام إكراما لياسين.

على الرغم من احتقارها الباطنى لها، وكانت كريمة تتألق فى سنها العاشرة مما جعل ياسين ينوه بأنوثتها المنتظرة! أما عبد المنعم فراح يحادث جدته أمينة المعجبة بتدينه، وكانت تقطع حديثه بالدعاء له. وسأل كمال أحمد ممازحا :

ـ وأنت تتزوج فى العام المقبل؟

فقال أحمد ضاحكا :

ـ إلا إذا اتبعت سنتك يا خالى!

وكانت زنوبة تتابع حديثهما، فقالت موجهة الخطاب إلى كمال :

ـ لو سمح لى سى كمال فإنى أعد بأن أزوجه فى أيام!

فقال لها ياسين وهو يشير إلى نفسه :

ـ إنى مستعد لأن أسمح لك عن نفسى!

فقالت وهى تهز رأسها تهكما :

ـ لقد تزوجت بما فيه الكفاية، وأخذت نصيبك ونصيب أخيك . .

وانتبهت أمينة إلى موضوع الحديث فقالت زنوبة :

ـ إذا زوجت كمال، فسأحاول أن أزغرد لأول مرة فى حياتى!

وتخيل كمال أمه وهى تزغرد فضحك، ثم تخيل نفسه فى مجلس عبد المنعم ينتظر المأذون فوجم. الزواج يهيج دوامة فى أعماقه كما يهيج الشتاء الربو عند المريض، وهو يرفضه عند كل مناسبة، لكنه لا يستطيع

أن يتجاهله، وهو خالى القلب ولكنه يضيق بخلوه كما كان يضيق قديما بامتلائه، واليوم إذا أراد الزواج فليس أمامه إلا الطريق التقليدى الذى يبدأ بالخاطبة، وينتهى بالأسرة والأطفال والاندماج فى ميكانيزم الحياة، فلا يكاد يجد المولع بالتأمل موضعا للتأمل، وسوف يرى الزواج دائما أبدا فى مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أما فى نهاية العمر فلن تجد إلا الوحدة والكآبة. .

السعيدة حقا فى ذلك اليوم كانت عائشة، لأول مرة منذ تسع سنوات تحلت بثوب جميل وعقصت شعرها. وكانت ترقب ابنتها التى تبدت كقبضة من نور بعينين حالمتين، فإذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب الذابل، وقد لمحتها أمها مرة وهى تبكى، فنظرت إليها معاتبة وهى تقول:

- لا يصح أن تترك نعيمة البيت وفى قلبها حزن!

فانتحبت عائشة قائلة:

- ألا ترينها وحيدة فى هذا اليوم لا أب ولا أخ؟

فقالت أمينة:

- البركة فى أمها، ربنا يخليها لها، وهى ذاهبة إلى خالتها وعمها، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله. .

فجففت عائشة عينيها وهى تقول:

- ذكريات الأموات الأعزاء تغمرنى من طلعة الصبح، ووجوههم تلوح لى، ثم أننى بعد ذهابها سأبقى وحيدة. .

فقالت أمينة فى عتاب:

- لست وحيدة. .

وكانت نعيمة تربت خد أمها وتقول:

- كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما؟

فتجيبها عائشة بحنان وهى تبتسم :

ـ سيعلمك بيت زوجك كيف تستطيعين!

فقالت نعيمة بقلق :

ـ ستزورينني كل يوم ، كنت تتحاشين الاقتراب من السكرية ، ولكن يجب أن تتخلى عن هذه العادة منذ اليوم .

ـ طبعا ، هل تشكين فى ذلك؟

وإذا بكمال يقبل عليهما قائلا :

ـ استعدا جاء المأذون! . .

وعلقت عيناه بنعيمة فى إعجاب . يا للجمال ، والرقة ، والشفافية ، كيف يكون للحيوانية دور فى هذا الكائن اللطيف؟!

ولما عرف أن الكتاب قد كتب ، تبودلت التهانى ، وإذا بزغرودة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع فى جوه الصامت ، فاتجهت الرءوس فى دهش إلى حيث وقفت أم حنفى فى نهاية الصالة . ولما جاء وقت الوليمة وتوارد المدعوون إلى المائدة ، انقبض صدر عائشة وتركز تفكيرها فى الفراق الوشيك ، فلم تنفتح نفسها للطعام ، ثم جاءت أم حنفى فأبلغت أن الشيخ متولى عبد الصمد جالس على الأرض فى الحوش ,وأنه طلب عشاءه خاصة من اللحوم ، فضحك السيد وأمر بأن تهيأ له صينية وتحمل إليه . وما لبث أن ترامى إليهم صوته صاعدا من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيبه « ابن عبد الجواد» ويتساءل فى الوقت نفسه عن أسماء أبنائه وأحفاده ليدعو لهم ، فقال السيد باسما :

ـ يا للخسارة! . . نسى الشيخ متولى أسماءكم ، سامح الله الشيخوخة . .

فقال إبراهيم شوكت :

ـ إنه فى المائة من عمره ، أليس كذلك؟

فأجاب أحمد عبد الجواد بالإيجاب، وعند ذلك تعالى صوت الشيخ مرة أخرى وهو يصيح:

ـ باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم!

فضحك السيد قائلاً:

ـ سر ولايته قاصر اليوم على اللحوم!

وحين ساعة الوداع سبق كمال إلى الحوش ليتجنب ذلك المنظر، ومع أنه لم يزد على انتقال يسير إلى السكرية إلى أنه كان ذا وقع شديد كالصداع فى قلبى الأم وابنتها. والواقع أن كمال كان ينظر إلى هذا الزواج بعين ملؤها الشك، بالنظر إلى جدارة نعيمة للحياة الزوجية. وفى الحوش رأى الشيخ متولى عبد الصمد جالسا على الأرض تحت المصباح الكهربائى المثبت فى جدار البيت ليضىء المكان، مادا ساقيه، مرتديا جلبابا أبيض باهتا وطاقية بيضاء، خالعا نعليه مستندا إلى الجدار كالنائم ليريح جوفه مما امتلأ به من طعام، ورأى بين ساقيه ماء يسيل، فأدرك من النظرة الأولى أن الشيخ متولى يبول وهو لا يشعر، وكانت أنفاسه تتردد فتسمع كالفحيح. حدجه كمال بنظرة جمعت بين التقزز والرثاء، ثم خطر له خاطر فابتسم على رغمه، وقال لنفسه:

ـ لعله كان طفلا مدللا عام ١٨٣٠م.

١٩

فى اليوم التالى مباشرة ذهبت عائشة لزيارة السكرية، طوال الأعوام التسعة المنقضية لم تغادر البيت القديم إلا لزيارة القرافة، فيما عدا زيارات معدودات لقصر الشوق حين وفاة ابنى ياسين الصغيرين. وقفت

قليلا عند مدخل السكرية تلقى على المكان نظرة شاملة، حتى غطى الدمع ناظريها. على الأرض أمام مدخل البيت التى أشبعتها أقدام عثمان ومحمد جريا ولعبا، والحوش الذى ازدان يوما بحفل عرسها البهيج، والمنظرة التى كان يجلس فيها خليل يدخن غليونه ويلعب الطاولة والدومينو، ذلك شذا الماضى العطر المشبع بالحنان والحب المفقودين، وهى سعيدة، سعادة سارت مسير الأمثال، حتى قيل عنها الضاحكة المترنمة التى لا شغل لها إلا مضاحكة المرآة ومصاحبة الزينة، والزوج يناجى والأطفال يثبون، تلك الأيام الماضية. وجففت عينيها حتى لا تلقى العروس باكية. جففت عينين ما تزالان زرقاوين وإن تساقطت أهدابهما وذبلت جفونها. ووجدت الشقة قد جددت مرافقها وطليت جدرانها فبدت ثغرا باسما فى جهاز العروس الذى أنفق عليه بسخاء. واستقبلتها نعيمة فى فستان أبيض هفهاف، وقد أرسلت شعرها الذهبى حتى مست أهدابه باطن الساقين، رائقة عذبة وضيئة ينبعث من أردانها عرف ساحر، فتعانقتا عناقا طويلا حارا، حتى قال عبد المنعم، وكان ينتظر دوره فى السلام فى روب جنزارى شمل به جلبابه الحريرى:

- كفاية، أقل سلام يكفى هذا الفراق الوهمى

ثم عانق خالته، ومضى بها إلى مقعد وثير فأجلسها وهو يقول:

- كنا فى سيرتك يا خالتى، فقد قر رأينا على أن ندعوك للإقامة معنا..؟

فابتسمت عائشة قائلة:

- أما هذا فلا، سأزوركم كل يوم فتكون فرصة للفسحة، ما أحوجنى إلى الحركة.

فقال عبد المنعم بصراحته المعهودة:

ـ نعُّومة قالت لى إنك لا تحتملين المكوث هنا خشية أن تطاردك الذكريات، إن الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد، ونحن أولادك فقد عوضك الله.

هذا الشاب طيب صريح ولكنه لا يبالى أين يقع كلامه من القلوب الجريحة.

ـ طبعا يا عبد المنعم، ولكنى مرتاحة فى بيتى، هذا أفضل..

ـ وإذا بخديجة وإبراهيم وأحمد يدخلون، فيصافحونها، ثم تقول خديجة لعائشة:

ـ لو عرفت أن هذا الذى يعيدك إلى زيارتنا لزوجتهما قبل البلوغ!

فضحكت عائشة، وقالت تذكر خديجة بالماضى البعيد:

ـ المطبخ واحد؟ أم تطالب العروس بالاستقلال من حماتها؟

فضحكت خديجة وإبراهيم معا، وقالت خديجة بلهجة لم تخل من معنى:

ـ العروس كأمها لا تعنى بالسفاسف.

وقال إبراهيم ليفسر لابنيه ما غمض من تلميح عائشة:

ـ بدأت المعارك بين أمكما وأمى بسبب مشكلة المطبخ الذى كانت أمى تستقل به، ومطالبة أمكما بالاستقلال المطبخى..

فقال العريس متعجبا:

ـ كنت تتعاركين يانينة بسبب المطبخ!

فقال أحمد ضاحكا:

ـ وهل من سبب للمعارك التى تدور بين الأم إلا هذا المطبخ؟

فقال إبراهيم فى تهكم:

ـ أمكما قوية كإنجلترا، أما أمى فرحمة الله عليها..

وجاء كمال، كان يرتدى بذلة بيضاء أنيقة، أما وجهه فيتكون من

الطاقم المألوف المركب من جبينه البارز وأنفه العظيم ونظارته الذهبية وشاربه المربع الغليظ، وكان بيده لفة كبيرة بشرت بهدية ممتازة، فقالت خديجة باسمة وهى تتفحص الهدية:

ـ حذار يا أخى، إذا لم تتدارك نفسك بالزواج فستظل تجىء بالهدايا دون أن يرد لك الجميل، الأسرة كلها اليوم موشكة على الزواج، هذا أحمد، وهناك رضوان وكريمة، تدارك نفسك بالتى هى أحسن..

وسأله أحمد:

ـ بدأت العطلة المدرسية يا خالى؟

فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو إلى العروس الجميلة:

ـ لم تبق إلا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح فى الابتدائية!

وغابت نعيمة لتعود مرة أخرى بصينية فضية حافلة بشتى أنواع الحلوى، مختلفة الألوان والطعوم، فمضت فترة لم يسمع خلالها إلا التمطق والمصمصة، ثم راح إبراهيم يحكى ذكريات فرحه، الحفل، والمغنى، والعالمة. وتابعته عائشة بوجه باسم وقلب محزون، وتابعه كمال بشغف إذ كان يعيد عليه صورا ما زال يذكر بعضها ويود لو يعرف ما فاته منها.

قال إبراهيم ضاحكا:

ـ السيد أحمد كان كما هو اليوم أو أشد، ولكن أمى رحمها الله قالت بحزم: ليفعل السيد ما يشاء فى بيته، أما عندنا فنحن نفرح كما نشاء، وقد كان. وجاء السيد يوم الفرح ومعه أصحابه مسَّاهم الله بالخير جميعا، أذكر منهم السيد محمد عفت جد رضوان، فجلسوا جميعا فى المنظرة بعيدا عن الزياط.

وقالت خديجة:

ـ أحيت الليلة جليلة أشهر عالمة فى عصرها..

وابتسم قلب كمال، وذكر البدرونة العجوز التى ما تزال تنوه بعهد أبيه! . .

وقال إبراهيم مسترقا النظر إلى عائشة:

ـ وكان لنا عالمة خصوصية لبيتنا، ولكن صوتها كان أجمل من العالمة المحترفة، كان يذكرنا بصوت منيرة المهدية فى عزها!

فتورد وجه عائشة، وقالت بهدوء:

ـ سكت صوتها منذ عهد بعيد، حتى نسيت الغناء. .

فقال كمال:

ـ نعيمة تغنى كذلك، ألم تسمعها؟

فقال إبراهيم:

ـ سمعت عنها ولكنى لم أسمعها بعد، الحق أنَّا عرفناها شيخة لا عالمة!

وبالأمس قلت لها: زوجك شيخ المؤمنين، ولكن ينبغى أن تؤجلى الصلاة والعبادة إلى حين!

وضحكوا جميعا، وقال أحمد مخاطبا أخاه:

ـ لا ينقص عروسك إلا أن تضمها إلى شعبة الشيخ على المنوفى معك.

فقال العريس:

ـ إن شيخنا أول من نصحنى بالزواج. .

فقال أحمد مخاطبا أخاه:

ـ لعل الإخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسى!

والتفت إبراهيم إلى كمال قائلا:

ـ أما أنت فكنت ـ أقصد أيام دخلتى ـ صغيرا، وكان شعرك غزيرا لا

كما هو اليوم، وكنت تتهمنا بسرقة أختيك فلم تغفر لنا ذلك أبدا. .

«كنت ميدانا خاليا لم تبدأ به المعارك بعد، يتحدثون عن سعادة الزواج، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكون؟! نعيمة أعز عليّ من أن يملّها مخلوق؟ أى شيء لا ينكشف عن خدعة فى هذه الحياة؟!».

فقالت خديجة معلقة على قول زوجها:

ـ كنا نظن ذلك حبا لنا، ولكن اتضح مع الأيام أنه ليس إلا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغر!

وضحك كمال كما ضحكوا جميعا. إنه يحب خديجة، ويزيد من حبه علمه بحبها الشديد له، أما تعصب العريس فشد ما يزعجه، ولكنه من ناحية أخرى يحب أحمد ويعجب به، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له أن تذكره خديجة به فى كل مناسبة، وكان قلبه شديد التأثر بجو الزواج المحيط به فانتشى قلبه وحواسه، ووجد حنينا وإن يكن بلا هدف، ثم تساءل كأنما يتساءل لأول مرة: ماذا يمنعنى من الزواج؟ . . حياة الفكر كما كان يزعم قديما؟! إننى أشك اليوم فى الفكر والمفكر معا، أهو الخوف، أم الانتقام، أم الرغبة فى الألم، أم رد الفعل الصادر من الحب القديم؟ فى حياتى مسوغ لأى من هذه الأسباب!

وسأل إبراهيم شوكت كمال:

ـ أتدرى لماذا آسف على عزوبتك؟

ـ نعم؟ . .

ـ إنى أعتقد أنك زوج مثالى إذا تزوجت، فأنت رجل بيت بطبعك، منظم، مستقيم، موظف محترم، ولا شك أنه توجد فتاة فى مكان ما من الأرض تستحقك، وأنت مضيع عليها حظها!

حتى البغال أحيانا تنطق بالحكم، فتاة فى مكان ما من الأرض ولكن أين؟أما عن اتهامه بالاستقامة فما هو إلا كافر فاسق سكير منافق! فتاة فى مكان ما من الأرض، فلعله غير بيت جليلة بعطفة الجوهرى، وهذه الآلام التى تتطاحن فى قلبه ما علَّتها؟ والحيرة التى لا مهرب منها إلا بالخمر والشهوات!، ويقولون تزوج حتى تنجب فتخلد، وشد ما طمح إلى الخلود فى شتى أشكاله وألوانه، فهل يركن يائسا فى النهاية إلى هذه الوسيلة الفطرية المبتذلة؟ وثمة أمل أن يجىء بلا ألم يشوه راحته الأبدية، كم بدا الموت مخيفا لا معنى له، ولكنه ـ بعد أن فقدت الحياة كل معانيها ـ يبدو اللذة الحقيقية فى الحياة، ما أعجب العاكفين على العلم فى معاملهم، ما أعجب الزعماء الذين يلقون بأنفسهم بالمهالك فى سبيل الدستور، أما الذين يدورون حول أنفسهم فى حيرة وعذاب فالرحمة لهم! وردد بصره بين أحمد وعبد المنعم، فى إعجاب مقرون بالغبطة، إن الجيل الجديد يشق سبيله العسير إلى هدف بيِّن دون شك أو حيرة، ترى ما سر دائى الوبيل؟!

قال أحمد:

ـ سأدعو العروسين ووالدى وخالتى إلى لوج فى الريحانى الخميس القادم فتساءلت خديجة:

ـ الريحانى؟..

فقال لها إبراهيم مفسرا:

ـ كشكش بك!

فضحكت خديجة وقالت:

ـ كاد يا سين يطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه أم رضوان ليلة إلى كشكش!

فقال أحمد باستهانة:

ـ كان زمان وجبر، جدِّى الآن لا يمانع فى ذهاب جدتى إلى كشكش بك!

فقالت خديجة:

ـ خذ العروسين وأباك، أما أنا فكفاية علىَّ الراديو..

وقالت عائشة:

ـ وكفاية علىَّ أنا بيتكم..

وراحت خديجة تقص قصة يا سين وكشكش بك حتى حانت من كمال نظرة إلى ساعته فتذكر موعد رياض قلدس، فنهض مستأذنا فى الانصراف.

٢٠

ـ أتستطيع أن تستمتع بجمال الطبيعة حقا بالرغم من أن الامتحان لم يبق عليه إلا أيام؟

ـ كان السائل طالبا، والمسئول طالبا كذلك، فى جماعة من الطلاب افترشت العشب على هيئة نصف دائرة فوق هضبة خضراء فى أعلاها كشك خشبى احتله طلاب آخرون، وعلى مرمى البصر تراءت جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخللها مماشى الفسيفساء، قال الطالب المسئول:

ـ كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجية، رغم اقتراب الامتحان. كان عبد المنعم شوكت جالسا فى محيط نصف الدائرة، وكذلك أحمد شوكت، فقال عبد المنعم:

ـ الزواج بخلاف ما تظنون، يهيىء الطالب أحسن فرصة للنجاح.

فقال حلمى عزت، وكان يجلس لصق رضوان ياسين فى الطرف الآخر من نصف الدائرة:

ـ هذا إذا كان الزوج من الإخوان المسلمين!

وضحك رضوان عن ثغره اللؤلؤى، رغم ما أثاره الحديث فى نفسه من غم، أجل إن سيرة الزواج تثير قلقه، فلا يدرى إن كان يقدم يوما على هذه المغامرة أم لا، مغامرة مخيفة بقدر ما هى ضرورية، ولكن ما أبعدها عن روحه وجسده! وتساءل طالب:

ـ وما الإخوان المسلمون!

فأجابه حلمى عزت:

ـ جمعية دينية تهدف إلى إحياء الإسلام علما وعملا، ألم تسمع بشعبها التى بدأت تتكون فى الأحياء؟

ـ غير الشبان المسلمين؟

ـ نعم..

ـ وما الفرق؟

فأجاب وهو يشير إلى عبد المنعم شوكت:

ـ سل الأخ..

فقال عبد المنعم بصوته القوى:

ـ لسنا جمعية للتعليم والتهذيب فحسب، ولكننا نحاول فهم الإسلام كما خلقه الله، دينا ودنيا وشريعة ونظام حكم..

ـ أهذا كلام يقال فى القرن العشرين؟..

فقال الصوت القوى:

ـ وفى القرن العشرين بعد المائة..

ـ احترنا يا هوه بين الديموقراطية والفاشستية والشيوعية، هذا خازوق جديد!

فقال أحمد ضاحكا :

ـ لكنه خازوق ربانى !

ـ فعلت ضجة ضحك ، إلا أن عبد المنعم حدجه بنظرة غاضبة ، وكأن رضوان ياسين ساءه التعبير ، فقال :

ـ خازوق تعبير غير موفق . .

وعاد الطالب يسأل عبد المنعم :

ـ وهل ترجمون الناس إذا خالفوكم؟

ـ إن الشبان يتهددهم زيغ فى العقيدة ، وانحلال فى الخلق ، وليس الرجم بأشد ما يستحقونه ، ولكننا لا نرجم ، وإنما بالموعظة الحسنة والمثال الطيب نهدى ونرشد ، وآية ذلك أن بيتنا يضم ، أخا مما يستحقون الرجم ، وها هو يمرح أمامكم ، ويتطاول على خالقه سبحانه !

فضحك أحمد وقال حلمى عزت مخاطبا إياه :

ـ إذا آنست من أخيك خطرا ، فإننى أدعوك للإقامة معى فى الدرب الأحمر . .

ـ أأنت مثله؟

ـ كلا ، ولكننا معشر الوفديين قوم متسامحون ، المستشار الأول لزعيمنا قبطى ، هكذا نحن . .

وعاد الطالب الأول يقول :

ـ كيف تدعون إلى هذا الهراء فى نفس الشهر الذى ألغيت فيه الامتيازات الأجنبية؟

فقال عبد المنعم متسائلا :

ـ أنبطل ديننا إكراما للأجانب؟

وإذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان فى واد آخر :

ـ ألغيت الامتيازات، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون . .

فقال حلمى عزت :

ـ هؤلاء النقاد غير مخلصين، إنها الكراهية والحسد، إن الاستقلال الحقيقى الكامل لا يؤخذ إلا بالحرب، فكيف يطمعون فى أن ننال بالكلام أكثر مما نلنا؟

فجاء صوت يقول فى ضجر :

ـ دعونا نتساءل عن المستقبل . .

ـ المستقبل لا يبحث فى شهر مايو والامتحان على الأبواب، أريحونا . . لن أعود إلى الكلية بعد اليوم حتى يتسع لى الوقت للمذاكرة . .

ـ مهلا، إن الوظائف لا تنتظرنا، ما مستقبل الحقوق أو الآداب؟ التسكع أو الوظائف الكتابية، تساءلوا عن المستقبل إذا شئتم . .

ـ أما وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب!

ـ الأبواب؟! السكان أكثر من الأبواب!

ـ اسمعوا . . النحاس أدخل الطلبة الجامعة وكانت أبوابها مغلقة، وأتاح لهم النجاح بعد أن أعجزهم المجموع المتعسف فهل يعجز عن توظيفنا؟

ولاح فى أقصى الحديقة سرب، فانعقدت الألسنة واتجهت نحوه الرءوس، كان مكونا من أربع فتيات قادمات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة، لم تكد تميزهن الأبصار بعد، ولكنهن تقدمن متمهلات يسقن الأمل فى رؤيتهن عن قرب، إذ كان الممر الذى يسرن فيه ينعطف أمام مجلس الصحاب فى مسيره نحو الشمال. وصرن فى مجال البصر، ورددت الألسن أسماءهن وأسماء كلياتهن، واحدة من الحقوق وثلاث من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر إلى إحداهن :

«علوية صبرى»، وجذب الاسم شوارد نفسه، فتاة ذات جمال تركى مصر، معتدلة الطول نحيلة، بيضاء ذات شعر أسود، فاحم، وعينين سوداوين واسعتين، عاليتى الجفون، مقرونة الحاجبين، ذات سمت أرستقراطى ولفتات رفيعة، وإلى ذلك كله فهى زميلة فى القسم الإعدادى، وقد علم ـ والباحث يظفر بمعلومات شتى ـ أنها سجلت اسمها مثله فى قسم الاجتماع، ولم تكن تهيأت فرصة ليبادلها كلمة واحدة، ولكنها أثارت اهتمامه من أول نظرة، طالما رمق ملامح نعيمة بإعجاب ولكنها لم تهز أعماقه، هذه الفتاة لها شأن فيبشر قريبًا بصداقة العقل، والقلب. . ؟!

قالت حلمى عزت عقب توارى السرب عن الأنظار:

ـ عما قريب تصبح كلية الآداب وكأنها كلية بنات!

فقال رضوان ياسين وهو يردد بصره بين طلاب الآداب فى نصف الدائرة:

ـ لا تثقوا بصداقة طلاب الحقوق الذين يكثرون من زياراتكم فى كليتكم بين الحصص، فالغرض مفضوح!

ـ ثم ضحك ضحكة عالية، ولكنه لم يكن سعيدا فى تلك اللحظة، فإن حديث الفتيات يثير فى نفسه اضطرابًا وحزنًا.

ـ لِمَ تقبل الفتيات على كلية الآداب؟

ـ لَأن وظيفة التدريس هى أوسع الوظائف صدرًا لهن. .

فقال حلمى عزت:

ـ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فدراسة الآداب دراسة نسائية، الروج والمانيكور والكحل والشعر والقصص، كلها باب واحد!

فضحكوا جميعًا حتى أحمد، وبقية طلاب الآداب ضحكوا رغم توثبهم للاحتجاج، ثم قال أحمد:

ـ يصدق هذا الحكم الجائر على الطب، فطالما كان التمريض نسائيًا، أما الحق الذى لم يستقر بعد فى نفوسكم فهو الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فقال عبد المنعم باسما:

ـ لا أدرى إن كان مدحًا أم ذمًا أن نقول للنساء إنهن مثلنا؟

ـ إذا تعلق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذم..

فقال عبد المنعم:

ـ لقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا الميراث.

فقال أحمد متهكمًا:

ـ حتى فى الرق ساوى بينهما!

فاحتد عبد المنعم قائلاً:

ـ أنتم لا تعرفون دينكم، هذه هى المأساة!..

والتفت حلمى عزت إلى رضوان ياسين، وسأله باسمًا:

ـ ماذا تعرف عن الإسلام؟

فسأله الآخر بنفس لهجته:

ـ وماذا تعرف أنت عنه؟

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد:

ـ وأنت ماذا تعرف عنه حتى لا تهرف بما لا تعرف؟

فقال أحمد بهدوء:

ـ أعرف أنه دين، وحسبى ذلك، لا أومن بالأديان!..

فتساءل عبد المنعم مستنكرًا:

ـ ألديك برهان على بطلان الأديان؟

ـ ألديك أنت برهان على حقيقتها؟

فقال عبد المنعم وقد ارتفع صوته حتى جعل الشاب الذى يجلس بينه وبين أخيه يردد رأسه بينهما كالمنزعج :

ـ عندى ، وعند كل مؤمن ، ولكن دعنى أسألك أولاً كيف تعيش؟

ـ بإيمانى الخاص ، إيمانى بالعلم والإنسانية وبالغد ، وبما ألتزمه من واجبات ترمى فى النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد .

ـ هدمت كل ما الإنسان إنسان به . .

ـ بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا على قوتها ، ولكن على خطة بعض بنى الإنسان ، ذلك ضد معنى الحياة المتجددة ، ما يصلح لى وأنا طفل يجب أن أغيره وأنا رجل ، طالما كان الإنسان عبداً للطبيعة والإنسان ، وهو يقاوم عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع ، كما يقاوم عبودية الإنسان بالمذاهب التقدمية ، ما عدا ذلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الإنسانية الحرة!

فقال عبد المنعم ، وكان فى تلك اللحظة يكره فكرة أخوة أحمد له :

ـ الإلحاد سهل ، حل سهل هروبى ، هروبى من الواجبات التى يلتزمها المؤمن حيال ربه ونفسه والناس ، وليس من برهان على الإلحاد يمكن أن يعد أقوى من البرهان على الإيمان ، فنحن لا نختار هذا أو ذاك بعقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا . .

وتدخل رضوان قائلاً :

ـ لا تستسلما لعنف المناقشة ، كان من الأفضل لكما كأخوين أن تكونا من حزب واحد . .

وإذا حلمى عزت يندفع قائلاً ، وكان أحيانًا تعتريه نوبات ثائرة غامضة :

ـ إيمان . . إنسانية . . الغد! كلام فارغ ، النظام القائم على العلم وحده ينبغى أن يكون كل شىء ، يجب أن نؤمن بشىء واحد هو

استئصال الضعف البشرى بكافة أنواعه، ومهما بدا علمنا قاسيًا، وذلك للوصول بالبشرية إلى مثال قول نظيف!

ـ أهذه مبادئ الوفد الجديدة بعد المعاهدة!

فضحك حلمى عزت ضحكة عادت به إلى حالته الطبيعية، وقال عنه رضوان:

ـ إنه حقًا وفدى، ولكن تطوف به أحيانًا مذاهب طارئة غريبة فيدعو على القتل بالجملة، وربما دل ذلك على أنه لم ينم أمس نومًا مريحًا!

وكان لشدة الخصام رد فعل فساد الصمت، فسر بذلك رضوان، وسرح بصره فيما حوله فراح يتابع بعض الحدأ المدومة فى السماء، أو يرنو إلى أسراب النخيل، الكل يعلن رأيه حتى ما يتهجم به على الخالق، ولكنه لا يسعه إلا أن يكتم ما يضطرم فى أعماق نفسه، وسيظل سرًا مرعبًا يتهدده، فهو كالمطارد، أو كالغريب، من الذى قسم البشر إلى طبيعى وشاذ؟ وكيف تكون الخصم والحكم فى آن؟ ولم نهزأ كثيرًا بالتعساء؟ قال رضوان مخاطبًا عبد المنعم:

ـ لا تزعل، إن للدين ربا يحميه، أما أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أبا!

حقًا..؟!

فقال أحمد مداعبا أخاه ليمسح عنه آثار الحدة:

ـ أهون على أن أتعرض لغضب الله من أن أتعرض لغضبك!

ثم مضى أحمد يحدث نفسه: غضب أم لم يغضب فسيجد عند عودته إلى السكرية صدرًا حانيًا، أمن المستحيل أن أعود يومًا فأجد علوية صبرى فى الدور الأول بالسكرية؟

وندت عنه ضحكة، ولكن أحدًا لم يخمن السبب الحقيقى لضحكته..

٢١

بدا بيت عبد الرحيم باشا عيسى فى حركة غير مألوفة ، ففى الحديقة وقف أناس كثيرون ، وفى الفراندا جلس آخرون ، وكثر الداخل والخارج ، فلكز حلمى عزت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت ، وقال له بارتياح :

ـ لسنا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم . .

وعندما أخذا يشقان سبيلهما إلى الداخل ، هتف بعض الشبان «يحيا التضامن» فتورد وجه رضوان تأثراً . كان متحمسًا ثائراً مثلهم ، بيد أنه ساءل نفسه فى قلق : ترى ألا يشك أحد فى الجانب غير السياسى من زياراته؟ وقد أفضى مرة بمخاوفه إلى حلمى عزت ، فقال له : «إن الريبة لا تلحق إلا بالخواف! سر مرفوع الرأس ثابت الأقدام ، يجدر بالذين يعدون أنفسهم للحياة العامة ألا يكترثوا لآراء الناس أكثر مما يجب» .

وكان بهو الاستقبال مكتظا بالجالسين ، منهم طلبة وعمال وبعض أعضاء الهيئة الوفدية ، وفى صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى ، متجهما على غير عادته ، جاداً صارمًا ، تكتنفه هالة الرجل السياسى الخطير ، وتقدما إليه فنهض لاستقبالهما فى رزانة ، وصافحهما ثم أشار لهما بالجلوس . وقال أحد الجالسين ، وكان قد توقف عن الحديث أثناء استقبال الشابين :

ـ شد ما فوجئ الرأى العام وهو يطلع على أسماء الوزراء الجدد ، فلا يجد بينهم النقراشى !

فقال عبد الرحيم باشا عيسى :

ـ توقعنا عند الاستقالة أمرًا، خاصة وأن الاختلاف كان قد ذاع حتى تحدثت به المقاهى، ولكن النقراشى ليس كغيره من أعضاء الوفد لقد فصل الوفد من قبله كثيرين فلم تقم لهم قائمة، أما النقراشى فله شأن آخر، ولا تنسوا أن النقراشى معناه أحمد ماهر أيضًا، هما الوفد، الوفد المجاهد المناضل المحارب، سلوا المشانق والسجون والقنابل، وليس الخلاف هذه المرة بالذى يشين الخارج. هى نزاهة الحكم، قضية القنابل، وإذا وقع المحذور وانشق الوفد، فالوفد هو الذى سيخرج لا النقراشى ولا ماهر!..

ـ لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيرًا..

ووقع هذا القول من أذنى رضوان موقعًا غريبًا، فلم يكن مما يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب فى بيئة وفدية صميمة، وإذا بآخر يقول:

ـ مكرم عبيد هو رأس هذا الشر كله يا سعادة الباشا..

فقال عبد الرحيم باشا:

ـ ليس الآخرون أصفارًا..

ـ لكنه هو الذى لا يطيق منافسيه، إنه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك، وإذا خلا له الجو من ماهر والنقراشى فلن يقف فى سبيله شىء..

ـ لو أمكنه إزالة النحاس نفسه لأزاله.

فقال شيخ من الجلوس:

ـ أرجوكم، لا تسرفوا فى القول، قد تعود المياه إلى مجاريها.

ـ بعد أن تألفت الوزارة دون النقراشى؟

ـ كل شىء ممكن..

ـ كان من الممكن هذا على عهد سعد، أما النحاس فرجل عنيد، وهو إذا ركب رأسه . .

وهنا دخل البهو رجل مهرولاً، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعانقا بحرارة والباشا يتساءل :

ـ متى عدت؟ كيف الحال في الإسكندرية؟

ـ عال . . عال، استقبل النقراشي في محطة سيدي جابر استقبالاً شعبيًا منقطع النظير، هتفت له الجماهير المثقفة من الأعماق، الجميع غاضبون، الكل ثائر لنزاهة الحكم، هتفوا : يحيا النقراشي النزيه . . يحيا النقراشي ابن سعد . . وهتف كثيرون يحيا النقراشي زعيم الأمة . .

وكان الرجل يتكلم بصوت مرتفع، فردد هتافه كثيرون حتى اضطر عبد الرحيم باشا أن يلوح لهم داعيا إلى التزام الهدوء. وعاد الرجل يقول :

ـ الرأي العام ساخط على الوزارة، غاضب لإخراج النقراشي منها، لقد خسر النحاس خسارة لا تعوض، وارتضى أن يؤيد الشيطان ضد الملاك الطاهر . .

وهنا قال عبد الرحيم باشا :

ـ نحن الان في أغسطس، وفي أكتوبر تفتح الجامعة، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة، يجب أن نستعد منذ الآن للمظاهرات فإما أن يثوب النحاس إلى رشده، وإما فليذهب إلى الهاوية . .

فقال حلمي عزت :

ـ أستطيع أن أؤكد أن مظاهرات الجامعيين ستتدفق على بيت النقراشي . .

فقال عبد الرحيم باشا :

ـ كل شيء يحتاج إلى التنظيم، اجتمعوا بأنصارنا من الطلبة وأعدوا

العدة، وفضلاً عن هذا فإن الأخبار التى عندى تؤكد أن كثرة لا تصدق من النواب والشيوخ سينضمون إلينا . .

ـ النقراشى هو خالق لجان الوفد، لا تنسوا ذلك، إن تلغرافات الولاء تتسابق إلى مكتبه صباح مساء . .

وتساءل رضوان ماذا يحدث فى الدنيا؟ ترى أينقسم الوفد مرة أخرى؟ وهل يتحمل مسئولية ذلك حقًا مكرم عبيد؟، وهل تتفق مصلحة الوطن وانقسام الحزب الذى نهض برسالته ثمانية عشر عامًا؟ وطال الأخذ والرد، وبحث المجتمعون اقتراحات شتى خاصة بالدعاية وتدبير المظاهرات، ثم أخذوا فى الانصراف حتى لم يبق فى البهو إلا الباشا ورضوان وحلمى عزت، وعند ذاك دعاهما للجلوس فى الفراندا، فمضيا وراءه، وجلس ثلاثتهم حول منضدة، وسرعان ما حملت إليهم أقداح الليمون، وما لبث أن تراءى عند الباب رجل فى الأربعين، عرفه رضوان فى بعض زياراته السابقة، يدعى على مهران، يعمل وكيلا للباشا، وكان منظره يوحى بما طبع عليه من ميل للمزاح والمجون، وكان يصحب معه شابًا فى العشرين من عمره، جميل المحيا، يبدو من منظر شعره الهائج وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنه من أهل الفن وقد أقبل على مهران باسم الثغر فقبل يد الباشا، وصافح الشابين، ثم قدم الشاب قائلاً :

ـ الأستاذ عطية جودت، مغنى ناشئ لكنه موهوب، وقد سبق أن حدثتك عنه يا معالى الباشا!

فلبس الباشا نظارته التى كان وضعها على المنضدة، وتفحص الشاب بعناية، ثم قال باسمًا :

ـ أهلاً وسهلاً ياسى عطية، سمعت عنك كثيراً، فلعلنا نسمعك هذه المرة . .

فدعا للباشا باسما، ثم جلس، على حين مال على مهران على الباشا وهو يقول:

ـ كيف حال عمى؟

هكذا كان يخاطب الباشا إذا زالت دواعى الكلفة، وأجابه الرجل باسمًا:

ـ أحسن منك ألف مرة!.

فقال على مهران جادا على خلاف عادته:

ـ يتهامسون فى بار الأنجلو عن وزارة قومية قريبة برياسة النقراشى!..

فابتسم الباشا ابتسامة سياسية وتمتم:

ـ لسنا من المستوزرين!..

وتساءل رضوان باهتمام وقلق:

ـ على أى أساس؟ طبعًا لا أستطيع أن أتصور أن يقوم النقراشى بانقلاب سياسى كمحمد محمود أو إسماعيل صدقى؟!

فقال على مهران:

ـ انقلاب! كلا، المسألة تنحصر الآن فى إقناع أكثرية الشيوخ والنواب بالانضمام إلينا، ولا تنس أن الملك معنا، فعلى ما هر يعمل بحكمة وأناة!

وعاد رضوان يتساءل فى كآبة:

ـ أنكون فى النهاية من رجال السراى؟

فقال عبد الرحيم باشا:

ـ العبارة واحدة، ولكن المعنى تغير، فاروق غير فؤاد، والظروف غير الظروف، الملك شاب وطنى متحمس، وهو مجنى عليه أمام هجمات النحاس الجائرة!

ففرك على مهران يديه فى حبور وهو يقول :

ـ ترى متى نهنىء الباشا بالوزارة؟ وهل تختارنى وكيلاً لوزارتك كما اخترتنى وكيلاً لأعمالك؟

فقال الباشا ضاحكًا :

ـ بل أعينك مديرًا عامًا للسجون ، إن مكانك الطبيعى هو السجن .

ـ السجن؟ لكنهم يقولون إن السجن للجدعان؟!

ـ ولغيرهم ، فليطمئن بالك!

ثم ركبه الضجر فجأة فهتف :

ـ حسبنا سياسة ، غيروا الجو من فضلكم!

والتفت نحو الأستاذ عطية متسائلاً :

ـ ماذا تسمعنا؟

فأجاب عنه على مهران :

ـ الباشا سميع وابن حظ ، وإذا رقت فى نظره تفتحت لك أبواب الإذاعة . .

فقال عطية جودت برقة :

ـ لحنت أخيرًا أغنية «شبكونى وشبكوه» وهى من تأليف الأستاذ مهران! فرمق الباشا وكيله ، وسأله :

ـ منذ متى تؤلف أغانى؟

ـ ألم أجاور فى الأزهر سبع سنوات ، غرقت فيها فى مفاعيل وفعلاتن؟

ـ وما للأزهر وأغانيك الخليعة؟ شبكونى وشبكوه! من هو يا حضرة المجاور؟

ـ المعنى يا معالى الباشا فى ذقن الباشا! . .

ـ يا ابن الهرمة! . .

ونادى على مهران السفرجى، فسأله الباشا :

ـ لماذا تناديه؟

ـ ليهيئ لنامجلس الطرب! . .

فقال الرجل وهو ينهض :

ـ انتظر حتى أصلى العشاء! . .

فتساءل مهران باسمًا فى خبث :

ـ ألم ينقض سلامنا وضوءك؟!

٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته، ناقلاً خطاه على مهل، متوكئا على عصاه، لم يعد اليوم كالأمس، فمنذ أن صفى دكانه لم يكن ليغادر بيته إلا مرة واحدة فى اليوم، كى يعفى نفسه ما استطاع من الجهد الذى يتحمله قلبه عند ارتقاء السلم. ومع أن الوقت لم يعد سبتمبر إلا أنه رأى أن يرتدى الملابس الصوفية، إذ أن الجسم النحيل لم يعد يطيق الجو اللطيف الذى كان يمرح فيه الجسم البدين القوى الذى كان. والعصا التى صاحبته منذ الصغر رمزًا للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكأة فى مشيته المتمهلة، التى لا يطيقها قلبه إلا بجهد ومشقة، ولكن بقى له رونقه وأناقته، فما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة، ويتطيب بالعطر الفواح متمتعًا بجمال الشيخوخة ووقارها، وعندما اقترب من الدكان مالت نحوه عيناه بحركة لا إرادية. رفعت اللافتة التى حملت اسمه واسم أبيه أعوامًا وأعوامًا، وتغير مظهر الدكان ومخبره، فانقلب

دكان طرابيش للبيع والكى، وتقدمه الوابور والقوالب النحاسية، وتخايلت لعينيه لافتة وهمية، لم ترها عين سواه، عالنته بأن زمانه قد ولى، زمان الجد والكفاح والمسرات، وها هو فى ركن المعاش ينزوى، يستدبر دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيخوخة والمرض والانتظار، وتقبض القلب الذى طالما ـ وما زال ـ يهيم بحب الدنيا وأفراحها، حتى إن الإيمان نفسه لم يكن فى نظره إلا مسرة من مسراتها ودافعًا إلى أحضانها، فلم يعرف ـ حتى اليوم ـ العبادة الزاهدة التى تدير الظهر للدنيا وتتطلع إلى الآخرة وحدها. لم يعد الدكان دكانه ولكن كيف تمحى ذكراه من ذهنه وهو الذى كان مركز النشاط، ومحط الأنظار، وملتقى الأصحاب والأحباب، ومبعث العزة والجاه؟ «ولك أن تعزى نفسك فتقول: زوجنا البنات، وربينا الصبيان، ورأينا الأحفاد، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت، وذقنا حلو الدنيا سنين ـ سنين حقًا؟ ـ وآن لنا أن نشكر، والشكر لله واجب، دائمًا أبدا، ولكن آه من الحنين، وسامح الله الزمن، الزمن الذى مجرد حياته ـ حياته التى لا تتوقف لحظة ـ خيانة وأى خيانة للإنسان. لو أن الأحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحدثنى عن الماضى، لتخبرنى أحقًا كان هذا الجسم يهد الجبال؟ وهذا القلب المريض لا يكف عن الخفقان؟ وهذا الثغر لا يمسك عن الضحك؟ وهذا الشعور لا يعرف الألم؟ وهذه الصورة معلقة فى كل قلب؟ ومرة أخرى سامح الله الزمن!».

وعندما انتهى به المسير الوئيد إلى جامع الحسين، خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة، ومضى إلى المنبر حيث وجد فى انتظاره محمد عفت وإبراهيم الفار فصلوا المغرب جميعًا، ثم غادروا المسجد متجهين نحو الطمبكشية لزيارة على عبد الرحيم، كان ثلاثتهم قد اعتزلوا العمل ليتفرغوا لمقاومة الأمراض، غير انهم كانوا أحسن حالاً من على

عبد الرحيم الذى لم يعد بوسعه أن يفارق الفراش، وقال السيد أحمد متنهدًا:

- يخيل إلى أنى عما قريب لن أستطيع الذهاب إلى الجامع إلا راكبًا..

- الحال من بعضه..

فعاد الرجل يقول فى قلق:

- شد ما أخاف أن أضطر إلى ملازمة الفراش كالسيد على، وإنى أدعو الله أن يكرمنى بالموت قبل أن يدركنى العجز..

- ربنا يكفيك ويكفينا كل سوء..

فبدا كالخائف وهو يقول:

- غنيم حميدو لبث مشلولا فى الفراش زهاء العام، وصادق الماوردى عانى العذاب شهوراً، فاللهم أكرمنا بالنهاية السريعة إذا حم القضاء.

فضحك محمد عفت قائلاً:

- إذا غلبتك الأفكار السوداء انقلبت امرأة، وحد الله يا أخى!..

ولما بلغوا بيت على عبد الرحيم أدخلوا إلى حجرته، فبادرهم يقول فى جزع:

- تأخرتم عن ميعادكم، سامحكم الله..

بان ضجر الرقاد فى عينيه، فلم يعد يعرف الابتسام إلا ساعة اجتماعه بهم، وجعل يقول:

- لا عمل لى طول اليوم إلا الاستماع إلى الراديو، ماذا كنت أصنع لو تأخر استعماله فى مصر حتى اليوم! كل ما يذيعه يطيب لى حتى المحاضرات التى لا أكاد أفهمها، ومع ذلك فلم نكبر إلى الحد الذى

يستوجب هذا العذاب، أجدادنا كانوا يتزوجون فى مثل أعمارنا! . .

فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد، فقال:

ـ فكرة! . ما رأيكم فى أن نتزوج من جديد، لعل ذلك يجدد شبابنا وينفض عنا الأمراض؟!

فابتسم على عبد الرحيم ـ كان يتجنب الضحك أن تدركه نوبة السعال فتؤذى قلبه ـ وقال:

ـ معكم!، اختاروا لى عروسًا، ولكن صارحوها بأن العريس لا يستطيع الحركة، وعليها الباقى . .

وهنا خاطبه الفار وكأنما تذكر أمرًا فجأة:

ـ أحمد عبد الجواد سيسبقك إلى رؤية وليد حفيدته، ربنا يمد فى عمره!

ـ مبارك مقدمًا يا بن عبد الجواد! . .

ولكن السيد أحمد تجهم قائلاً:

ـ نعيمة حبلى حقًا ولكنى غير مطمئن، ما زلت أذكر ما قيل عن قلبها يوم مولدها، طالما حاولت أن أنسى ذلك عبثًا . .

ـ يا لك من رجل جاحد! منذ متى تؤمن بنبوءات الأطباء؟ . .

فضحك السيد أحمد قائلاً:

ـ منذ باتت اللقمة التى أتناولها على غير مشورتهم تؤرقنى حتى مطلع الفجر . .

فتساءل على عبد الرحيم:

ـ ورحمة ربنا؟!: . .

الحمد لله رب العالمين.

ثم مستدركًا :

ـ لست بالغافل عن رحمة الله ، ولكن الخوف يبعث على الخوف ، والحق فإن نعيمة لا تهمنى بقدر ما تهمنى عائشة يا على ، عائشة هى مركز القلق فى حياتى ، التعيسة المسكينة ، سأتركها إذا تركتها وحيدة فى هذه الدنيا . .

فقال إبراهيم الفار :

ـ ربنا موجود ، وهو الراعى الأكبر . .

وساد الصمت مليًا ، حتى قطعه صوت على عبد الرحيم قائلاً :

ـ وسيأتى دورى بعدك فى رؤية وليد حفيدتى . .

فضحك السيد أحمد قائلاً :

ـ سامح الله البنات ، فإنهن يكبرن أهلهن قبل الأوان .

فهتف محمد عفت :

ـ يا عجوز ! اعترف بالكبر وكفاك مكابرة . .

ـ لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبى فيسوق العوج ، أصبح قلبى كالطفل المدلل . .

فقال إبراهيم الفار وهو يهز رأسه أسفًا :

ـ يا له من عام ذلك العام الماضى ، كان علينا شديداً ، فما ترك واحدا منا سليما كأننا كنا على ميعاد !

ـ على رأى عبد الوهاب : لنعيش سوا لنموت سوا . .

فضحكوا معًا ، وإذا بعلى عبد الرحيم يغير لهجته ويتساءل جاداً :

ـ أهذا يصح ؟ أعنى ما فعله النقراشى ؟

فتجهم وجه أحمد عبد الجواد وقال :

ـ كم أملنا أن تعود المياه إلى مجاريها ، أستغفر الله العظيم . .

ـ أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباء!

ـ فى هذا الزمن كل جميل يضيع هباء . .

وعاد أحمد عبد الجواد يقول:

ـ لم أحزن لشىء كما حزنت لخروج النقراشى، ما كان ينبغى أن يذهب به الخصام إلى هذا الحد . .

ـ ترى ما هى النهاية التى تنتظره؟ .

ـ النهاية المحتومة، أين الباسل والشمسى؟ لقد قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ فى رجليه أحمد ماهر .

وهنا قال محمد عفت متنرفزا:

ـ دعونا من هذه السيرة! أنا أكاد أطلق السياسة!

وخطر للفار خاطر، فتساءل باسمًا:

ـ لو اضطررنا ـ لا سمح الله ـ على ملازمة الفراش كالسيد على، فكيف نتقابل ونتحادث؟

فتمتم محمد عفت:

ـ فال الله ولا فالك . .

فضحك أحمد عبد الجواد وقال:

ـ لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو، كما يخاطب باب «سخام» الأطفال! . .

وضحكوا جميعًا، وأخرج محمد عفت ساعته ونظر فيها، ولكن على عبد الرحيم جزع وقال:

ـ ستبقون معى حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا يقول، ملعون أبوه، ابو أيامه . .

٢٣

كانت الغورية تغلق أبوابها، فقلت السابلة واشتدت البرودة، وكان الزمن فى أواسط ديسمبر، ولكن الشتاء جاء متعجلاً هذا العام. ولم يكن كمال قد وجد صعوبة فى جذب رياض قلدس إلى حى الحسين، أجل كان الشاب غريبًا عن الحى، ولكنه وجد من نفسه شوقًا للتقلب فى أنحائه، والجلوس فى مقاهيه. وكان قد مضى على تعارفهما فى مجلة الفكر أكثر من عام ونصف عام، لم يمر أسبوع خلاله دون أن يتقابلا مرة أو مرتين، بخلاف العطلة التى تجمع بينهما كل مساء على وجه التقريب فى مجلة الفكر، أو بيت بين القصرين، أو بيت رياض بمنشية البكرى، أو مقاهى عماد الدين، أو قهوة الحسين الكبرى التى لجأ إليها كمال بعد أن أتت المعاول على قهوة أحمد عبده التاريخية فمحتها من الوجود إلى الأبد. كانا سعيدين بصداقتهما، وقد قال كمال نفسه مرة «جعلت أفتقد حسين شداد أعوامًا، وظل مكانه شاغراً، حتى ملأه رياض قلدس» ففى محضره تستيقظ روحه وتستشعر ذلك الإنبثاق الذى يبلغ نشوته فى عناق الفكر المتبادل، هذا على الرغم من أنهما لم يكونا شيئًا واحدًا، وإن كانا متكاملين فيما بدا وظلت صداقتهما شعوراً متبادلاً فى صمت، لم ينوها به، فلم يقل أحدهما للآخر «أنت الصديق» ولا قال له «لا أتصور الحياة بدونك» ولكن كان ذلك كذلك، وعلى برودة الجو لم تفتر رغبتهما فى السير، فقررا أن يسيرا على الأقدام حتى قهوة عماد الدين. ولم يكن رياض قلدس سعيداً ذلك المساء، كان يقول بانفعال شديد:

- انتهت الأزمة الدستورية بهزيمة الشعب، فليست إقالة النحاس إلا هزيمة للشعب فى نضاله التاريخى مع السراى . .

فقال كمال فى أسف :

- ثبت الآن أن فاروق كأبيه .

- فاروق ليس المسئول وحده، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون، فهذه يد على ماهر ومحمد محمود، ومن المبكى أن ينضم إلى أعداء الشعب اثنان من أبنائه، ماهر والنقراشى، ولو تطهر الوطن من الخونة لما وجد الملك من يمكنه من هضم حقوق الشعب . .

ثم استطرد بعد صمت قليل :

- ليس الإنجليز اليوم فى الميدان، ولكن الشعب والملك وجها لوجه، والاستقلال ليس كل شىء، هنالك حق الشعب المقدس فى أن يتمتع بسيادته وحقوقه، ليحيا حياة الإنسان لا حياة العبيد . .

لم يكن كمال غارقًا فى السياسة كرياض، أجل لم يستطع الشك أن يدمرها فيما دمر فلبثت حية فى عواطفه، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدرى أين المفر . عقله يقول حينا «حقوق الإنسان» وحينا آخر يقول «بل البقاء للأصلح وما الجماهير إلا قطيع» وربما قال «والشيوعية أليست تجربة جديرة بالاختبار؟» . أما قلبه فلم يتخلص من عواطفه الشعبية التى صاحبته منذ صباه ممتزجة بذكرى فهمى، أما رياض فكانت السياسة جوهرًا أصيلاً فى نشاطه الذهنى .

وعاد رياض يقول :

- أيمكن أن ننسى الإهانة التى تلقاها مكرم فى ميدان عابدين؟ وهذه الإقالة المجرمة، سب وقذف وبصقة فى وجه الأمة؟ والحقد الأعمى يجعل البعض يهللون، واحسرتاه . .

فقال كمال مداعبًا :

ـ أنت غاضب لمكرم!

فقال رياض دون تردد :

ـ إن الأقباط جميعًا وفديون، ذلك أن الوفد حزب القومية الخالصة، ليس حزبا دينيا تركيا كالحزب الوطنى، ولكنه حزب القومية التى تجعل مصر وطنًا حرًا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذلك، ولذلك كان الأقباط هدفًا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقى، وسيعانون ذلك منذ اليوم . .

ورحب كمال بهذه الصراحة التى تشهد لصداقتهما بالكمال، غير أنه راق له أن يتساءل فى دعابة :

ـ ها أنت تتحدث عن الأقباط! أنت الذى لا يؤمن إلا بالعلم والفن! . .

فلاذ رياض بالصمت. وكانا قد بلغا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد فى شىء من العنف. ثم مرا فى طريقهما بدكان بسبوسة فدعاه كمال إلى تناول شىء منها، وما لبث أن أخذ كل منهما طبقًا صغيراً وانتحيا ناحية يأكلان، وعند ذلك قال رياض :

ـ إنى حر وقبطى فى آن، بل إنى لا دينى وقبطى معًا، أشعر فى أحايين كثيرة بأن المسيحية وطنى لادينى، وربما إذا عرضت هذا الشعور على عقلى اضطربت. ولكن مهلاً، أليس من الجبن أن أنسى قومى؟ شىء واحد خليق بأن ينسينى هذا التنازع، ألا وهو الفناء فى القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول، إن النحاس مسلم دينا، ولكنه قومى بكل معنى الكلمة أيضًا، فلا نشعر حياله إلا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطى، بوسعى أن أعيش سعيداً دون أن أكدر صفوى بهذه الأفكار، ولكن الحياة الحقة مسئولية فى الوقت نفسه.

كان كمال يتمطق ويفكر وصدره يجيش بالعواطف، كانت سحنة رياض المصرية الصميمة التى تذكره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى فى نفسه. «إن موقف رياض له وجاهته التى لا تجحد، وأنا نفسى ـ بين عقلى وقلبى ـ شخص يعانى انقسام الشخصية، فكذلك هو، كيف يتأتى لأقلية أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها؟ وجدارة الرسالات السامية تقاس عادة بما تحققه من سعادة للبشر تتمثل أول ما تتمثل فى الأخذ بيد المضطهدين» قال:

ـ لا تؤاخذنى، فقد عشت حتى الآن دون أن أصطدم بمشكلة العنصرية، فمنذ البدء لقنتنى أمى أن أحب الجميع، ثم شببت فى جو الثورة المطهر من شوائب التعصب، فلم أعرف هذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير:

ـ المرجو ألا تكون ثمة مشكلة على الإطلاق، يؤسفنى أن أصارحك بأننا نشأنا فى بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة، لست متعصبًا، ولكن من يستهين بحق إنسان فى أقصى الأرض ـ لا فى بيته ـ فقد استهان بحقوق الإنسانية جميعًا..

ـ جميل هذا القول، لا عجب أن رسالات الإنسانية الحقة كثيرًا ما تنبعث من أوساط الأقلية، أو من رجال مشغولى الضمائر بالأقليات البشرية، ولكن ثمة متعصبين دائمًا..

ـ دائمًا وفى كل مكان، الإنسان حديث والحيوان قديم، وهم عندكم يعتبروننا كفارا ملاعين، وهم عندنا يعتبرونكم كفارا مغتصبين، ويقولون عن أنفسهم أنهم سلالة من ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية..

فضحك كمال ضحكة عالية، وقال:

ـ هذا قولنا وذاك قولكم، ترى الأصل فى هذا الخلاف الدين أم

الطبيعة البشرية المتطلعة أبدًا إلى الخصام؟! لا المسلمون على وفاق، ولا المسيحيون على وفاق، وستجد نزاعًا مستمرًا بين الشيعي والسني، وبين الحجازي والعراقي، كالذي بين الوفدي والدستوري، وطالب الآداب وطالب العلوم، والنادي الأهلي والترسانة، ولكن رغم ذلك كله فشد ما نحزن إذا ما طالعنا في الصحف خبر زلزال باليابان! اسمع، لماذا لا تعالج ذلك في قصصك؟

ـ مشكلة الأقباط والمسلمين. .

فصمت رياض قلدس مليا، ثم قال:

ـ أخاف سوء الفهم. .

ثم مستطردا بعد فترة صمت أخرى:

ـ ثم لا تنسى أننا رغم كل شيء في عصرنا الذهبي، كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح في الماضي أن يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم. .

ـ وكيف نستأصل هذه المشكلة من جذورها؟

ـ من حسن الحظ أنها ذابت في مشكلة الشعب كله، مشكلة الأقباط اليوم هي مشكلة الشعب، إذا اضطهد اضطهدنا وإذا تحرر تحررنا. .

«السعادة والسلام. . ذلك الحلم المنشود، قلبك يحيا بالحب وحده، فمتى يعرف عقلي سبيله؟ متى أقول بلهجة ابن أختي عبد المنعم «نعم. نعم»، إن صداقتي لرياض علمتني كيف أقرأ قصصه، ولكن كيف أومن بالفن، في الوقت الذي وجدت الفلسفة نفسها قصورًا غير صالحة للسكنى؟».

وسأله رياض فجأة، وهو يسترق إليه النظر:

ـ فيم تفكر الآن؟ . . أصدقنى!
وفطن إلى ما وراء سؤاله، فأجابه بصراحة:
ـ كنت أفكر فى قصصك.
ـ ألم تتألم لصراحتى؟
ـ أنا، سامحك الله . .
فضحك كالمعتذر، ثم سأل:
ـ أقرأت قصتى الأخيرة؟
ـ نعم، وهى لطيفة، ولكن يخيل إلى أن الفن نشاط غير جدى، مع ملاحظة أيهما أخطر فى حياة الإنسانية: الجد أم اللهو؟! أنت مثقف ثقافة علمية عالية، ولعلك أدرى «غير العلماء» بالعلم، ولكن نشاطك كله يضيع فى كتابة القصص وإنى لأتساءل أحيانًا: ماذا أفدت من العلم؟
فقال رياض قلدس فى حماسة:
ـ أخذت من العلم للفن عبادة الحقيقة، والإخلاص لها، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة، والنزاهة فى الحكم والتسامح الشامل مع المخلوقات . .
كلمات ضخمة، ولكن ما علاقتها بملهاة القصص؟ ونظر رياض قلدس إليه، فقرأ الشك فى وجهه. فضحك عاليًا ثم قال:
ـ أنت تسىء الظن بالفن، ولكن عزائى أن شيئًا فى الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك، نحن نرى بعقولنا ولكننا نعيش بقلوبنا، أنت مثلاًـ رغم موقفك الشكى ـ تحب وتتعامل وتشارك مشاركة ما فى حياة بلدك السياسية، ووراء كل ناحية من هذه النواحى مبدأ شعورى أو لا شعورى لا يقل عن الإيمان قوة، الفن هو المعبر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء من أسهم بفنه فى معركة

الآراء العالمية، فانقلب الفن على يديه عدة من عدد الكفاح فى ميدان الجهاد العالمى، لا يمكن أن يكون الفن نشاطا غير جدى..

دفاع عن الفن أم عن قيمة الفنان؟ لو أن لبائع اللب قدرة على الجدل لدلل أنه يلعب دوراً خطيراً فى حياة البشر، ولا يبعد أن يكون لكل شىء قيمة ذاتية، ولا يبعد كذلك ألا يكون لشىء قيمة ألبتة، كم مليونا من البشر يلفظون أنفاسهم فى هذه اللحظة؟! فى الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقد لعبة، أو صوت عاشق يبث الليل والكون متاعب قلبه، أأضحك أم أبكى؟ قال:

- لمناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالمية، دعنى أخبرك بأنها تنعكس على صورة مصغرة فى أسرتنا، لى ابن أخت من الإخوان، والآخر من الشيوعيين!

- ينبغى أن يكون لها صورة فى كل بيت، عاجلاً أو آجلاً، لم نعد نعيش فى قمقم، وأنت ألم تفكر فى هذه الأمور؟

- قرأت عن الشيوعية ضمن دراستى للفلسفة المادية، كما قرأت كتبًا عن الفاشستية والنازية..

- تقرأ وتفهم، مؤرخ بلا تاريخ، أرجو أن تعد يوم خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد.

فاستاء كمال لهذه الملاحظة، لأنها نقد لاذع من ناحية، ولأنها لا تخلو من حق من ناحية أخرى، ثم قال متهربًا من التعقيب عليها:

- كل من الشيوعى والإخوانى فى أسرتنا على غير علم مكين بما يؤمن به!

- الإيمان إرادة لا علم، إن أتفه مسيحى اليوم يعرف عن المسيحية أضعاف ما عرف الشهداء، كذلك عندكم فى الإسلام..

- وهل تؤمن بمذهب من هذه المذاهب؟

ـ لا شك فى احتقارى للفاشية والنازية وكافة النظم الديكتاتورية، أما الشيوعية فخليقة بأن تخلق عالمًا خالياً من مآسى الخلافات العنصرية الدينية والمنازعات الطبقية، بيد أن الاهتمام الأول مركز فى فنى . .

فقال كمال وكان فى صوته دعابة :

ـ ولكن الإسلام قد خلق هذا العالم الذى تتحدث عنه منذ أكثر من ألف عام . .

ـ لكنه دين، الشيوعية علم أم الدين فأسطورة . .

ثم مستدركًا وهو يبتسم :

ـ ونحن نتعامل مع المسلمين لا الإسلام . .

وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدة البرودة، فتوقف رياض فجأة وهو يتساءل :

ـ ما رأيك فى عشاء من المكرونة والنبيذ الجيد؟

ـ لا أشرب فى الأماكن المأهولة، فلنذهب إلى قهوة عكاشة إذا شئت . . فضحك رياض قلدس قائلاً :

ـ كيف تطيق هذا الوقار كله؟ نظارة وشارب وتقاليد! حررت عقلك من كل قيد، أما جسمك فكله قيود، أنت خلقت ـ بجسمك على الأقل ـ لتكون مدرسًا . .

وذكره تنويه رياض بجسمه بحادثة أليمة، فقد اشترك فى حفل ميلاد أحد زملائه، وشربوا جميعًا حتى سكروا، وهناك حمل أحدهم عليه معرضًا برأسه وأنفه حتى أضحك الجميع . وإذ ذكر أنفه أو رأسه فقد ذكر عايدة، وتلك الأيام، عايدة خالقة أنفه ورأسه، ومن عجب أن يغيض الحب فيمسى لا شىء، ثم تبقى هذه الرواسب المؤلمة . .

وجذب رياض من ذراعه وهو يقول :

- هلم نشرب نبيذا ونتحدث عن فن القصة ، ثم نذهب بعد ذلك إلى بيت الست جليلة بعطفة الجوهرى ، وإذا كنت تقول لها يا عمتى ، فسأقول لها يا خالتى . .

٢٤

كانت السكرية فى شأن ، أو بمعنى أصح هكذا كانت شقة عبد المنعم شوكت ، ففى حجرة النوم اجتمعت حول فراش نعيمة أمينة وخديجة وعائشة وزنوبة والحكيمة والمولدة ، أما فى حجرة الاستقبال فقد جلس مع عبد المنعم والده إبراهيم وأخوه أحمد وياسين وكمال ، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلاً :

- اعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة فى غير هذا الوقت الذى تستعد فيه للامتحان . .

كانوا فى أواخر إبريل ، وكان عبد المنعم متعبًا بقدر ما كان مبتهجًا ، بقدر ما كان قلقا . وكان صوت الطلق يترامى من وراء الباب المغلق حادًا يحمل كل معانى الألم ، فقال عبد المنعم :

- إن الحمل أتعبها جدًا ، وبلغ بها درجة من الضعف لا يتصورها عقل ، وكأن وجهها لم تعد به نقطة دم واحدة . .

فتجشأ ياسين فى ارتياح ، ثم قال :

- هذه أمور عادية ، وكلهن سواء . .

وقال كمال باسما :

- ما زلت أذكر ولادة نعيمة ، كانت ولادة عسيرة عانت منها عائشة

ما عانت، وكنت متألمًا، وكنت واقفًا فى هذا المكان مع المرحوم خليل.

فتساءل عبد المنعم:

- هل أفهم من هذا أن عسر الولادة وراثى؟

فقال ياسين وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

- عنده اليسر..

فقال عبد المنعم:

- جئنا بحكيمة معروفة فى الحى كله، كانت أمى تفضل إحضار الداية التى ولدتها، ولكنى أصررت على الحكيمة، فهى أنظف وأمهر بلا ريب.

فقال ياسين:

- طبعًا، ولو أن الولادة بجملتها بأمر الله وعنياته.

فقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

- جاءها الطلق فى الصباح الباكر، والساعة تدور الآن فى الخامسة مساء، مسكينة، إنها رقيقة كالخيال، ربنا يأخذ بيدها.

ثم وهو يردد عينيه الخاملتين فى الجالسين عامة، وابنيه عبد المنعم وأحمد خاصة:

- آه لو تذكر الآلام التى تتحملها الأم!

فقال أحمد ضاحكًا:

- كيف تطالب الجنين بأن يتذكر يا بابا؟

فقال الرجل موبخًا:

- إذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على الذاكرة وحدها..

وانقطع الطلق، وخيم على الحجرة المغلقة السكون فاتجهت الرءوس

إليها، ومرت فترة فنفد صبر عبد المنعم فقام ماضيا إلى الباب ونقره، ففتح ربع فتحة عن وجه خديجة المكتنز، فطالعها بعينين متسائلتين، وهم بإدخال رأسه، ولكنها صدته براحتيها وهى تقول:

- لم يأذن الله بالفرج بعد..

- طال الوقت، ألا يكون طلقًا كاذبًا؟

- الحكيمة أدرى بذلك منا، اطمئن وادع لنا بالفرج.

وأغلقت الباب، فعاد الشاب إلى مجلسه بجوار أبيه الذى علق على قلقه بقوله:

- اعذروه فإنه محدث ولادة.

وأراد كمال أن يتسلى، فأخرج من جيبه جريدة البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يتفحصها، فقال أحمد:

- أعلنت فى الراديو النتائج الأخيرة للمعركة الانتخابية.. (ثم وهو يبتسم فى سخرية).. ويا لها من نتائج مضحكة!..

فتساءل والده دون اكتراث:

- ما مجموع الناجحين من الوفديين؟

- ثلاثة عشر على ما أذكر!

ثم قال أحمد موجها خطابه إلى خاله ياسين:

- لعلك مسرور يا خالى إكرامًا لسرور رضوان؟!

فقال ياسين وهو يهز منكبيه باستهانة:

- لا هو وزير ولا هو نائب، فماذا يهمنى من الأمر كله؟

وقال إبراهيم شوكت ضاحكًا:

- كان الوفديون يظنون أن عهد الانتخابات المزورة قد انتهى، ولكن شهاب الدين اظرط من أخيه!..

فقال أحمد فى امتعاض :

ـ الظاهر أن الاستثناء هو القاعدة فى مصر !

ـ حتى النحاس ومكرم قد سقطا فى الانتخابات ، أليس هذا هزلاً ؟

وهنا قال إبراهيم شوكت فى شىء من الحدة :

ـ لكن لا ينكر أحد أنهما أساءا الأدب حيال الملك ، إن للملوك مقامهم ، وليس على ذلك النحو تساس الأمور . .

فقال أحمد :

ـ إن بلادنا فى حاجة إلى جرعات قوية من قلة الأدب حيال الملوك ، حتى تفيق من إغمائها الطويل . .

فقال كمال :

ـ ولكن الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق ، تحت ستار برلمان مزيف ، وفى نهاية التجربة ستجد فاروق فى قوة فؤاد واستبداده أو أشد ، كل هذا يرتكب بأيدى بعض أبناء الوطن . .

فضحك ياسين ، وقال وكأنه يفسر ويوضح :

ـ كمال ولو أنه كان على صباه من محبى الإنجليز كشاهين وعدلى وثروت وحيدر ، إلا أنه انقلب وفديا بعد ذلك . .

فقال كمال جاداً ، وهو ينظر إلى أحمد خاصة :

ـ انتخابات مزورة ، كل شخص فى البلد يعلم بأنها مزورة ، ومع ذلك يعترف بها رسميًا وتحكم بها البلاد ، ويعنى هذا أن يستقر فى ضمير الشعب أن نوابه لصوص سرقوا كراسيهم ، وأن وزراءه لصوص سرقوا بالتالى مناصبهم ، وأن سلطاته وحكومته مزيفة مزورة ، وأن السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميًا ، أفلا يعذر الرجل العادى إذا كفر بالمبادئ والخلق وآمن بالزيف والانتهازية ؟

فقال أحمد متحمسًا :

ـ دعهم يحكمون، فى كل شر جانب خير، ومن الأفضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يخدر بحكم يحبه ويثق به دون أن يحقق له ـ هذا الحكم ـ آماله الحقيقية، طالما فكرت فى هذا حتى انقلبت أرحب بحكم الطغاة من أمثال محمد محمود وإسماعيل صدقى . .

ولاحظ كمال أن عبد المنعم لا يشترك فى الحديث كعادته، فأراد أن يجره إليه فقال :

ـ لماذا لا تحدثنا عن رأيك؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها، وقال :

ـ دعنى اليوم أستمع . .

فضحك ياسين قائلاً :

ـ فرفش حتى لا يجدك المولود واجما، فيفكر فى العودة من حيث أتى . .

وندت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنه يهم بانتحال عذر للذهاب، أجل جاء وقت القهوة، ونظام «السهر» عنده لا يمكن أن يغيره شيء، وفكر كمال فى الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده، وجعل يراقبه متوثبًا، وإذا بصرخة تنطلق من حجرة نعيمة عنيفة قاسية تحمل فى طياتها أنغام الأعماق البشرية، وتتابعت الصرخات فى عنف، وتطلعت الأعين نحو باب الحجرة، وساد بينهم صمت، حتى همس إبراهيم فى رجاء :

ـ لعله الطلق الأخير إن شاء الله . .

حقًا؟ بيد أنه تواصل حتى وجموا، وامتقع لون عبد المنعم، ثم عاد الصمت مرة أخرى ولكن إلى حين، ورجع الطلق ولكنه كان خواء،

تقذف به حنجرة بحت وصدر تصدع فكأنه النزع. ودلت حال عبد المنعم على أنه فى حاجة إلى تشجيع، فقال له ياسين:

- كل ما تسمع أحوال مألوفة فى الولادة العسيرة..

فقال عبد المنعم بصوت متهدج:

- العسيرة! العسيرة! ولكن لماذا كانت عسيرة؟..

وفتح الباب فخرجت زنوبة ثم أغلقته، فتطلعوا إليها، فاقتربت حتى وقفت أمام ياسين وقالت:

- كل شيء على ما يرام، غير أن الحكيمة زيادة فى الحيطة ترجو أن تحضروا الدكتور سيد محمد..

فوقف عبد المنعم قائلاً:

- لا شك أن الحال استوجبت إحضاره، خبرينى عما بها؟

فقالت زنوبة بصوت هادئ مؤكد:

- كل شيء على ما يرام، وإذا أردت أن تزيدنا اطمئنانا فأسرع فى إحضار الطبيب..

ولم يضيع عبد المنعم وقته فمضى إلى حجرته ليستكمل ملابسه، ومضى فى أثره أحمد، ثم خرجا معًا ليأتيا بالدكتور، وعند ذاك قال ياسين:

- ماذا هناك؟

فقالت زنوبة، وقد نم وجهها لأول مرة عن قلق:

- تعبانة المسكينة كان الله فى عونها.

- والحكيمة ألم تقل شيئًا؟

فقالت زنوبة بتسليم:

- قالت إنها تريد الدكتور..

وعادت زنوبة إلى الحجرة تاركة وراءها ظلا ثقيلاً من القلق . .

تساءل ياسين :

ـ أهذا الطبيب بعيد؟

فأجابه إبراهيم شوكت :

ـ فى العمارة التى فوق قهوتك بالعتبة .

ودوت صرخة فانعقدت الألسن ، هل عاد الطلق الأليم؟ ومتى يحضر الطبيب ، ودوت الصرخة مرة أخرى ، فازداد التوتر ، وإذا بياسين يهتف مرتاعًا : ـ هذا صوت عائشة!

فأرهفوا السمع ، وعرفوا صوت عائشة ، فقام إبراهيم فى الحجرة ونقر الباب ، ففتحت زنوبة بوجه باهت ، سألها بلهفة :

ـ ما لكم؟ مال عائشة هانم؟ أليس من المستحسن أن تغادر الحجرة؟ . .

فقالت زنوبة وهى تزدرد ريقها :

ـ كلا . . الحال شديدة يا سى إبراهيم . .

ـ ماذاحدث؟!

ـ فجأة ، إنها . . ، انظر . .

فى أقل من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجرة ينظرون . كانت نعيمة مغطاة حتى الصدر ، خالتها وجدتها والحكيمة حولها فى الفراش ، أمهاواقفة وسط الحجرة تحملق فى بنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنها فقدت الوعى ، وكانت نعيمة مغمضة العينين ، صدرها يعلو وينخفض كأنما قد أفلت زمامه من بقية الجسد الساكن ، أما الوجه فأبيض باهت كالموت . هتفت الحكيمة :

«الدكتور!» . وجعلت أمينة تهتف : «يارب!» وخديجة تنادى بصوت مذعور «نعيمة ردى على» أما عائشة فلم تنطق كأن الأمر

لا يعنيها فى شىء. تساءل كمال «ماذا هنالك؟» وسأل أخاه فى ذهول: «ماذا هنالك؟» ولكنه لم يجبه، أى ولادة عسيرة؟! ودار بصره بعائشة وإبراهيم وياسين فتقهقر قلبه فى صدره، ليس هنالك إلا معنى واحد..

ودخلوا الحجرة جميعًا، لم تعد حجرة ولادة وإلا ما دخلوا، وكانت عائشة فى حال بالغ الشدة ولكن أحدًا لم يوجه إليها كلمة، وفتحت نعيمة عينيها فبدتا مظلمتين، وأتت حركة كأنما تريد أن تجلس فأجلستها جدتها وحوتها فى حضنها، شهقت الفتاة، وندت عنها آهة عميقة، ثم بغتة هتفت كأنما تستغيث:

- ماما.. أنا ذاهبة.. أنا ذاهبة..

ثم سقط رأسها على صدر جدتها، وضجت الحجرة بالصوات، ولطمت خديجة خديها، وتشهدت أمينة فى وجه الفتاة، أما عائشة فرمت بناظريها من النافذة المطلة على السكرية، وثبتت عينيها على ماذا؟ ثم تردد صوتها كالحشرجة:

- ما هذا يا ربى؟ ما هذا الذى تفعله؟ لماذا؟ أريد أن أفهم

واقترب منها إبراهيم شوكت ومد لها يده، فأبعدتها بحركة عصبية وهى تقول:

- لا يلمسنى منكم أحد، دعونى، دعونى..

ثم ردت بصرها بينهم قائلة:

- اخرجوا من فضلكم، لا تكلمونى، هل عندكم كلام يجدى؟ لن ينفعنى الكلام، ماتت نعيمة كما ترون، كانت كل ما تبقى لى فلم يبق لى شىء فى الدنيا، اذهبوا من فضلكم..

كان الظلام حالكا عندما مضى ياسين وكمال فى طريقهما إلى بين القصرين، وكان ياسين يقول:

- ما أثقل أن أبلغ والدك الخبر!

فأجاب كمال وهو يجفف عينيه :

ـ نعم . .

ـ لا تبك ، أعصابى لم تعد تتحمل . .

فقال كمال متنهداً :

ـ كانت عزيزة جداً على ، أنا حزين جداً يا أخى ، وعائشة المسكينة ! . .

ـ هذه هى الكارثة ! عائشة ! سننسى جميعًا إلا عائشة ! . .

«سننسى جميعًا؟ ! لا أدرى . إن وجهها لا يغيب عنى مدى العمر ، ولو أن لى مع النسيان تجربة فذة ، هو نعمة كبرى ، ولكن متى يجود ببلسمه؟» . وعاد ياسين يقول :

ـ كنت متشائما عند زواجها ، ألا تدرى؟ لقد تنبأ لها الدكتور يوم مولدها بأن قلبها لن يسعفها على الحياة بعد العشرين ! والدك يذكر هذا فى الغالب . .

ـ لا أدرى شيئًا ، أكانت عائشة تدرى؟

ـ كلا ، إنه تاريخ قديم ، وقضاء الله لا بد منه . .

ـ ما أتعسك يا عائشة ! . .

ـ أجل ما أتعسها المسكينة ! . .

٢٥

كان أحمد إبراهيم شوكت جالسًا فى قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة ، مكبًا على متابعة كتاب بين يديه . لم يكن بقى على الامتحان إلا أسبوع ، وكان الجهد قد نال منه كل منال ، وشعر بأن شخصًا قد دخل القاعة

وجلس خلفه فالتفت إلى الوراء مستطلعًا فرأى علوية صبرى! نعم هى، ولعلها جلست تنتظر كتابًا استعارته، وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه بالعينين السوداوين، ثم أعاد رأسه إلى وضعه الأول منتشى القلب والحواس. ما من شك فى أنها باتت تعرف شكله، كما تعرف أنه مغرم بها، فمثل هذه الأمور لا تخفى، إلى أنها كلما التفتت هنا أو هناك ـ سواء فى فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان ـ وجدته مسترقًا إليها النظر. وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ ولكن فرحته فاقت حتى ما كان يقدر. وكان ـ منذ أن علم بأنها ستتخصص فى الاجتماع مثله ـ يؤمل أن يتم التعارف بينهما فى غضون العام الدراسى المقبل، الأمر الذى لم يتح له هذا العام فى زحمة طلبة القسم الإعدادى. على أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء، فحدثته نفسه بأن يمضى إلى رفوف المراجع كأنما ليطلع على أحدها، ثم يحييها فى طريقه! وألقى نظرة على ما حوله فرأى عددًا من الطلاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، فقام دون تردد وسار فى الممر بين المقاعد، وعندما مر بها التقت عيناهما فحنى رأسه تحية مؤدبة، فبدا فى ملامحها وقع المفاجأة، ولكنها ردت تحيته برأسها ونظرت فيما أمامها. وتساءل ترى هل أخطأ؟ كلا إنها زميلة منذ عام طويل، ومن واجبه أن يحييها إذا التقيا هكذا وجها لوجه فى مكان يكاد يكون خاليًا. وواصل مسيره إلى خزانة الكتب الحاوية لدائرة المعارف، ثم اختار مجلدا وراح يقلب صفحاته دون أن يقرأ كلمة. كان سروره برد التحية عظيما فزايله التعب واهتز صدره نشاطًا. يالها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه إعجابًا وانجذابًا حتى صارت شغله الشاغل. إن كافة أحوالها تدل على أنها من «أسرة» كما يقولون، وأخشى ما يخشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدبها الجم، وإنه يستطيع أن يعترف لها ـ صادقًا ـ بأنه من أسرة كذلك إذا دعا الأمر، أليس آل شوكت «أسرة»؟

بلى . . وذات ملك ، فسيكون له يومًا ريع ومرتب معا! وافتر ثغره عن ابتسامة ساخرة، ريع . . مرتب . . أسرة! إذن فأين مبادؤه؟ وشعر بشىء من الخجل. إن القلب فى أهوائه لا يعرف المبادئ، فالناس يحبون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها ، وعليهم أن يخلقوا أنصافهم الجميلة خلقًا جديداً ، كمن يدخل بلدا غريبًا فعليه أن يتكلم بلغته حتى يبلغ ما يريد . ثم إن الطبقية والملكية حقيقتان واقعيتان لم يخلقهما هو ولا أبوه ولاجده ، فليس هو بالمسئول عنهما ، والعلم والجهاد هما الكفيلان بمحو هذه السخافات التى تفرق بين البشر . من الممكن ربما أن يغير نظام الطبقات ، ولكن كيف يستطيع أن يغير الماضى وهو أنه من أسرة موفورة الدخل؟ وهيهات أن تتعارض المبادئ الشعبية مع الحب الأرستقراطى ، وكارل ماركس نفسه تزوج من جينى فون وستفال حفيدة الدوق برونشويك ، وكانوا يسمونها «الأميرة الساحرة» و«ملكة الرقص» ، وها هى أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانت ملكة الرقص . وأعاد المجلد إلى موضعه ثم رجع ، وجعل يملأ ناظريه مما بدا من قامتها ، جانب من أعلى الظهر ، وصفحة العنق الرقيق ، والقذال المزدان بالشعر المعقوص ، ما أجمل المنظر ، ومر بها خفيفًا إلى مقعده وجلس . ولم تمض دقائق حتى سمع وقع أقدامها الخفيفة ، فنظر إلى الوراء آسفًا وهو يظنها منصرفة ولكنه رآها قادمة ، فلما حاذته وقفت بشىء من الارتباك ، وهو لا يصدق عينيه ، وقالت :

ـ لا مؤاخذة ، هل أجد عندك محاضرات التاريخ؟

نهض كالجندى ، وبادر يقول :

ـ بكل تأكيد . .

فقالت كالمعتذرة :

ـ لم أستطع متابعة الأستاذ الإنجليزى كما يجب ، ففاتنى تقييد كثير

من النقط الهـامـة، وأنا لا أرجع إلى المراجع إلا فى المواد التى سأتخصص فيها فيما بعد، ولا يتسع الوقت للمراجعة فى سائر المواد . .

ـ مفهوم . . مفهوم . .

ـ وقد علمت أن مذكراتك مستوفاة، وأنك أعرتها لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم.

ـ نعم، ستكون تحت أمرك غداً . .

ـ متشكرة جداً (ثم وهى تبتسم) لا تظن بى الكسل، ولكن إنجليزيتى متوسطة! . .

ـ لا بأس، أنا بدورى دون المتوسط فى الفرنسية، ولعله تتاح لنا الفرص للتعاون، ولكن معذرة تفضلى بالجلوس، قد يهمك الاطلاع على هذا الكتاب، مدخل الاجتماع لها كنز . .

ولكنها قالت:

ـ متشكرة، لقد رجعت إليه مرات، قلت إنك دون المتوسط فى الفرنسية، فلعلك فى حاجة إلى مذكرات السيكولوجى؟

فأجاب دون تردد:

ـ أكون شاكراً لو تفضلت . .

ـ غدا نتبادل المذكرات؟

ـ بكل سرور، ولكن معذرة، ستجدين أكثر الدراسات بقسم الاجتماع بالإنجليزية . .

فتساءلت وهى تدارى مولد ابتسامة:

ـ أتعرف أننى اخترت قسم الاجتماع؟

ابتسم كأنما ليدارى حياءه، ولم يكن ثمة حياء ولكنه شعر بأنه «وقع» ولكنه قال ببساطة:

ـ نعم!

ـ لمناسبة أية مصادفة!

فقال بجرأة:

ـ بل سألت فعلمت . .

وضغطت شفتيها القرمزيتين، ثم قالت وكأنها لم تسمع جوابه:

ـ غدا نتبادل المذكرات . .

ـ صباحًا . .

ـ إلى اللقاء وشكرًا . .

فبادرها:

ـ إني سعيد بالتعرف إليك، إلى اللقاء.

لبث واقفًا حتى واراها الباب ثم جلس. ولحظ أن البعض كان ينظر مستطلعًا نحوه، ولكنه كان ثملاً بالسعادة. ترى أكان حديثه استجابة لما بدا من إعجابه بها، أم لحاجتها المحلة إلى مذكراته؟ لم تسنح قبل الساعة فرصة للتعارف. كان يجدها دائمًا بصحبة الأتراب. هذه أول فرصة، وقد فاز بما تمنى طويلاً فيما يشبه المعجزة. إن كلمة من ثغر نحبه خليقة بأن تجعل من كل شيء كلا شيء . . .

٢٦

بدا ياسين قلقًا رغم إرادته. وكان قد تظاهر طويلاً بأنه لا يهمه شيء، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة نفسها، لا أمام زملائه الموظفين فحسب ولكن حيال نفسه أيضًا. إن الدرجة السادسة ـ إذا رقى إليها ـ ستزيد مرتبه جنيهين لا غير! ويا ما ضيع ياسين! ويقولون إنها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع، ولكن متى كان يكترث ياسين

للرياسات؟ بيد أنه كان قلقًا، خاصة بعد أن استدعى مدير الإدارة محمد أفندى حسن ـ زوج زينب أم رضوان ـ لمقابلة وكيل الوزارة، وذاع بين موظفى المحفوظات أن الوكيل استدعاه ليسمع رأيه فى موظيفه للمرة الأخيرة قبل توقع الكشف الخاص بالترقيات. محمد حسن؟! خليفته اللدود الذى لولا السيد محمد عفت لبطش به من زمن بعيد! أيمكن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طيبة؟ وانتهز فرصة خلو حجرة المدير فهرع إلى التليفون، وطلب كلية الحقوق، وكان يتصل بها ذلك اليوم للمرة الثالثة، مستدعيًا رضوان ياسين . . .

ـ آلو، رضوان؟ أنا والدك.

ـ أهلاً وسهلاً، كل شىء عال.

كان صوته ينم عن ثقة، الابن واسطة للأب . .

ـ الحركة رهن التوقيع الآن؟

ـ اطمئن، الوزير نفسه هو الذى أوصى بك، كلمه نواب وشيوخ ووعدهم بكل خير.

ـ ألا تحتاج المسألة لتوصية أخيرة؟

ـ أبدا، الباشا هنأنى هذا الصباح كما أخبرتك، اطمئن جدًا.

ـ أشكرك يا ابنى، سلام عليكم.

ـ وعليكم السلام يا بابا، مبارك مقدمًا . .

ووضع السماعة وغادر الحجرة، فالتقى بإبراهيم أفندى فتح الله ـ زميله ومنافسه فى الدرجة ـ قادمًا يحمل بعض الملفات، فتبادلا التحية فى تحفظ، وعند ذلك قال ياسين:

ـ ليكن بيننا مباراة رياضية يا إبراهيم أفندى، ولتقبل النتيجة أيًا كانت بشهامة . .

فقال الرجل فى امتعاض:

ـ على شرط أن تكون مباراة شريفة!

ـ ماذا تعنى؟

ـ أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة! . .

ـ غريب رأيك!، وهل يوجد رزق بدون وساطة فى هذه الدنيا؟ . اسع كما تشاء وأسعى كما أشاء، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب! . .

ـ أنا أقدم منك . .

ـ كلانا موظف قديم، سنة لا تقدم ولا تؤخر! . .

ـ فى سنة تولد نفوس وتزهق نفوس!

ـ تولد تزهق، كل واحد وقسمته . .

ـ والكفاءة؟ . .

فقال ياسين منفعلاً:

ـ الكفاءة؟ هل نقيم جسوراً أو ننشىء محطات كهربائية؟ كفاءة! ماذا يتطلب عملنا الكتابى من كفاءة؟ كلانا بالابتدائية، وفضلاً عن ذلك فأنا رجل مثقف . .

فضحك إبراهيم أفندى ضحكة ساخرة، وقال:

ـ مثقف؟ أهلا ياسى مثقف! . . أتظن نفسك مثقفًا بالشعر الذى تحفظه؟ . أو بالإنشاء الذى تكتب به خطابات الإدارة كأنك تؤدى امتحان الابتدائية من جديد؟ . . أنا تارك أمرى لله . .

وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صفت بها المكاتب متقابلة على الجانبين، وغطت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات. وكان البعض مكبًا على الأوراق والآخرون يتحادثون ويدخنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات، قال جار ياسين له:

ـ ستأخذ ابنتى البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولاتعب قلب فى البحث عن وظيفة بعد التخرج.

فقال ياسين:

ـ خير ما تفعل..

فسأله الرجل مجادلاً:

ـ وماذا أعددت لكريمة؟ كم بلغت من العمر على فكرة؟

فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله، وقال:

ـ فى الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية فى الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعد على أصابعه): نحن فى نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتمام والكمال..

ـ ما دامت تنجح فى ابتدائى فستنجح فى ثانوى، البنات أضمن اليوم من الصبيان...

ثانوى؟ هذا ما تريده زنوبة. كلا إنه لا يطيق أن يرى ابنته تسير فى الطريق ونهداها يهتزان. ثم المصروفات؟...

ـ نحن لا نلحق بناتنا بالثانوى، ولماذا؟.. إنها لن تتوظف!..

فسأل ثالث:

أهذا يقال فى عام ١٩٣٨؟

ـ يقال فى أسرتنا ولو فى عام ٢٠٣٨!

فضحك رابع وهو يقول:

ـ قل إنك لا تستطيع أن تنفق عليها وعلى نفسك معا! قهوة العتبة وخمارة محمد على، وحب البنات البكارى هد منى الحيل. هذه هى الحكاية..

فضحك ياسين ثم قال :

ـ ربناساترها . . ولكن كما قلت لك نحن لا نعلم البنت أكثر من الابتدائية . .

وتعالت سعلة من الركن القصى فيما يلى مدخل الحجرة ، فالتفت ياسين إلى صاحبها ، ثم وقف وكأنه تذكر أمرًا هامًا ، فمضى إلى مكتبه حتى شعر الرجل به فرفع نحوه رأسه ، فمال ياسين فوقه قائلاً :

ـ وعدتنى بالوصفة . .

فمد الرجل أذنه متسائلاً :

ـ نعم؟ . .

فتضايق ياسين من أذن الرجل الثقيلة ، واستحيا أن يرفع من صوته وإذا بصوت يجىء من وسط الحجرة عاليا وهو يقول :

ـ أراهن على أنه يسألك عن الوصفة ، وصفتك التى ستذهب بنا جميعًا إلى القبر . .

وتراجع ياسين متبرما إلى مكتبه ، فقال له الرجل دون مبالاة بإحراجه ، وبصوت سمعته الحجرة كلها :

ـ أنا أقول لك عنها : هات قشر مانجو ، اغله غليا شديداً ، وداوم على ذلك حتى يصير سائلاً لزجا كالعسل ، وخذ منه ملعقة على غيار الريق . .

وضحكوا جميعًا ، غير أن إبراهيم فتح الله قال متهكمًا :

ـ فايق ورايق ، انتظر حتى تأخذ الدرجة السادسة وهى تشد حيلك؟ . .

فتساءل ياسين ضاحكًا :

ـ هل تنفع الدرجة فى هذه المسألة؟ . .

فقال جار ياسين ضاحكًا أيضًا :

ـ لو صحت هذه النظرية ، لا ستحق عم حسنين فراش مكتبنا أن يكون وزير المعارف! . .

وضرب إبراهيم فتح الله كفا بكف ، وقال مسائلا زملاءه جميعًا :

ـ يا إخوان ، هذا الرجل (مشيرا إلى ياسين) طيب وظريف وابن حلال ، ولكن هل يشتغل بمليم؟ . . أنا راض بذمتكم! . .

فقال ياسين هازئًا :

ـ دقيقة عمل منى تساوى شغل يوم منك! . .

ـ الحكاية أن المدير يترفق بك ، وأنك تتوكل على ابنك فى هذا العهد الأغبر! . .

فقال ياسين ملحا فى إغاظته :

ـ وفى كل عهد وحياتك ، ابنى فى هذا العهد ، فإذا جاء الوفد عندك ابن أختى وأبى ، قل من عندك أنت؟ . .

فقال الرجل وهو يرفع رأسه إلى السقف :

ـ عندى ربنا! . .

ـ وهو سبحانه عندى أيضًا ، أليس برب الجميع؟ . .

ـ ولكنه لن يرضى عن زباين محمد على! . .

ـ وهل يرضى عن مدمنى الأفيون والمنزول؟

ـ ليس أبشع فى الوجود من السكير! . .

ـ الخمر شراب الوزراء والسفراء ، ألا تراهم فى الصحف وهم يشربون الأنخاب؟ ولكن هل رأيت سياسيا يقدم قطعة أفيون فى حفل سياسى فى صحة عقد معاهدة مثلاً؟ !

فقال جار ياسين وهو يغالب الضحك :

ـ هس يا جماعة، وإلا قضيتم مدة خدمتكم فى السجن!

فبادر ياسين مشيرًا إلى غريمه:

ـ كان يقرفنى فى السجن وحياتك، ويقول لى أنا أقدم منك! . .

وإذا بمحمد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة، فساد الصمت وتطلعت نحوه الرءوس.

واتجه الرجل نحو حجرته لا يلوى على شىء، فتبادلوا النظرات متسائلين. لا يبعد أن يكون أحد المتخاصمين الآن رئيس قلم، ولكن من صاحب الحظ السعيد؟! وفتح باب المدير، وظهر رأسه الأصلع وهو ينادى بصوت جاف «ياسين أفندى». فنهض ياسين بجسمه الضخم، ومضى نحو الحجرة وقلبه يخفق، وتفحصه المدير بنظرة غريبة ثم قال:

ـ رقيت إلى الدرجة السادسة! . .

فقال ياسين وقد انشرح صدره:

ـ شكرًا يا أفندم! . .

فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف:

ـ من الإنصاف أن أصارحك بأنه يوجد من هو أحق بها منك . . ولكنها الوساطة!

فغضب ياسين، وكان كثيرًا ما يغضب حيال هذا الرجل، وقال:

ـ الوساطة! ما لها؟ هل تتم حركة كبيرة أو صغيرة دون وساطة؟ هل ترقى مخلوق فى هذه الإدارة، فى هذه الوزارة، بما فيهم حضرتك، دون وساطة؟

فكظم الرجل غيظه، ثم قال:

ـ لا يأتينى من ناحيتك إلا وجع الدماغ، تترقى بدون وجه حق، ثم تثور لأقل ملاحظة عادلة، ما علينا، مبارك، مبارك يا سيدى، فقط أرجو أن تشد حيلك، أنت الآن رئيس قلم! . .

فتشجع ياسين بتراجع المدير، وقال دون أن يخفف من حدته:

- أنا موظف منذ أكثر من عشرين عامًا، وعمرى اثنان واربعون عامًا، فهل تستكثر على الدرجة السادسة؟ إن الغلمان يعينون فيها بمجرد تخرجهم من الجامعة! . .

- المهم أن تشد حيلك، أرجو أن أعتمد عليك كبقية زملائك، فقد كنت وأنت ضابط مدرسة النحاسين مثال الموظف المجد، ولولا تلك الحادثة القديمة . .

- شىء قديم فلا داعى لذكره الآن، وكل واحد له أخطاؤه . .

- أنت الآن فى سن الرجولة الناضجة، فإذا لم يستقم سلوكك تعذر عليك أن تقوم بواجبك، كل ليلة سهر، فبأى مخ تعمل فى الصباح؟ أريد أن تنهض بالإدارة، هذا كل ما هنالك . .

فاستاء ياسين بالتعريض بسيرته، وقال:

- لا أقبل أن يمس إنسان سلوكى الخاص بكلمة، أنا حر خارج الوزارة! . .

- وداخلها؟

- سأعمل ما يعمله رؤساء الأقلام، أنا اشتغلت فى ماضى ما يكفينى طوال العمر . .

عاد ياسين إلى مكتبه متكلفًا الابتسام رغم جيشان صدره بالغضب، وذاع النبأ فتلقى التهانى.

وكان إبراهيم فتح الله يميل على أذن جاره هامسا فى حقد:

- ابنه! . . هذه هى الحكاية! عبد الرحيم باشا عيسى . . فهمت؟! . . اسفخص! . . .

٢٧

كان السيد أحمد عبد الجواد جالسًا على كرسى كبير فى المشربية ينظر إلى الطريق حينا، وحينا فى جريدة الأهرام المبسوطة على حجره، وكانت ثقوب المشربية تعكس على جلبابه الفضفاض وطاقيته نقطا من الضياء، وقد ترك باب حجرته مفتوحًا ليتمكن من سماع الراديو القائم فى الصالة، غير أنه بدا ناحلاً ضامراً، كما لاحت فى عينيه نظرة ثقيلة تنم عن استسلام حزين. وكان كأنما يكتشف الطريق ـ من مجلسه بالمشربية ـ لأول مرة فى حياته، فلم يسبق له أن رآه من هذه الزاوية فى أيام حياته الماضية، إذ أنه لم يمكث فى البيت إلا ساعات النوم على وجه التقريب، أما اليوم فلم تعد له من تسلية ـ بعد الراديو ـ إلا هذه الجلسة فى المشربية، ينظر من ثقوبها شمالاً وجنوبًا، وإنه لطريق حى، مسل لطيف، وله إلى هذا طابعه الذى يميزه عن طريق النحاسين الذى ألف رؤيته من دكانه ـ السابق ـ زهاء نصف قرن من الزمان، وهذه دكاكين حسنين الحلاق ودرويش الفوال والفولى اللبان وبيومى الشرباتلى وأبو سريع صاحب المقلى، تقوم فى الطريق كالقسمات فى الوجه حتى عرف بها وعرفت به، أى عشرة وأى جوار، ترى ما أعمار هؤلاء الناس؟ حسنين الحلاق مدمج الخلق، من نوع قل أن يبدو عليه أثر الزمن، لم يكد يتغير منه شىء إلا شعره، ولكنه جاوز الخمسين بلا ريب، من لطف الله بهؤلاء الناس أنه يحفظ عليهم صحتهم! ودرويش؟ أصلع، هكذا كان دائمًا، ولكنه فى الستين، ما أقوى جسمه! كذلك كنت أنا فى الستين، ولكننى أمسيت فى السابعة والستين فيا له من عمر! وأعدت تفصيل ثيابى لتناسب ما تبقى من جسدى، وإذا نظرت إلى هذه الصورة

المعلقة فى حجرتى أنكرت نفسى. الفولى أصغر من درويش، ذلك الأعمش المسكين، ولولا غلامه ما عرف كيف يهتدى إلى سبيله، أبو سريع رجل عجوز، عجوز؟! ولكنه ما زال يعمل، لم يفارق واحد منهم دكانه، ألا إن فراق الدكان لشديد! ثم لا يبقى لك إلا هذا المجلس، والقبوع فى البيت ليل نهار، لو أستطيع أن أخرج ساعة واحدة كل يوم! ولكن على أن أنتظر يوم الجمعة، ثم لابد من العصا، ولا بد من كمال ليصحبنى، الحمد لله رب العالمين، بيومى أصغرهم وأسعدهم حظًا، من أم مريم بدأ، أما أنا فعندها انتهيت، وهو اليوم مالك أحدث عمارة فى الحى، هكذا كان مصير بيت السيد رضوان، أنشأ هذا المشرب المضاء بالكهرباء، حظ رجل يبدأ بخداع امرأة، سبحان العاطى وجلت حكمته! كل شىء يتجدد، الطريق ممهد بالأسفلت، وأضئ بالمصابيح، أتذكر ليالى عودتك آخر الليل فى الظلام الدامس؟ لكن أين منى هاتيك الليالى؟ وفى كل دكان كهرباء وراديو، كل شىء جديد، إلا أنا، عجوز فى السابعة والستين، لا يستطيع مغادرة داره إلا يومًا واحدا فى الأسبوع وهو يلهث. القلب! كله من القلب، القلب الذى طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنى، يقضى اليوم بالقعود ولا راد لقضائه. قال الطبيب «خذ الدواء والزم البيت واتبع نظامى الغذائى» حسن، ولكن هل يعيد ذلك إلى قوتى؟ . أعنى بعض قوتى؟ فأجاب الطبيب «حسبنا أن نمنع المضاعفات، ولكن الجهد أو الحركة شىء خطير. . (ثم ضاحكا). . لماذا تريد أن تسترد قوتك»؟ أجل لماذا؟ إنه لشىء محزن مضحك معًا، ومع ذلك قال «أريد أن أذهب وأجئ» فقال الطبيب «لكل حال مسراتها، جلسة هادئة، اقرأ المصحف، واسمع الراديو وانعم بأسرتك، ويوم الجمعة زر الحسين راكبا، حسبك هذا!»، الأمر لصاحب الأمر، متولى عبد الصمد لا يزال يتخبط فى الطرقات! ويقول وانعم بأسرتك! لم تعد أمينة تمكث فى البيت،

انقلبت الآية، أنا فى المشربية وأمينة تجول فى القاهرة من مسجد إلى مسجد، كمال يجالسنى خفيفًا كالضيف، عائشة؟ آه يا عائشة، أمن الأحياء أنت أم من الأموات؟ ثم يريدون من قلبى أن يبرأ ويستريح! . .

- سيدى . .

والتفت إلى الوراء صوب الصوت، فرأى أم حنفى حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه.

- الدواء يا سيدى . .

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبها الأسود، هذه المرأة التى صارت مع الزمن واحدة من أسرتنا. وتناول الكوب وملأ الفنجان، حتى نصفه، وفض سداد القارورة ونقط منها أربع نقط فى الفنجان، وقلص وجهه قبل أن يتقلص من طعم الدواء، ثم تجرعه.

- بالشفا يا سيدى . .

- متشكر، أين عائشة؟

- فى حجرتها، الله يصبر قلبها!

- ناديها يا أم حنفى . .

فى حجرتها، أو على السطح، ثم ماذا؟ وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساخراً من حزن البيت الصامت ولم يكن السيد اضطر إلى ملازمة البيت إلا منذ شهرين، وكان قد مضى على وفاة نعيمة عام وأربعة أشهر، فاستأذن الرجل فى سماع الراديو لحاجته الملحة إلى التسلية، فقالت له عائشة: «طبعًا يا بابا، ربنا يكفيك شر قعدة البيت». وسمع حفيف ثوب فالتفت فرآها قادمة فى ثوب أسود، متشحة بخمار أسود رغم حرارة الجو، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة، عنوان التعاسة يا ابنتى، قال برقة:

ـ هاتى الكرسى واجلسى معى قليلاً .

ولكنها لم تتزحزح عن موقفها قائلة :

ـ مرتاحة هكذا يا بابا .

علمته الأيام الأخيرة ألا يحاول أن يعدل بها عن رأى .

ـ ماذا كنت تفعلين؟

فقالت دون أن ينم وجهها عن أى معنى :

ـ لا شىء أفعله يا بابا .

ـ لماذا لا تخرجين مع نينتك لتزورى الأضرحة المباركة ، أليس هذا أفضل من بقائك هنا وحدك؟

ـ ولماذا أزور الأضرحة؟

وكأنما فوجئ بقولها ، بيد أنه قال بهدوء :

ـ تتوسلين إلى الله أن يصبر قلبك .

ـ الله هنا معنا فى البيت!

ـ طبعًا ، أقصد أن تتركى هذه العزلة يا عائشة ، زورى أختك ، زورى الجيران ، روحى عن نفسك . .

ـ لا أستطيع أن أرى السكرية ، ولا معارف لى ، لم يعد لى معارف ، لا أطيق زيارة أحد . .

قال الرجل وهو يولى عنها رأسه :

ـ أحب أن تتصبرى ، وأن تهتمى بصحتك . .

ـ صحتى! . .

قالتها فيما يشبه العجب ، فقال بتوكيد :

ـ نعم ، ما فائدة الحزن يا عائشة؟ . .

فقالت وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذى تعودت أن تلتزمه حياله .

ـ وما فائدة الحياة يا بابا؟ . .

ـ لا تقولى هذا ، إن أجرك عند الله عظيم ! . .

فحنت رأسها لتخفى عينيها الدامعتين ، وقالت :

ـ أود أن أذهب عنده لأنال هذا الأجر ، ليس هنا يا بابا ! . .

ثم انسحبت برقة ، وقبل أن تغادر الحجرة توقفت قليلاً كأنما تذكرت أمرًا ، فسألته :

ـ كيف صحتك اليوم؟

فابتسم قائلاً

ـ الحمد لله ، المهم صحتك أنت يا عائشة . .

وغادرت الحجرة ، من أين تأتيه الراحة فى هذا البيت؟ وراح يردد بصره فى الطريق حتى ثبت على أمينة وهى راجعة من جولتها اليومية ، كانت ترتدى معطفًا ، وعلى وجهها بيشة ، وتنقل خطاها فى بطء . شد ما ركبها الكبر ! كان يحسن الظن بحصتها متذكرًا أمها المعمرة ، ولكن هاهى تبدو أكبر من سنها ـ اثنين وستين عامًا ـ بعشرة أعوام على الأقل ، ومر وقت غير قصير قبل أن تدخل عليه وهى تتساءل :

ـ كيف حال سيدى؟

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدة المطلوبة :

ـ كيف حالك أنت ! ما شاء الله ! من طلعة الصبح يا ولية؟ !

فابتسمت قائلة :

ـ زرت سيدتك ، وزرت سيدك ، ودعوت لك وللجميع . .

عاودته بعودتها طمأنينة وسلام، وشعر بأنه يستطيع الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج:

- أيصح أن تتركينى وحدى كل هذا الوقت؟!.

- أنت أذنت لى يا سيدى، لم أغب طويلاً، ولكنها الضرورة يا سيدى، ما أحوجنا إلى الدعاء، توسلت إلى سيدى أن يرد إليك صحتك حتى تروح وتغدو كما تشاء، كما دعوت لعائشة وللجميع..

وجاءت بكرسى وجلست، ثم سألته:

- هل تناولت الدواء يا سيدى؟ أنا نبهت على أم حنفى..

- ليتك نبهتها على شىء أحسن!..

- بالشفا يا سيدى، سمعت فى المسجد درسًا جميلاً من الشيخ عبد الرحمن، تحدث يا سيدى عن الكفارة عن الذنب وكيف تمسح السيئات، كلام جميل جداً يا سيدى، ليتنى أستطيع أن أحفظ كأيام زمان!..

- وجهك شاحب من المشى، كلها كم يوم وتصبحين من زبائن الدكتور!..

- ربنا الحافظ، أنا لا أخرج إلا لزيارة آل البيت، فكيف يقع لى سوء؟! ثم متداركة:

- آه يا سيدى، كدت أنسى، يتحدثون فى كل مكان عن الحرب، يقولون إن هتلر هجم..!

تساءل الرجل باهتمام:

- متأكدة؟..

- سمعتها بدل المرة مائة مرة، هتلر هجم.. هتلر هجم..

فقال الرجل ليفهمها أنها لم تسبقه بالأخبار:

ـ كان هذا متوقعًا من لحظة لأخرى . .

ـ بعيد عنا إن شاء الله يا سيدى؟ . .

ـ قالوا هتلر فقط؟ وموسولينى؟ ألم تسمعى هذا الاسم؟ . .

ـ اسم هتلر فقط . .

ـ ربنا يلطف بنا، إذا سمعتم نداء عن ملحق البلاغ أو المقطم فاشتروه . .

فقالت المرأة :

ـ كأيام غليوم وزبلن، أتذكر يا سيدى؟ سبحان من له الدوام! . .

٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما بعد، فعندما فتح باب الشقة ملأ فراغه ياسين فى بذلة بيضاء من تيل المحلة، تتقدمه الوردة الحمراء والمنشة العاجية، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه، وتبعه ابنه رضوان فى بذلته الحريرية آية فى الأناقة والجمال، ثم زنوبة فى ثوب سنجابى تعلوها الحشمة التى صارت جزءًا لا يتجزأ منها، وأخيراً كريمة فى فستان أزرق بديع كشف عن أعلى النحر والذراعين، وقد تبلورت أنوثتها المبكرة ـ لم تكن تزيد عن الثالثة عشرة ـ فبدت جاذبيتها صارخة . وضمتهم حجرة الاستقبال مع خديجة وإبراهيم وعبد المنعم وأحمد، وسرعان ما قال ياسين :

ـ اسمعتم عن شىء كهذا من قبل؟ ابنى سكرتير الوزير الذى أنا فى وزارته مجرد رئيس قلم فى المحفوظات، تنهد له الأرض إذا سار، وأنا لا يكاد يشعر بى إنسان!

كان مدلول كلامه الاحتجاج، ولكن لم يخف على أحد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخار بابنه. وفى الحق قد حصل رضوان على الليسانس فى مايو من هذا العام، وما لبث أن تعين فى يونيه سكرتيرا للوزير، فى الدرجة السادسة، على حين يتعين خريجو الجامعات فى الدرجة الثامنة الكتابية، وقد حصل عبد المنعم على الليسانس فى نفس التاريخ، ولكنه لم يكن يدرى ما المصير، قالت خديجة باسمة، وكانت تشعر بشىء من الغيرة:

- رضوان صديق الحكام، ولكن العين لا تعلو على الحاجب. .

فقال ياسين فى سرور لم يفلح فى مداراته:

- ألم تروا صورته مع الوزير فى أهرام أمس؟ . . بتنا لا ندرى كيف نكلمه! . .

فأشار إبراهيم شوكت إلى عبد المنعم وأحمد قائلاً:

- هذان الولدان خائبان، ضيعا عمرهما فى مناقشات حادة لا معنى لها، وكان خير من عرفا من رجالات البلد الشيخ على المنوفى ناظر مدرسة الحسين الأولية، وسخام البرك عدلى كريم صاحب مجلة الضوء أو الهباب لا أدرى! . .

وكان أحمد ساخطًا وإن بدا طبيعيا. أثاره زهو خاله ياسين كما أثاره تعليق والده، أما عبد المنعم فقد غطى ما كان ينتظره من وراء هذه الزيارة الجامعة على الغضب الذى كان خليقًا أن يشتعل فى صدره فى ظروف أخرى. وكان يسترق النظر فى وجه رضوان متسائلاً عما وراءه، غير أن قلبه استبشر خيراً بالزيارة، فلعلها لم تكن تقع لولا أنها تحمل البشرى. وعاد ياسين يقول معلقًا على كلام إبراهيم.

- لو سألتنى عن رأيى لقلت لك نعم الولدان! ألم يقولوا فى الأمثال: السلطان من ابتعد عن باب السلطان؟ . .

كلا لم يفلح ياسين فى مداراة سروره، كما لم يفلح فى إقناع أحد بإيمانه بما قال، غير أن خديجة قالت مشيرة إلى رضوان:

ـ ربنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرهم . .

وأخيرا التفت رضوان إلى عبد المنعم قائلاً:

ـ أرجو أن أهنئك عما قريب . .

فتطلع إليه عبد المنعم متسائلاً وقد تورد وجهه، فعاد رضوان يقول:

ـ وعدنى الوزير بأن يعينك فى إدارة التحقيقات . .

كانت أسرة خديجة تترقب على لهف هذا التقرير، فركزت أبصارهم فى رضوان، طالبة المزيد من التأكيد، فمضى الشاب يقول:

ـ أول الشهر القادم على أكثر تقدير . .

وقال ياسين معقبًا على قول ابنه:

ـ إنها وظيفة قضائية، لقد عين عندنا فى إدارة المحفوظات شابان من حملة الليسانس فى الدرجة الثامنة بثمانية جنيهات!

وكانت خديجة هى التى طلبت من ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد المنعم، فقالت فى امتنان:

ـ الشكر لله ولك يا أخى (ثم وهى تلتفت إلى رضوان) وطبعًا جميل رضوان فوق رءوسنا) . .

وآمن إبراهيم على قولها قائلاً:

ـ طبعًا، إنه أخوه، ونعم الأخ .

وقالت زنوبة باسمة، لكى تخرج من هامش الجلسة:

ـ رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان، ما فى ذلك كلام .

وتساءل عبد المنعم الذى كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان:

ـ أعطاك كلمة جدية؟

فقال ياسين باهتمام:

ـ كلمة وزير! . . إنى متتبع المسألة!

وقال رضوان:

ـ وأنا من ناحيتى سأذلل لك الصعاب فى إدارة المستخدمين، ولى فيهم أصدقاء كثيرون، ولو أن موظفى المستخدمين لا صديق لهم!

فقال إبراهيم شوكت وهو يتنهد:

ـ الحمد لله. لقد أراحنا الله من الوظيفة والموظفين! . .

فقال ياسين:

ـ عشت ملكا يا أبا خليل . .

ولكن خديجة قالت متهكمة:

ـ ربنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت! . .

وتدخلت زنوبة مجاملة كعادتها، فقالت:

ـ قعدة البيت لعنة، إلا من كان صاحب ملك فهو سلطان! . .

فقال أحمد وفى عينيه بسمة خبيثة:

ـ خالى ياسين صاحب ملك، ولكنه صاحب وظيفة أيضًا! . .

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

ـ صاحب وظيفة وبس من فضلك، أما الملك! كان يا ما كان، كيف يحتفظ بملكه من كان له أسرة كأسرتى؟!

فهتفت زنوبة فى ارتياع:

ـ أسرتك؟!

والتفت رضوان ـ قاطعا الحديث الذى لا يحبه ـ إلى أحمد قائلاً:

ـ إن شاء الله تجدنا فى خدمتك فى العام المقبل عندما تأخذ الليسانس! . .

فقال أحمد :

ـ أشكرك جداً، لكننى لن أتوظف! . .

ـ كيف؟ . .

ـ الوظيفة خليقة بقتل أمثالى، مستقبلى فى الميدان الحر! . .

وهمت خديجة بالاحتجاج، ولكنها آثرت تأجيل العراك إلى حينه، أما رضوان فقال باسما :

ـ إذا غيرت رأيك فستجدنى فى خدمتك!

فرفع أحمد يده إلى رأسه شاكراً. وجاءت الخادم بأكواب الليمون المثلجة، وفى فترة الصمت التى جعلوا فيها يحتسون، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكأنما كانت تراها لأول مرة منذ إفاقتها من مسألة عبد المنعم، فقالت برقة :

ـ كيف حالك يا كريمة؟

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة :

ـ بخير يا عمتى، متشكرة . .

وكادت خديجة تأخذ فى إطراء جمالها، ولكن شيئا ـ كالحذر ـ أوقفها. الواقع أنها لم تكن أول مرة تجىء بها زنوبة معها مذ حجزت فى البيت بعد أخذها الابتدائية. وقالت خديجة لنفسها إن هذه الأمور تشم فى الهواء شما! وإن كريمة إذا كانت ابنة زنوبة فهى فى الوقت نفسه ابنة ياسين، ومن هنا تجىء دقة المسألة! ولم يكن عبد المنعم يوفى كريمة حقها من النظر لانشغاله بموضوعه، ولكن كان يعرفها حق المعرفة، على أنه لم يكن قد برأ كل البرء من أثر وفاة زوجه، أما أحمد فلم يكن فى فؤاده متسع! وقال ياسين :

ـ كريمة مازالت آسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانوية .

فقالت زنوبة مقطبة :

ـ وأنا آسفة أكثر . .

فقال إبراهيم شوكت :

ـ إنى أشفق على البنات من جهد الدراسة ، ثم أن البنت فى النهاية لبيتها ، فلن يمض عام أو آخر حتى تزف كريمة على صاحب القسمة السعيد . .

يا مقطوع اللسان ، هكذا قالت خديجة لنفسها ، يفتح المواضيع الخطيرة وهو فى غفلة عن نتائجها ، يا له من موقف! كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب الفضل ، لعله لا يكون لهذا القلق من سبب إلا الوهم! ولكن لماذا تكثر زنوبة من زيارتنا جارة فى يدها كريمة؟ ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير ، أما ربيبة التخت! . .

وقالت زنوبة :

ـ هذا الكلام كان يقال فى الزمن الماضى ، أما اليوم فالبنات كلهن يذهبن إلى المدارس . .

فقالت خديجة :

ـ فى حارتنا بنتان فى المدارس العالية ، ولكن شكلهما والعياذ بالله! . .

فسأل ياسين أحمد :

ـ أليس فى بنات كليتك جمال؟

وخفق قلب أحمد ، وتمثلت لعينيه الصورة المعششة فى قلبه ، ثم أجاب :

ـ حب العلم ليس قاصرا على الدميمات . .

فقالت كريمة باسمة، وهى تنظر صوب أبيها :

ـ المسألة تتوقف على الآباء .

فضحك ياسين قائلاً :

ـ عفارم يا ابنتى! هكذا تتحدث البنت الطيبة عن أبيها، وهكذا كانت تخاطب عمتك جدك!

فقالت خديجة متهكمة :

ـ المسألة تتوقف على الآباء حقًا! . .

فبادرتها زنوبة قائلة :

ـ البنت معذورة، آه لو سمعت حديثه بين أولاده!

فقالت خديجة :

ـ أنا عارفة وفاهمة! . .

فقال ياسين :

ـ أنا رجل له آراؤه فى التربية، أنا الأب الصديق، لا أحب أن يرتعد أبنائى خوفًا فى محضرى، أنا حتى اليوم ينتابنى الارتباك أمام أبى! . .

فقال إبراهيم شوكت :

ـ الله يقويه ويصبره على قعدة البيت! السيد أحمد جيل وحده، وليس مثله أحد فى الرجال . .

فقالت خديجة منتقدة :

ـ قل له!

فقال ياسين كالمعتذر :

ـ أبى جيل وحده، وا أسفاه أصبح هو وأصحابه قعيدى بيوتهم، ولم تكن الدنيا لتسعهم على رحابتها! . .

وكان رضوان يقول لأحمد فى حديث جانبى مستقل :

ـ بدخول إيطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة . .

ـ ربما تحولت هذه الغارات الإسمية إلى غارات فعلية . .

ـ ولكن هل لدى الإنجليز قوة كافية لصد الزحف الإيطالى المتوقع؟ لا شك أن هتلر سيترك مهمة الاستيلاء على قناة السويس لموسولينى . .

فتساءل عبد المنعم :

ـ هل تقف أمريكا متفرجة؟

فقال أحمد :

ـ مفتاح الموقف الحقيقى فى يد روسيا !

ـ لكنها حليفة هتلر؟ . .

ـ الشيوعية عدوة النازية، ثم إن الشر الذى يتهدد العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدده بانتصار الديموقراطيات . .

فقالت خديجة :

ـ أظلموا لنا الدنيا يظلم عيشتهم، وما هذه الأشياء التى لم نعرفها من قبل . . صفارات إنذار ! . . مدافع مضادة . . كشافات، مصائب تشيب الإنسان قبل الأوان !

فقال إبراهيم فى سخرية هادئة :

ـ على أى حال الشيب فى بيتنا ليس قبل الأوان . .

ـ هذا عندك أنت وحدك !

كان إبراهيم فى الخامسة والستين، ولكنه يبدو بالقياس إلى السيد أحمد ـ الذى لم يكن يكبره إلا بثلاث سنوات، كأنما يصغره بعشرات السنين .

وعند انتهاء الزيارة، قال رضوان لعبد المنعم:

- زرنى فى الوزارة.

ولما أغلق الباب وراء الذاهبين، قال أحمد لعبد المنعم:

- خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان، ادرس كيف تزور سكرتير وزير!

فلم يجبه ولم ينظر ناحيته..

٢٩

لم يجد أحمد مشقة تذكر فى الاهتداء إلى فيللا مستر فورستر - أستاذ علم الاجتماع - بالمعادى. وقد أدرك حال دخوله أنه جاء متأخرًا بعض الوقت، وأن كثيرًا من الطلبة الذين دعوا مثله إلى الحفل الذى أقامه الأستاذ لمناسبة سفره إلى إنجلترا قد سبقوه إليه، واستقبله الأستاذ وحرمه، وقد قدمه إليها باعتباره طالبًا من خير طلبة القسم، ثم مضى الشاب إلى حيث جلس الطلبة فى الفراندا، كان المجلس يتكون من طلبة قسم الاجتماع كافة، وكان أحمد ضمن القلة المنقولة للسنة النهائية، يشاركهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوق. ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت، ولكنه كان مطمئنا إلى مجيئهن، أو إلى مجىء «صديقته» التى كانت من سكان المعادى. ألقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة فى أرض فضاء معشوشبة، تكتنفها من الجانبين أشجار الصفصاف والنخيل، وقد صفت فوقها أباريق الشاى وأوعية اللبن وأطباق الحلوى. ثم سمع طالبًا يتساءل:

- نلتزم بالآداب الإنجليزية أم ننقض على المائدة كالنسور؟

فأجابه آخر فيما يشبه الأسف:

ـ آه لو لم توجد لادى فورستر!

كان الوقت أصيلاً، ولكن الجو كان لطيفًا رغم شخصية يونية الثقيلة، ثم ما لبث أن لاح السرب المنتظر عند مدخل الفيللا. جئن معا كأنهن على ميعاد، وكن أربعا هن جملة الطالبات بالقسم وبدت علوية صبرى وهى تخطر فى فستان ناصع البياض مهفهف، جعل من كائنها اللطيف لونًا واحداً بديعا فيما عدا الشعر الأسود الفاحم، وعند ذاك شعر أحمد بقدم هازئة تحتك بقدمه كأنما تنبهه إن كان فى حاجة إلى من ينبهه، وكان سره قد ذاع من زمن. . وتابعهن حتى استقر بهن المجلس فى ركن أخلى لهن بالفراندا، ثم جاء مستر فورستر وزوجه، وقالت الزوجة موجهة الخطاب إلى الطلبة، وهى تشير إلى الفتيات:

ـ هل تحتاجون إلى تعارف؟

فارتفع الضحك، وقال الأستاذ وكان ذا شخصية فائقة رغم مشارفته الخمسين:

ـ الأجدر أن تعرفيهم بى أنا!

وضجوا بالضحك مرة أخرى، حتى عاد مستر فورستر يقول:

ـ فى مثل هذا الوقت من كل عام كنا نغادر مصر إلى إنجلترا لقضاء العطلة، هذه المرة لا ندرى إن كنا سنرى مصر مرة أخرى أم لا! . .

فقاطعته زوجه قائلة:

ـ ولا حتى إن كنا سنرى إنجلترا! . .

وأدركوا أنها تلمح إلى خطر الغواصات، فقال لها أكثر من صوت:

ـ حظ سعيد يا سيدتى . .

وعاد الرجل يقول:

ـ سأحمل معى ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة فى كلية الآداب،

وعن مقاطعة المعادى الهادئة الجميلة، وعنكم أنتم الذين سأعتز حتى بهذركم!

فقال أحمد مجاملاً:

ـ أما ذكراك فستبقى فى نفوسنا دواما، وتنمو بنمو عقولنا..

ـ شكراً.. (ثم مخاطبا زوجه وهو يبتسم).. أحمد شاب جامعى كما ينبغى، وإن تكن له آراء مما تسبب المتاعب عادة فى بلده!

فقال زميل موضحًا:

ـ يعنى أنه شيوعى!

فرفعت السيدة حاجبيها باسمة، أما مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى:

ـ لم أقل أنا ذلك، ولكن زميله الذى قال!

ثم نهض الأستاذ وهو يقول:

ـ آن وقت الشاى، يجب ألا يسرقنا الوقت، وسوف نجد بعد ذلك متسعًا للسمر واللهو..

وكان عمال جروبى قد أعدوا المائدة ووقفوا متأهبين للخدمة.. وتوسطت لادى فورستر جانب المائدة الذى جلس إليه الفتيات، على حين توسط الأستاذ الجانب الآخر، وهو يقول معلقًا على نظام الجلوس:

ـ كنا نود أن تكون الجلسة أكثر اختلاطًا، ولكننا راعينا الآداب الشرقية، أليس كذلك؟

فأجابه طالب بلا تردد:

ـ للأسف هذا ما لاحظناه يا سيدى!

وصب الخادم الشاى واللبن وبدأت المأدبة. لاحظ أحمد اختلاسا أن

علوية صبرى كانت أبرع زميلاتها ممارسة لآداب المائدة وأقلهن ارتباكًا، بدت آلفة للحياة الاجتماعية، كأنها فى بيتها، وشعر بأن ملاحظة تناولها للحلوى ألذ من الحلوى نفسها، هذه صديقته العزيزة التى تبادله الصداقة والمودة دون أن تشجعه على عبور حدودهما، وقال لنفسه: إن لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على! وعلا صوت لادى فورستر وهى تقول:

ـ أرى ألا تؤثر قيود الحرب فى تناولكم للحلوى!

فعلق طالب على قولها قائلاً:

ـ من المصادفات السعيدة أن الرقابة لم تفرض على الشاى بعد!

ومال مستر فورستر على أذن أحمد ـ وكان يجلس إلى يساره ـ وسأله:

ـ كيف تمضى العطلة؟ أعنى ماذا تقرأ؟

ـ كثيرا فى الاقتصاد وقليلاً فى السياسة، وأكتب بعض المقالات فى المجلات.

ـ أنصحك بأن تقدم فى الماجستير بعد الليسانس.

فقال أحمد بعد الانتهاء مما فى فيه:

ـ ربما فيما بعد، سأبدأ بالعمل فى الصحافة، هذه خطتى من قديم.

ـ حسن!

الصديقة العزيزة تحادث لادى فورستر بطلاقة، ما أسرع ما أتقنت الإنجليزية، والورود والأزهار تنضح بالحمرة والألوان كما ينضح القلب بالحب، فى عالم الحرية يزدهر الحب كالأزهار، الحب لا يكون عاطفة صحيحة طبيعية إلا فى بلد شيوعى. وقال مستر فورستر:

ـ من المؤسف أننى لم أستكمل دراستى للغة العربية، كنت أود أن أقرأ مجنون ليلى دون مساعدة أحد منكم!

ـ المؤسف أنك ستنقطع عن دراستها! . .

ـ إلا إذا سمحت الظروف فيما بعد . .

وربما وجدت نفسك مضطراً إلى تعلم الألمانية، ألا يكون مضحكًا لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلاء وتهتف له؟ فى أخلاق الإنجليز الشخصية فتنة، أما فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له، عما قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل فى مكان واحد لأول مرة، وإذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على!». وسأل أستاذه:

ـ وماذا أنت فاعل عقب وصولك إلى لندن؟

ـ دعيت للعمل فى الإذاعة.

ـ إذن لن ينقطع عنا صوتك.

«مجاملة تغتفر فى هذا المجلس الذى تزينه صديقتى، إننا لا نسمع هنا إلا الإذاعة الألمانية، شعبنا يحب الألمان ولو على سبيل الكراهية للإنجليز، والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية، اجتماعنا بأستاذنا يخلق موقفًا جديراً بالتأمل، نبرره بالروح العلمية ولكن ثمة ارتطام بين حبنا لأستاذنا وبغضنا لجنسه، والمأمول أن تقضى الحرب على النازية والاستعمار معا، هنالك أخلص للحب وحده».

ثم عادوا إلى مجالسهم بالفراندا التى أضيئت مصابيحها، ولم تلبث لادى فورستر أن قالت:

ـ إليكم البيانو فليتفضل أحدكم بإسماعنا لحنا.

فرجاها طالب قائلاً:

ـ تفضلى أنت بإسماعنا . .

فنهضت فى رشاقة الشباب الذى جاوزته بأعوام، ثم جلست إلى البيانو وفتحت النوطة وراحت تعزف لحنا، لم يكن أحد منهم ذا إلمام بالموسيقى الغربية أو تذوق لها، ولكنهم أنصتوا فى اهتمام بدافع الأدب

والمجاملة. وحاول أن يستمد من حبه قوة سحرية يفتح بها مغاليق اللحن، ولكنه نسى اللحن فى استراق النظر إلى وجه فتاته، والتقت عيناهما مرة، فتبادلا ابتسامة لم تغب عن كثيرين، وفى نشوة الفرحة قال لنفسه: «أجل، إذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على» وعلى أثر فراغ لادى فورستر من عزفها، عزف طالب لحنا شرقيًا، ثم خلصوا للسمر وقتا غير قصير، وحوالى الساعة الثامنة مساء ودعوا أستاذهم وأخذوا فى الانصراف. ولبد أحمد عند منعرج طريق فى ليل بالغ فى جماله وحنانه، تحت مظلة من الأشجار الباسقة، حتى رآها قادمة وحيدة فى طريقها إلى مسكنها، فبرز لها من المنعطف قاطعا عليها الطريق، فتوقفت فى دهش وقالت:

- ألم تذهب معهم؟

فنفخ فيمايشبه التنهد ليخفف صدره من جيشانه، وقال بهدوء:

- تخلفت عن القافلة لأقابلك!

- ترى ماذا يظنون بتخلفك؟

فقال باستهانة:

- هذا شأنهم!

وسارت فى بطء وسار إلى جانبها، ثم تمخض صبر الأيام الطويلة عنه وهو يقول:

- أريد أن أسألك قبل عودتى: هل تسمحين لى بالتقدم لخطبتك؟

فارتفع رأسها الجميل كرد فعل لوقع المفاجأة، ولكن لم يند عنها صوت كأنها لم تجد ما تقوله، وكان الطريق خاليًا وأضواء المصابيح متوارية خلف الطلاء الأزرق، فعاد يسائلها:

- أتسمحين لى؟

فقالت بصوت خافت لم يخل من عتاب:

ـ هذه طريقتك فى الكلام ويا لها من طريقة ، الواقع أنك أذهلتنى !

فضحك ضحكة خفيفة ، وقال :

ـ أعتذر عن ذلك ، وإن كنت أظن أن تاريخ صداقتنا الطويل لا يجعل من قولى مفاجأة تذهل .

ـ تعنى صداقتننا وتعاوننا الثقافى؟

فلم يرتح لقولها ، ولكنه قال :

ـ أعنى عاطفتى غير الخفية التى اتخذت شكل الصداقة والتعاون الثقافى كما قلت ! . .

فتساءلت فى صوت باسم غير خال من اضطراب :

ـ عاطفتك الخفية؟ !

فقال بعناد وإخلاص :

ـ أعنى حبى ! الحب لا يخفى ، إننا عادة لا نتكلم لنعلنه ، وإنما لنسعد بسماع إعلاننا له . .

فقالت مماطلة حتى تسترد هدوءها :

ـ الأمر كله مفاجأة لى . .

ـ يؤسفنى أن أسمع هذا . .

ـ لماذا تأسف؟ الواقع أننى لا أدرى ماذا أقول . .

ضاحكا :

ـ قولى «أسمح لك» ودعى الباقى لى . .

ـ ولكن ، ولكن . . أنا لا أعرف شيئًا ، معذرة ، كنا أصدقاء حقًا ولكنك لم تحدثنى عن . . ، أعنى لم تسمح الظروف بأن تحدثنى عن شخصك ! . .

ـ ألم تعرفينى؟

ـ عرفتك طبعًا، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغى أن تعرف . .

أتعنى هذه الأمور التقليدية؟، يا لها من أسئلة خليقة بقلب لم يأسره الحب! وشعر بامتعاض، بيد أنه ازداد عنادًا فقال :

ـ سيجىء كل شىء فى حينه . .

فتساءلت، وكانت قد ملكت زمام نفسها :

ـ أليس الآن حينه؟

فابتسم ابتسامة فاترة، وقال :

ـ لك حق، تعنين المستقبل؟

ـ طبعا!

وأحنقته «طبعًا». أمل أن يسمع أغنية فسمع محاضرة معادة! ولكن يجب ألا تخونه ثقته فى نفسه مهما يكن الأمر. العزيزة الباردة لا تدرى كم يسعده إسعادها!

ـ سأجد بعد تخرجى عملاً . .

ثم بعد لحظات من الصمت :

ـ وسيكون لى يومًا دخل لا بأس به!

فتمتمت فى حياء :

ـ كلام عام . .

فقال وهو يدارى ألمه بالهدوء :

ـ سيكون المرتب فى الحدود المعروفة، أما الدخل فحوالى عشرة جنيهات . .

وساد الصمت. لعلها تزن الأمور وتفكر. هذا هو التفسير المادى للحب!

كان يحلم بالجنون العذب ولكن أين منه هذا؟ هذا البلد عجيب

يندفع فى السياسة وراء العاطفة، ويتبع فى الحب دقة المحاسبين. وأخيراً جاء الصوت الرقيق قائلاً:

ـ لندع الدخل جانبًا، فلا يجمل أن ترتب حياتك على أساس تقدير اختفاء الأعزاء من حياتك..

ـ أردت أن أقول لك إن والدى من ذوى الأملاك..

فقالت بجهد برر فترة التردد التى سبقته:

ـ فلنكن واقعيين...

ـ قلت إنى سأجد عملاً، وستجدين من ناحيتك عملاً أيضًا..

فضحكت ضحكة غريبة:

ـ كلا لن أشتغل، لم أذهب إلى الجامعة لأتوظف كسائر الزميلات..

ـ ليس العمل عيبًا..

ـ طبعًا، ولكن والدى..، الواقع أننا جميعًا متفقون على هذا، لن أشتغل.

وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث، فقال:

ـ ليكن، أشتغل أنا..

فقالت بصوت كأنما تعمدت أن يكون رقيقًا فوق العادة:

ـ أستاذ أحمد، فلنؤجل الحديث، أعطنى مهلة للتفكير..

فضحك ضحكة فاترة، وقال:

ـ قلبنا الأمر على كافة وجوهه، ولكنك فى حاجة إلى مهلة لتدبرى الرفض!

فقالت بصوت حيى:

ـ ينبغى أن أحادث والدى.

ـ هذا بدهى، ولكن كان من الممكن أن ننتهى إلى رأى قبل ذلك!

ـ مهلة ولو قصيرة!..

ـ نحن فى يونيه، وستسافرين إلى المصيف، ولن نلتقى إلا فى أكتوبر القادم فى الكلية!

قالت بإصرار:

ـ لابد من مهلة للتفكير والتشاور!

ـ إنك لا تريدين أن تتكلمى..

وإذا بها تتوقف عن المسير فجأة، وتقول فى دأب وعزم معًا:

ـ أستاذ أحمد، إنك تأبى إلا أن تحملنى على الكلام، أرجو أن تتقبل كلامى بصدر سمح، لقد فكرت فى موضوع الزواج من قبل كثيراً، لا بالقياس إليك ولكن بصفة عامة، وانتهيت منه ـ ووافقنى على ذلك والدى ـ بأن حياتى لن تستقيم، وإننى لن أحافظ على مستواى، إلا إذا تهيأ لى ما لا يقل عن خمسين جنيها شهريًا..

وتجرع خيبة مريرة لم يتوقع ـ على أسوأ الفروض ـ أن تبلغ مرارتها هذه الدرجة، وتساءل:

ـ وهل يملك موظف ـ أعنى فى سن الزواج ـ هذا المرتب الضخم؟

ولكنها لم تنبس، فعاد يقول:

ـ إنك تريدين زوجا ثريا!

ـ آسفة جدًا، ولكنك أجبرتنى على مصارحتك برأيى..

فقال بصوت غليظ:

ـ هذا أفضل على أى حال..

فعادت تغمغم:

ـ آسفة!..

وثار غضبه، ولكنه بذل جهداً صادقًا كيلاً يخرج عن حدود الأدب، ثم وجد رغبة لا تقاوم فى أن يصارحها برأيه فتساءل:

ـ أتسمحين لى أن أصارحك برأيى؟

فبادرته قائلة:

ـ كلا، إنى أعرف الكثير عن آرائك، وأرجو أن نبقى صديقين كما كنا!..

ورثى رغم غضبه لحالها، هذه هى الحقيقة العارية قبل أن يلطفها الحب. التى تهرب مع خادمها امرأة طبيعية وإن عدت ـ بعين التقاليد ـ شاذة. فى المجتمع المختل يبدو الصحيح مريضا والمريض صحيحًا، إنه غاضب ولكن تعاسته أكبر من غضبه، إنها على أى حال تحدس رأيه وفى هذا عزاء، ومدت يدها للمصافحة فتلقاها بيده، ثم أبقاها فيها حتى وسعه أن يقول:

ـ قلت إنك لم تدخلى الجامعة للتوظفى، قول جميل فى ذاته، ولكن إلى مدى انتفعت بالجامعة؟

وارتفع ذقنها كالمتسائلة، لكنه قال بلهجة لم تخل من سخرية:

ـ معذرة عن سخافتى، لعل المسألة أنك لم تحبى بعد، مع السلامة..

ودار على عقبيه، ثم ولى مسرعًا.

٣٠

قال إسماعيل لطيف:

ـ لعلى أخطأت بحمل زوجى إلى القاهرة كى تلد فيها، كل ليلة

تنطلق صفارة الإنذار، أما طنطا فلم نكن نعرف شيئا عن أهوال هذه الحرب.

فقال كمال:

ـ إنها غارات رمزية لو أرادوا بنا شرا ما منعتهم قوة!

فضحك رياض قلدس، وقال مخاطبًا إسماعيل لطيف، وكانت هذه ثانى مقابلة بينهما فى مدى تعارف عام:

ـ أنت تخاطب رجلا لا يشعر بمسئولية الزوج!

فسأله إسماعيل متهكمًا:

ـ هل تشعر بها أنت؟

ـ حقًا أنا أعزب مثله، غير أنى لست عدوا للزواج..

كانوا يسيرون فى شارع فؤاد الأول، فى مطلع الليل، فى ظلام لم تخففه الأضواء الضئيلة التى تتسرب من أبواب المحال العامة، وكان الشارع رغم ذلك مكتظا بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على اختلاف أنواعهم. وكان الخريف يبعث أنفاسا رطيبة، ولكن أكثر الناس مضوا فى الملابس الصيفية. ونظر رياض قلدس إلى جماعة من الجنود الهنود وقال:

ـ من المحزن أن يبتعد الإنسان عن وطنه هذه المسافة المديدة، ليقتل فى سبيل غيره!

فقال إسماعيل لطيف:

ـ ترى كيف يتأتى لهؤلاء التعساء أن يضحكوا؟!

فقال كمال ممتعضًا:

ـ كما نضحك نحن فى هذه الدنيا الغريبة، الخمر والمخدرات واليأس.

فضحك رياض قلدس قائلاً:

ـ إنك تعانى أزمة فريدة، كل ما عندك مزعزع الأركان، عبث وقبض الريح، نضال أليم مع أسرار الحياة والنفس، وملل وسقم، إنى أرثى لك.

فقال إسماعيل لطيف ببساطة:

ـ تزوج، إنى مررت بهذا الملل قبل زواجى..

فقال رياض قلدس:

ـ قل له!..

فقال كمال، وكأنما يخاطب نفسه:

ـ الزواج هو التسليم الأخير فى هذه المعركة الفاشلة..

«أخطأ إسماعيل فى المقارنة، إنه حيوان مهذب، ولكن مهلاً لعله الغرور، فيم الغرور وأنت ترقد فوق تل من الخيبة والفشل، إسماعيل لا يدرى شيئا عن دنيا الفكر، ولكن السعادة المستمدة من العمل والزوجة والأولاد، أليست سعادة جديرة بأن تسخر من احتقارك لها؟» قال رياض:

ـ إذا قررت يومًا أن أؤلف رواية، فستكون أحد أبطالها!

فاتجه كمال نحوه فى اهتمام صبيانى، وسأله:

ـ ماذا ستصنع منى؟

ـ لا أدرى، ولكن ينبغى أن توطن نفسك على ألا تزعل، فإن كثيرين ممن قرأوا أنفسهم فى أقاصيصى قد زعلوا..

ـ لماذا؟..

ـ لعله لأن لكل إنسان فكرة عن شخصه من خلقه هو، فإذا جرده الروائى منها أبى وغضب!..

فتساءل كمال فى قلق:

ـ ألديك فكرة عنى غير ما تعلن؟

فبادره فى توكيد قائلاً:

ـ كلا، ولكن الروائى قد يبدأ من شخص ثم ينساه كلية وهو بصدد خلق نموذج بشرى جديد، لا صلة بينه وبين الأصل إلا الإيحاء، وإنك توحى إلى بشخصية الرجل الشرقى الحائر بين الشرق والغرب، الذى دار حول نفسه كثيراً حتى أصابه الدوار.

«يتكلم عن الشرق والغرب، ولكن من أين له أن يعرف عايدة؟ قد تكون التعاسة متعددة الجوانب».

وقال إسماعيل لطيف فى بساطة مرة أخرى:

ـ طول عمرك تخلق لنفسك المتاعب، الكتب فى نظرى أساس بلواك، لماذا لا تجرب الحياة الطبيعية؟

وبلغوا فى مسيرهم منعطف عماد الدين فمالوا إليه، وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الإنجليز فتفادوا منها، وقال إسماعيل لطيف:

ـ إلى جهنم، من أين لهم بهذا الأمل؟! ترى هل يصدقون أنفسهم؟

فقال كمال:

ـ يخيل إلى أن نتيجة الحرب قد تقررت، غايتها الربيع القادم..

فقال رياض قلدس ممتعضا:

ـ النازية حركة رجعية غير إنسانية، وسوف يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية..

فقال إسماعيل:

ـ ليكن ما يكون، المهم أن نرى الإنجليز فى نفس الموضع الذى فرضوه على العالم الضعيف!..

وقال كمال:

ـ ليس الألمان بخير من الإنجليز . .

فقال رياض قلدس :

ـ ولكننا انتهينا مع الإنجليز إلى بر ، والاستعمار البريطانى يوغل فى الشيخوخة ، ولعله قد تلطف ببعض المبادئ الإنسانية ، ولكننا سنتعامل غداً مع استعمار فتى مغرور شره غنى حرب ، فما العمل؟

فضحك كمال ضحكة تحمل نغمة جديدة ، وقال :

ـ نشرب كأسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه حكومة واحدة عادلة ! . .

ـ سنحتاج حتمًا إلى أكثر من كأسين . .

ووجدوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من قبل ، لعلها من الحانات «الشيطانى» التى تخلقها ظروف الحرب بين يوم وليلة ، وحانت من كمال نظرة إلى داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقى تقوم على إدارة الحانة ، ثم جمدت قدماه فلم يتحرك من موقفه ، أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرك حتى اضطر صاحباه أن يتوقفا عن المسير وينظروا إلى حيث ينظر . . مريم ! لم تكن إلا مريم دون غيرها ، مريم الزوجة الثانية لياسين ، مريم جارة العمر ، فى هذه الحانة بعد اختفاء طويل ، مريم التى ظن بها أنها لحقت بأمها ! . .

ـ أتريد أن نجلس هاهنا؟ هلم فليس بالداخل إلا أربعة جنود . .

وتردد مليا ، ولكن شجاعته لم تواته فقال ولما يفق من ذهوله :

ـ كلا . .

وألقى نظرة على المرأة التى ذكرته بأمها فى أيامها الأخيرة ، ثم انطلقوا فى طريقهم ، متى رآها آخر مرة؟ منذ ثلاثة أو أربعة عشر عامًا على الأقل ، إنها معلم من معالم الماضى الذى لا ينسى ، ماضيه . . تاريخه . . ماهيته . . كل أولئك شىء واحد ، وقد استقبلته فى قصر

الشوق فى آخر زيارة لهذا البيت قبل طلاقها، وما زال يذكر كيف شكت إليه اعوجاج أخيه وارتداده إلى حياة العربدة والمجون، شكوى لم يكن يقدر عواقبها وقد انتهت بها إلى ذلك الدور الذى تلعبه فى هذه الحانة الشيطانى، ومن قبل ذلك كانت كريمة السيد محمد رضوان، وكانت صديقته وملهمة أحلامه فى الصبا الأول، فى ذلك الزمان الذى شهد البيت القديم عامراً بالأفراح والسلام، كانت مريم وردة وكانت عائشة وردة ولكن الزمن عدو لدود للورود، وربما كان من المحتمل أن يعثر عليها فى بيت من هذه البيوت كما عثر بالست جليلة، ولو وقع هذا لكان وجد نفسه فى مأزق وأى مأزق، هكذا بدأت مريم بالإنجليز وانتهت بالإنجليز . .

- أتعرف هذه المرأة؟

- نعم . . .

- كيف؟

- امرأة من هاتيك النسوة، ولعلها نسيتنى! . .

- أوه، الحانات ملأى بهن، مومسات قديمات، وخادمات متمردات، ومن كل لون . .

- نعم . .

- ولمَ لم تدخل فلعلها كانت ترحب بنا إكرامًا لك . . ؟

- لم نعد فى طور الشباب ولدينا أماكن أفضل . .

تقدم به العمر وهو لا يدرى، منتصف الحلقة الرابعة، وكأنما قد استهلك نصيبه من السعادة، وإذا قارن بين تعاسته الراهنة وتعاسته الماضية لم يدر أيهما أشد، ولكن ماذا يهم العمر وقد ضاق بالحياة؟ حقًا إن الموت لذة الحياة،. ولكن ما هذا الصوت؟

- غارة! . .

ـ أين نذهب؟ . .

ـ على مخبأ قهوة ركس . .

ـ لم يجدوا فى المخبأ مكانًا خاليا للجلوس فوقفوا، وكان ثمة أفندية وخواجات وسيدات وأطفال، وكان الكلام يدور بشتى اللغات واللهجات. وأصوات رجال المقاومة المدنية فى الخارج تهتف «أطفئ النور»، وبدا وجه رياض شاحبًا، وكان يمقت دوى المدافع، قال له كمال مداعبًا:

ـ قد لا تتمكن من العبث بشخصى فى روايتك . .

فضحك ضحكة عصبية وقال وهو يومئ إلى الناس:

ـ البشرية ممثلة بنسبة عادلة فى هذا المخبأ . .

فقال كمال متهكمًا:

ـ لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على الخوف! . .

وهتف إسماعيل متنرفزا:

ـ زمان زوجى نازلة على السلم تتلمس طريقها فى الظلام، إنى أفكر جديًا فى العودة إلى طنطا غدًا . .

ـ إن عشنا! . .

ـ مساكين حقًا أهل لندن! .

ـ لكنهم أصل البلاء كله . .

وكان وجه رياض قلدس يزداد شحوبًا، ولكنه دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال:

ـ سمعتك تتساءل مرة أين محطة الموت لأغادر مركبة الحياة المملة، فهل يهون عليك أن تنسفنا قنبلة الآن؟

فابتسم كمال، وكان يرهف السمع فى قلق متزايد متوقعًا بين لحظة وأخرى أن ينطلق مدفع فيصك الآذان، وأجاب:

ـ كلا . . (ثم كالمتسائل) . . لعله الخوف من الألم؟

ـ أم ثمة أمل غامض فى الحياة مازال يضطرب فى أعماقك؟

لماذا لم ينتحر؟ ولم يبدو ظاهر حياته كأنما يمتلئ حماسا وإيمانًا؟ طالما نازعته النفس إلى النقيضين: وكر الشهوات والتصوف، ولكنه لم يكن ليطيق حياة خالصة للدعة والشهوات، ومن ناحية أخرى كان ثمة شىء فى أعماقه ينفر من فكرة السلبية والهروب، ولعله ـ هذا الشىء ـ الذى حال بينه وبين الانتحار، وفى ذات الوقت فإن استمساكه بحبل الحياة المضطرب فى يديه مناقض لصميم شكه القاتل، والخلاصة فى كلمتين: حيرة وعذاب!

وفجأة انطلقت المدافع كالمطر، لا تتيح للصدر متنفسًا، وزاغت الأبصار، وضلت الألسن، ولكن الضرب لم يستمر أكثر من دقيقتين بالحساب الزمنى، وتوقع الناس عودة بغيضة إلى الدوى المرعب، واستبد الفزع بالنفوس، غير أن الصمت ساد وعمق، وتساءل إسماعيل لطيف:

ـ إنى أتخيل حال زوجى الآن، ترى متى تنتهى الغارة؟

فتساءل رياض قلدس:

ـ متى تنتهى الحرب؟

وما لبث أن انطلقت صفارة الأمان فند عن المخبأ تنهد عميق، وقال كمال:

ـ ليست إلا مداعبة إيطالية! . .

وغادروا المخبأ فى الظلام كالخفافيش، ولفظت الأبواب أشباحًا وراء أشباح، ثم تساقط الضوء الباهت متتابعًا من النوافذ، وملأت الضجة الأركان . .

ـ يبدو أن الحياة ـ فى هذه اللحظة السريعة المعتمة ـ ذكرت كل غافل بمدى قيمتها الذى لا يقاس به شىء فى الوجود . .

٣١

اتخـذ البـيت القـديم مع الزمن صـورة جـديدة تنذر بالانحـلال والتدهور. انفرط نظامه وتقوض مجلسه، وكان النظام والمجلس روحه الأصيل. ففى نصف النهار الأول يغيب كمال فى المدرسة، وتمضى أمينة إلى جولتها الروحية ما بين الحسين والسيدة، وتنزل أم حنفى إلى حجرة الفرن، ويتمدد السيد على الكنبة فى حجرته أو يجلس على كرسى فى المشربية، وتهيم عائشة على وجهها ما بين السطح وحجرتها، ويظل الراديو فى الصالة يهتف وحده، وعند الأصيل تجتمع أمينة وأم حنفى فى الصالة، وتلبث عائشة فى حجرتها، أو تمكث معهما بعض الوقت ثم تذهب، أما السيد فلا يغادر حجرته، وكمال إن عاد من الخارج مبكراً فلكى يقبع فى الدور الأعلى فى مكتبه. وكان اعتكاف السيد أول الأمر محزنًا، ثم صار عادة عنده وعند الآخرين، وكان حزن عائشة مفجعًا ثم صار عادة عندها وعند الآخرين، وما زالت أمينة أول من يستيقظ، فتوقظ بدورها أم حنفى، ثم تتوضأ وتصلى، وتنهض أم حنفى ـ وكانت نسبيًا خير الجميع صحة ـ فتقصد حجرة الفرن، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحسو أقداح القهوة تباعًا وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتى إذا دعيت للفطور تناولت لقمات. وقد اضمحلت أيما اضمحلال، وانقلبت هيكلا عظيما كسى جلدا باهتا، وأخذ شعرها فى السقوط حتى اضطرت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكالبت عليها العلل حتى أشار عليها الطبيب بالتخلص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلا الاسم. ولم تكن أقلعت عن عادة النظر فى المرآة، لا لتأخذ زينة، ولكن بحكم العادة من

ناحية، وللإمعان فى الحزن من ناحية أخرى، وربما بدت أحيانًا وكأنها أذعنت للمقادير فى استسلام لطيف، فتطيل من جلستها مع أمها، وتشارك فى الحديث الدائر، وربما افترت شفتاها الذابلتان عن ابتسامة، أو تزور والدها لتسأل عن صحته، أو تتمشى فى حديقة السطح وترمى بالحب إلى الدجاج، هناك تقول أمها برجاء:

ـ كم أسعدت قلبى يا عائشة، ليتنى أراك دائمًا على هذه الحال!..

على حين تجفف أم حنفى عينيها قائلة:

ـ فلنذهب إلى حجرة الفرن لنصنع شيئًا جميلاً!

ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمها على صوت بكاء آت من حجرتها، فهرعت إليها محاذرة أن توقظ الرجل النائم، فوجدتها جالسة فى الظلام تنتحب، ولما شعرت بدنو أمها تعلقت بها هاتفة:

ـ لو تركت لى ما كان فى بطنها! ظلا منها! يداى فارغتان، والدنيا لا شىء فيها.

فاحتضنتها أمها وهى تقول:

ـ إنى أعلم الناس بحزنك، حزن يجل عن العزاء، ليتنى كنت فداهم، ولكن لله جل وعلا حكمته، وما جدوى الحزن يا مسكينة؟!..

ـ كلما نمت حلمت بهم، أو حلمت بالحياة الأولى..

ـ وحدى الله، ذقت ما تعانين طويلا، أنسيت فهمى؟ ولكن المؤمن المصاب مطالب بالصبر، أين إيمانك؟

فهتفت فى امتعاض:

ـ إيمانى!..

ـ نعم أذكرى إيمانك، وتوسلى إلى ربك تنزل عليك الرحمة من حيث لا تدرين . .

ـ الرحمة ! . . أين الرحمة أين؟!

ـ رحمته وسعت كل شىء، طاوعينى وتعالى معى إلى الحسين، ضعى يدك على الضريح واتلى الفاتحة تتحول نارك إلى برد وسلام كنار سيدنا إبراهيم . .

ولم يكن موقفها حيال صحتها دون ذلك اضطرابا، فحينا تتردد على الأطباء فى مثابرة وانتظام حتى يظن بها العودة إلى الاستمساك بأهداب الحياة، وحينا تهمل نفسها وتزدرى كافة النصائح لدرجة الانتحار. أما زيارة القرافة فهى التقليد الوحيد الذى لم تشذ عنه مرة واحدة، وكانت تنفق فيها بسخاء وتهبها عن طيب خاطر كل ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها حتى استحال حول المقبرة حديقة غناء موشاة بالأزهار والرياحين. ويوم جاءها إبراهيم شوكت لإتمام إجراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت لأمها :

ـ هنئينى على ميراثى من نعيمة . .

وكان كمال يمر بها كلما آنس منها استقراراً، فيجالسها مليا ملاطفًا متوددا. كان يتأملها طويلاً صامتًا، ويتخيل محزونًا الصورة الذاهبة التى أبدع الله صنعها، ثم يتفحص ما آلت إليه. لم تكن هزيلة فحسب، ولا مريضة فحسب، ولكن محزنة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما بينهما من أوجه الشبه فى الحظ، فهى قد فقدت ذريتها وهو قد فقد آماله، وانتهت إلى لا شىء كما انتهى إلى لا شىء، بل كان أبناؤها لحمًا ودمًا أما آماله فكانت كذبًا وأوهاما! وقال لهم يومًا :

ـ أليس من الأفضل أن تذهبوا إلى المخبأ إذا أطلقت صفارة الانذار؟

فقالت عائشة :

ـ لن أغادر حجرتى . .

وقالت الأم :

ـ إنها غارات آمنة ومدافع كالصواريخ . .

أما أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول :

ـ لو أن بى قدرة على الذهاب إلى المخبأ لذهبت إلى الجامع أو إلى بيت محمد عفت . .

ويوما جاءت عائشة من السطح مهرولة وهى تلهث وقالت لأمها :

ـ حدث شىء عجيب ! . .

فنظرت إليها أمها فى استطلاع مشوب بالرجاء ، فعادت تقول وهى ما تزال تلهث :

ـ كنت فى السطح أراقب غروب الشمس ، وكنت على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل ، وفجأة فتحت فى السماء نافذة من نور بهيج فصحت بأعلى صوتى «يا رب» .

اتسعت عينا الأم فى تساؤل ، أهى الرحمة المنشودة أم هاوية جديدة من الأحزان؟ وتمتمت :

ـ لعلها رحمة ربنا يا ابنتى ! . .

فقال ووجهها يتهلل بشرا :

ـ نعم ، صحت يا رب ، وكان النور يملأ الدنيا . .

وراحوا جميعا يفكرون فى الأمر ويراقبون الحال فى قلق بالغ . أما عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها من السطح مترقبة النور أن يومض مرة أخرى ، حتى قال كمال لنفسه «ترى أهى النهاية التى يهون إلى جانبها الموت؟» ولكن من حسن الحظ ـ حظ الجميع ـ أنها تناست الأمر مع الأيام ولم تعد تذكره ، ثم لم تزل توغل فى دنيا خاصة خلقتها لنفسها ، وعاشت فيها وحدها ، وحدها سواء أكانت منفردة فى حجرتها أو جالسة بينهم ، إلا ساعات متباعدة تثوب فيها إليهم كالعائدة من سفر ، ثم لاتلبث أن تواصل الرحيل . والتصقت بها عادة جديدة هى

محادثة نفسها، خاصة حين انفرادها، وشد ما أثارت بذلك القلق، غير أنها كانت تخاطب أمواتًا وهى مدركة لحال موتهم، ولم تتخيل أمواتًا أو أشباحًا، وفى ذلك كان عزاء المحيطين بها. .

٣٢

ما أقسى البرد هذا الشتاء! يذكر بشتاء قديم ظل الناس يؤرخون به جيلاً، شتاء أى عام يا ترى؟ رباه أين الذاكرة التى تعى ذلك أين؟ غير أن القلب العجوز يحن إليه فى مجهوله، فهو جزء من الماضى الذى تهيج ذكراه الدموع فى مكامنها، الماضى الذى كان يستيقظ فيه مبكرًا فيستحم تحت الدش غير مبال برد الشتاء ثم يملأ بطنه وينطلق إلى دنيا الناس، دنيا الحركة والحرية التى لا يعرف اليوم عنها شيئًا اللهم إلا ما يجود به الرواة، وكأنهم يحدثون عن عالم فى أقصى الأرض. كانت له الحرية والقدرة على أن يجلس على الكنبة فى الحجرة أو على الكرسى فى المشربية وكان مع ذلك يضيق بسجن البيت، وكان يذهب حين الحاجة إلى الحمام أو يغير ملابسه بنفسه ومع ذلك لعن قعدة البيت، وكان له يوم فى الأسبوع يستطيع أن يغادر البيت متوكئا على عصاه أو راكبًا عربة فيزور الحسين أو بيت أحد الأصدقاء ومع ذلك فطالما دعا الله أن ينقذه من محبس البيت. أما اليوم فلم يسعه أن يغادر الفراش، ولم تعد حدود عالمه تجاوز أطراف هذه الحشية، حتى الحمام يجىء إليه ولا يذهب هو إليه، قذارة لم تكن فى الحسبان، حتى استقر الامتعاض على شفتيه، وأسكنت المرارة فى لعابه، على هذه الحشية يرقد نهارًا وينام ليلاً ويتناول طعامه ويقضى حاجته. وهو من كان يضرب بأناقته المثل ويسير الشذا الطيب بين يديه، وفى هذا البيت الذى استكان عمره لإرادته المطلقة غدا

ينظر فلا يلقى إلا نظرات الرثاء أو يرجو فيعاتب كالأطفال، وذهب الأحباب فى فترات متقاربة من الزمن كأنهم كانوا على ميعاد، ذهبوا وتركوه وحيداً، عليك رحمة الله يا محمد يا عفت، كان آخر العهد به سهرة من ليالى رمضان فى السلاملك المطل على الحديقة، ثم ودعه ومضى وضحكته العالية توصله إلى الباب، وما كاد يأوى إلى حجرته حتى طرق الباب طارق وهرع إليه رضوان وهو يقول «جدى مات يا جدى» يا سبحان الله متى؟ . . وكيف ؟ . . ألم يضاحكنا منذ دقائق؟ ولكنه سقط على وجهه وهو فى طريقه إلى مخدعه، هكذا انطوى حبيب العمر . وعلى عبد الرحيم الذى احتضر ثلاثة أيام كاملة، سعال حاد متقطع حتى فزعنا إلى الله أن يحسن خاتمته ويريحه من الألم، واختفى من دنياى أليف الروح على عبد الرحيم، وقد ودع هذين الحبيبين أما إبراهيم الفار فلم يودعه، كان اشتداد المرض قد أقعده فى فراشه ومنعه عن عيادته فنعاه إليه خادمه، وحتى الجنازة لم يشيعها فشيعها عنه ياسين وكمال. فإلى رحمة الله يا ألطف الناس طرا، ومن قبل هؤلاء مات حميدو والحمزاوى وعشرات من المعارف والأصحاب، تركوه وحيداًكأنه لم يعرف من الناس أحداً، لا زائر له ولا عائد، وجنازته لن يشيعها صديق، حتى الصلاة حيل بينه وبينها، وهل يتمتع بالطهر إلا ساعات عقب استحمام لا يجود به أولياء الأمر إلا مرة كل أشهر؟ فحرم من الصلاة وهو أشد ما يكون حاجة إلى مناجاة الرحمن فى هذه الوحدة الموحشة. هكذا تمضى الأيام، الراديو يتكلم وهو يسمع، وأمينة تذهب وتجىء، وشد ما ركبها الوهن، غير أنها لم تعتد الشكوى، إنها ممرضته وأخوف ما يخاف أن تحتاج غداً إلى من يمرضها، وهى كل ما بقى له، أما ياسين وكمال فيمكثان عنده ساعة ثم يذهبان، ود لو لم فارقاه، ولكنها أمنية لا يستطيع أن يعلنها ولن يستطيعا أن يحققاها، أمينة وحدها التى لا تمله، وإذا ذهبت لزيارة الحسين فلكى

تدعو له، والعالم بعد ذلك فراغ. وإن يوم زيارة خديجة له ليوم يستحق الانتظار، تجيء وفى صحبتها إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، فتمتلئ الحجرة بالأحياء وتتبدد وحشتها، وقليلاً ما يتكلم هو أما هم فيتكلمون كثيراً، ومرة خاطبهم إبراهيم قائلاً: «أريحوا السيد من ثرثرتكم»، فقال له معاتبًا: «دعهم يتكلموا.. أريد أن أسمعهم!».
ودعا لابنته بالصحة وطول العمر ودعا لزوجها وابنيها، وكان يعلم بأنها تود لو تسهر على راحته بنفسها، وكان يطالع فى عينيها حنانًا ما وراءه حنان، ويومًا سأل ياسين فى شوق واستطلاع باسمًا:

ـ أين تمضى سهراتك؟

فقال فى حياء:

ـ اليوم الإنجليز فى كل مكان كأيام زمان..

أيام زمان! أيام القوة والبأس، والضحك الذى تهتز له الجدران، وسهر الغورية والجمالية، والناس الذين لم يبق منهم إلا أسماء، زبيدة وجليلة وهنية ترى ألا تذكر أمك يا ياسين؟ وها هى زنوبة وكريمة تجلسان إلى جانب والدها، ودواما ستطلب الرحمة والغفران..

ـ من بقى من معارفنا القدامى فى وزارتك يا ياسين؟

ـ أحيلوا جميعًا إلى المعاش، ولم أعد أدرى عنهم شيئًا!

ولا هم يدرون عنا شيئًا، أصدقاء القلب ماتوا فما لنا نسأل عن المعارف، ولكن ما أجمل كريمة! فاقت أمها فى زمانها، ومع ذلك لم تعد الرابعة عشرة، ونعيمة ألم تكن آية فى الجمال؟!

ـ ياسين إن استطعت أن تقنع عائشة بزيارتك فافعل، انتشلوها من وحدتها فإنى أخاف عليها منها..

فقالت زنوبة:

ـ طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكنها. . . ، كان الله فى عونها! . .

ولاحت فى عينى الرجل نظرة قاتمة، ثم إذا به يسأل ياسين :

ـ ألا تصادف فى طريقك الشيخ متولى عبد الصمد؟

فقال ياسين باسما :

ـ أحيانا، إنه لا يكاد يعرف أحدًا، ولكنه ما زال يسير على قدمين قويتين! . .

يا للرجل! ، ألم تنازعه نفسه مرة إلى زيارتى؟ أم نسينى كما نسى أبنائى من قبل؟!

ولما ذهب الأصدقاء اتخذ الرجل من كمال صديقًا، ولعله فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذى عهده، وغدا صديقًا يناجيه ويتشوق إلى مناجاته، وكان يقول عنه آسفا : «أعزب فى الرابعة والثلاثين من عمره، يعيش أكثر حياته فى حجرة مكتبه، كان الله فى عونه»، ولم يكن يعد نفسه مسئولا عما صار إليه أمره، فقد أبى من أول الأمر أن يصنع نفسه بنفسه، وانتهى به الحال إلى أن يكون مدرسًا أعزب «قعيدًا مقطوعًا» فى حجرته. وكان يتجنب أن يثقل عليه بسيرة الزواج أو دروس الخصوصية، كما كان يدعو الله أن يكفيه مدخره من النقود حتى الرمق الأخير كيلا يكون يومًا عالة عليه، ويومًا سأله :

ـ هل تعجبك هذه الأيام؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة، وتردد فى الجواب، فاستطرد الرجل قائلاً :

ـ الأيام الحقيقية كانت أيامنا! كانت يسرا ورغدًا، وصحة وعافية، شهدنا سعد زغلول، وسمعنا سى عبده، ماذا فى أيامكم؟!

فأجاب كمال مأخوذا بتداعى معانى الحديث فحسب :

ـ لكل زمان محاسنه ومعايبه . .

فهز الرجل رأسه المسند إلى مخدة مكسورة وراء ظهره وقال :

ـ كلام يقال ليس إلا . .

ثم بعد فترة صمت ودون تمهيد :

ـ عجزى عن الصلاة يحز فى نفسى حزا ، فالعبادة عزاء الوحدة ، ومع ذلك تمر بى أوقات غريبة أنسى فيها كافة وجوه الحرمان التى أعانيها من مأكل ومشرب وحرية وعافية ، تصفو نفسى صفاء عجيبًا حتى يخيل إلى أنى متصل بالسماوات ، وأن ثمة سعادة مجهولة تزرى بالحياة وما فيها .

فتمتم كمال :

ـ ربنا يمد فى عمرك ويرد إليك العافية . .

فهز رأسه مرة أخرى فى استسلام ، وقال :

ـ هذه ساعة طيبة ، لا ألم فى الصدر ، ولا ضيق فى التنفس ، وورم ساقى آخذ فى الزوال ، وموعدنا فى الراديو مع ما يطلبه المستمعون ! . .

وإذا بصوت أمينة يقول :

ـ سيدى بخير ؟

ـ الحمد لله .

ـ هل آتى بالعشاء ؟

ـ العشاء ؟ ! أما زلت تسمينه العشاء ؟ ! هاتى سلطانية اللبن ! . .

٣٣

بلغ كمال بيت أخته بالسكرية حوالى العصر فوجد الأسرة مجتمعة فى الصالة بكامل هيئتها، فصافحهم وهو يقول مخاطبًا أحمد:

ـ مبارك الليسانس. . .

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معانى الابتهاج:

ـ مبارك عليك، ولكن تعال اسمع آخر خبر، البك لا يريد أن يتوظف. .

وقال إبراهيم شوكت:

ـ ابن خاله رضوان مستعد لتوظيفه إذا وافق ولكنه يصر على الرفض، كلمه يا أستاذ كمال لعله يقتنع برأيك أنت. .

خلع كمال طربوشه، ونزع ـ من شدة الحر ـ الجاكتة البيضاء فألبسها مسند كرسى، ومع أنه كان يتوقع معركة إلا إنه قال باسمًا:

ـ حسبت أن اليوم سيكون خالصًا للتهنئة، ولكن هذا البيت لا يسلو النزاع أبدًا!

فقالت خديجة بلهجة أسيفة:

ـ قسمتى، الناس كلهم حال ونحن وحدنا حال.

وخاطب أحمد خاله قائلاً:

ـ الأمر بسيط، ليس أمامى الآن إلا وظيفة كتابية، فقد أخبرنى رضوان أنه يمكن تعيينى الآن فى وظيفة كتابية خالية بإدارة المحفوظات عند خالى ياسين، واقترح على أن أنتظر ثلاثة أشهر

حتى بدء العام الدراسى الجديد لعلى أعين مدرس لغة فرنسية فى إحدى المدارس، ولكنى لا أريد الوظيفة أيًا كان نوعها!

فهتفت خديجة:

ـ قل له ماذا تريد؟

فأجاب الشاب ببساطة وحزم:

ـ سأعمل فى الصحافة.

فنفخ إبراهيم شوكت قائلاً:

ـ جورنالجى! كنا نسمع هذا الكلام فنظنه ضحكًا وعبثًا، يأبى أن يكون مدرسًا مثلك ويسعى إلى أن يكون جورنالجيا..

فقال كمال فى لهجة ساخرة:

ـ كفاه الله شر مهنة التدريس!

فقالت خديجة فى انزعاج:

ـ وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيا؟

وهنا قال عبد المنعم ملطفًا الجو:

ـ لم تعد الوظيفة بالمطلب السعيد!

فقالت أمه بحدة:

ـ لكنك موظف ياسى عبد المنعم..

ـ فى كادر ممتاز، ولكنى لا أرضى له وظيفة كتابية، وهاهو خالى كمال يستعيذ من مهنته..

ـ فى أى نوع من الصحافة تريد أن تعمل؟

ـ الأستاذ عدلى كريم موافق على قبولى فى مجلته تحت التمرين لأقوم بالترجمة أولا ثم بالتحرير فيما بعد..

ـ ولكن «الإنسان الجديد» مجلة ثقافية محدودة الموارد والمجال؟..

ـ هى خطوة أولى للتمرين حتى يتيسر لى عمل أهم، وعلى أى حال ففى وسعى أن أنتظر دون أن أجوع . .

فنظر كمال إلى خديجة قائلاً :

ـ دعى الأمور تجرى كما يشاء، إنه راشد مثقف وأدرى بما يفعل .

ولكن خديجة لم تسلم بالهزيمة بسهولة، وعادت تحاول إقناع ابنها بقبول الوظيفة حتى علا صوتهما واحتد فتدخل كمال ليخلص بينهما، ثم تكدر جو المجلس وساد صمت ثقيل حتى قال كمال ضاحكًا :

ـ جئت طامعًا فى شرب الشربات فكانت هذه العكننة نصيبى .

وفى أثناء ذلك ارتدى أحمد ملابسه ليغادر البيت، فاستأذن كمال وخرجا معا، وسارا فى شارع الأزهر، وقد صارح أحمد خاله بأنه ماض إلى مجلة «الإنسان الجديد» ليتسلم عمله كما وعده الأستاذ عدلى كريم، فقال له كمال :

ـ افعل ما تشاء ولكن تجنب إيذاء والديك . .

فقال أحمد ضاحكًا :

ـ إنى أحبهما وأجلهما ولكن . .

ـ ولكن . . ؟

ـ من الخطأ أن يكون للإنسان والدان ! .

كمال ضاحكًا :

ـ كيف هان عليك أن تقول ذلك؟

ـ لا أعنى حرفيته، ولكن ما يرمز إليه الوالدان من تقاليد الماضى، فالأبوة على وجه العموم فرملة، وما حاجتنا فى مصر إلى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبلة بالأغلال؟ !

ثم مواصلا الحديث بعد تفكير :

ـ إن مثلى لن يعرف الكفاح بمعناه المر ما دم لى بيت ولأبى دخل، ولا أنكر أنى مطمئن بذلك ولكن فى الوقت نفسه خجل منه!

ـ متى ينتظر منك أن تؤجر على عملك؟

ـ لم يحدد الأستاذ وقتًا . .

وعند العتبة الخضراء افترقا، فمضى أحمد إلى مجلة «الإنسان الجديد»، وقد استقبله الأستاذ عدلى كريم مشجعًا، وذهب معه إلى حجرة السكرتارية حيث خاطب من فيها قائلاً:

ـ زميلكم الجديد الأستاذ أحمد إبراهيم شوكت . .

ثم قدم إليه زملاءه قائلاً:

ـ آنسة سوسن حماد، الأستاذ إبراهيم رزق، الأستاذ يوسف الجميل . . وصافحوه مرحبين، ثم قال إبراهيم رزق مجاملاً:

ـ اسمه معروف فى مجلتنا . .

وقال الأستاذ عدلى كريم باسمًا:

ـ إنه الابن البكر للإنسان الجديد . . (ثم وهو يشير إلى مكتب يوسف الجميل) . . ستعمل على هذا المكتب فإن عمل صاحبه فى الخارج إلا فيما ندر . .

وغادر عدلى كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل أحمد إلى الجلوس على كرسى قريب من مكتبه، وانتظر حتى جلس ثم قال:

ـ ستوجهك الآنسة سوسن إلى العمل الذى سيناط بك، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة . . وضغط على زر الجرس على حين راح أحمد يتصفح الوجوه والمكان، كان إبراهيم رزق كهلا مهدمًا يبدو أكبر من سنه بعشرة أعوام، أما يوسف الجميل فكان فى العقد الأخير من الشباب، وكان مظهره ينم على الحذق والذكاء. ورمى ببصره إلى سوسن حماد وهو يسائل نفسه ترى هل تذكره؟ ولم

يكن رآها منذ أول مقابلة عام ١٩٣٦ والتقت عيناهما فسألها باسما مدفوعًا برغبة فى الخروج عن صمته :

ـ قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات . .

فلاح التذكر فى عينيها اللامعتين فاستدرك قائلاً :

ـ كنت أسأل عن مصير مقالة تأخر نشرها!

فقالت باسمة :

ـ أكاد أذكرك ، وعلى كل فقد نشرنا منذ ذلك التاريخ مقالات كثيرة! . .

فقال يوسف الجميل معلقًا :

ـ مقالات تنم عن روح تقدمية طيبة . .

وقال إبراهيم رزق :

ـ إن الوعى اليوم غيره بالأمس ، كلما نظرت فى الطريق قرأت على الجدران عبارة «الخبز والحرية» هذا شعار الشعب الجديد .

فقالت سوسن حماد باهتمام :

ـ ما أجمله من شعار ، خاصة فى هذا الوقت الذى أطبق فيه الظلام على العالم! . .

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعًا ـ وفى حماس وسرور ـ للجو المحيط به وقال :

ـ الظلام يطبق على العالم حقًا ، ولكن ما دام هتلر لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل فى النجاة .

فقالت سوسن حماد :

ـ إنى أنظر إلى الموقف من زاوية أخرى ، ألا ترى أن هتلر لو هاجم بريطانيا فمن المختمل أن يهلكا معا أو فى الأقل أن ينتقل مركز القوة إلى روسيا؟ . .

ـ وإذا حدث العكس؟ أعنى أن يجتاح هتلر الجزيرة ويبلغ ذروة القوة؟!..

فقال يوسف الجميل:

ـ كان نابليون كهتلر غازى أوروبا ولكن روسيا كانت مقبرته.

ووجد أحمد نشاطًا وحماسًا لم يشعر بمثلهما من قبل. هذا الهواء النقى، وهؤلاء الزملاء الأحرار، وهذه الزميلة المستنيرة الحسناء. ولداع أو لآخر ذكر علوية صبرى، وعام العذاب الذى صارع فيه الحب الخائب حتى صرعه، حين كان يصبح ويمسى وهو يلعن الحب من صميم قلبه حين تطاير فى الهواء تاركًا فى أعماق النفس آثارًا من الامتعاض والتمرد لا تزول. إنها الآن فى بيتها فى المعادى تنتظر زوجًا ذا خمسين جنيها شهريًا على الأقل، أما هذه الفتاة التى تدعو بالنصر لروسيا فماذا تنتظر يا ترى؟..

وإذا بسوسن تلوح برزمة أوراق فى وجهه وهى تقول برقة:

ـ تسمح!..

فنهض، ثم مضى إلى مكتبها باسما ليبدأ عمله الجديد..

٣٤

لم يكن يوسف الجميل يمر بالمجلة إلا يومًا فى الأسبوع أو يومين إذ كان جل نشاطه موجها للإعلانات والاشتراكات، كذلك إبراهيم رزق لم يمكث فى السكرتارية أكثر من ساعة ثم يدور على بقية المجالات التى يعمل بها، فكان أكثر الوقت يمضى وهما منفردان. أحمد وسوسن. ومرة جاء رئيس عمال المطبعة ليأخذ بعض الأصول فما راعه إلا أن

يسمعها وهى تدعوه «أبى»! وعلم بعد ذلك أن ثمة صلة قربى تربط الأستاذ عدلى كريم نفسه برئيس عمال المطبعة. كان ذلك مفاجئا ومثيرا، وراعه أكثر من سوسن مثابرتها على العمل، كانت محور التحرير ومركز نشاطه، بيد أنها كانت تعمل أكثر مما يستوجبه تحرير المجلة، فما تزال تقرأ أو تكتب. وبدت جادة حادة شديدة الذكاء، وشعر من أول الأمر بقوة شخصيتها، حتى كان يخيل إليه بعض الأحيان - رغم عينيها السوداوين الجذابتين وجسمها الأنثوى اللطيف - أنه حيال رجل قوى الإرادة حسن التنظيم، ثم تأثر بنشاطها فثابر على عمله بهمة لاتعرف الكلل أو الملل، وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلات العالم الثقافية، إلى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن. وقد قال لها يومًا:

- إن الرقابة تقف لنا بالمرصاد..

فقالت بصوت يدل على الحنق والازدراء:

- أنت لم تر شيئا بعد، مجلتنا «مشبوهة» فى الدوائر العليا! ولها الشرف!..

فقال أحمد باسمًا:

- تذكرين طبعًا افتتاحيات الأستاذ عدلى كريم قبل الحرب؟

- لقد عطلت مجلتنا مرة فى عهد على ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة العرابية اتهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة.

ويومًا سألته ضمن حديث عابر:

- لماذا اخترت الصحافة؟..

فتفكر قليلاً، إلى أى درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهذه الفتاة التى تبدو طرازا وحدها بين من عرف من بنات جنسها:

- لم أدخل الجامعة لأتوظف، ولكن عندى أفكار أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل إلى ذلك خير من الصحافة..

فقالت باهتمام سر له من أعماقه :

ـ أما أنا فلم أدرس فى الجامعة ، أو بالحرى لم تتح لى فرصة (سرته صراحتها كذلك وإن أكدت فى نفسه مخالفتها لبنات جنسها) . . إنى متخرجة من مدرسة الأستاذ عدلى كريم ، وهى ليست دون الجامعة منزلة ، درست عليه منذ حصولى على البكالوريا ، وأصارحك بأنك أحسنت تعريف الصحافة ، أو الصحافة التى نعمل فيها ، بيد أنك تنفس عن أفكارك ـ حتى الآن ـ عن طريق غيرك ، أعنى بالترجمة ، ألم تفكر فى اختيار الشكل الذى يناسبك من أشكال الكتابة؟

فصمت مفكراً كأنما أغلق عليه المعنى المقصود ثم تساءل :

ـ ماذا تعنين؟

ـ المقال ، الشعر ، القصة ، المسرحية؟

ـ لا أدرى ، المقالة أول ما يتبادر إلى الخاطر . .

قالت بلهجة ذات معنى :

ـ نعم ، ولكنها لظروفنا السياسية ، لم تعد مطلبا يسيرا ، لذلك يضطر الأحرار إلى إذاعة آرائهم بالمنشورات السرية ، المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهى خطيرة ، خاصة وأن الأعين محملقة فينا ، أما القصة فذات حيل لاحصر لها ، إنها فن ماكر ، وقد غدت شكلاً أدبيًا شائعًا سوف ينتزع الإمامة فى عالم الأدب فى وقت قصير ، ألا ترى أنه ما من كبير من شيوخ الأدب إلا وهو يثبت وجوده فى مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد؟

ـ نعم ، قرأت أكثر هذه المؤلفات ، ألم تقرئى للأستاذ رياض قلدس الكاتب بمجلة الفكر؟

ـ هذا واحد من كثيرين ، وليس خيرهم!

ربما، لقد لفتنى إليه خالى الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلة.

فقالت باسمة:

ـ هو خالك؟ قرأت له مرات، ولكن..

ـ ؟...

ـ معذرة إنه من الكتاب الذين يهيمون فى تيه الميتافيزيقا!

فتساءل فيما يشبه القلق:

ـ ألم يعجبك؟

ـ الإعجاب شيء آخر، إنه يكتب كثيراً عن الحقائق القديمة: الروح.. المطلق.. نظرية المعرفة، هذا جميل، ولكنه ـ فيما عدا المتعة الذهنية والترف الفكرى ـ لا يفضى إلى غاية، ينبغى أن تكون الكتابة وسيلة محددة الهدف، وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالإنسان فى سلم الرقى والتحرر، الإنسانية فى معركة متواصلة والكاتب الخليق بهذا الاسم حقًا يجب أن يكون على رأس المجاهدين، أما وثبة الحياة فلندعها لبرجسون وحده..

ـ ولكن كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفًا ناشئا يهيم فى تيه الميتافيزيقا.

ـ وانتهى بعلم الاجتماع العلمى، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ.

لم يرتح أحمد إلى نقد خاله على هذا النحو، فقال بغية الدفاع عنه قبل كل شيء:

ـ الحقيقة جديرة دائمًا بأن تعرف، مهما تكن، ومهما يكن الرأى فى آثارها..

فقالت سوسن فى حماس:

ـ هذا مناقض لما تكتب، فأراهن على أنك متأثر بالوفاء لخالك!

عندما يكون الإنسان متألمًا يركز اهتمامه فى إزالة أسباب الألم، مجتمعنا متألم جداً فيجب ان نزيل الألم قبل كل شىء، ولنا بعد ذلك أن نلهو ونتفلسف! ولكن تصور إنسانًا يتفلسف لاهيا وبه جرح ينزف لا يعيره أدنى التفات، ماذا تقول عن مثل هذا الإنسان؟!

أهذا خاله حقًا؟ لكن فليقر بأن كلامها يلقى تجاوبًا كاملا فى نفسه، وبأن عينيها جميلتان، وبأنها رغم غرابتها و«جديتها» جذابة.. جذابة..

ـ الواقع أن خالى لا يعير هذه الأمور التفاتا جديًا، لقد حدثته كثيراً عنها فوجدته إنسانًا يدرس النازية كما يدرس الديموقراطية أو الشيوعية، ولكنه لا هو بارد ولا هو حار، ولم أستطع أن أتبين موقفه..

قالت باسمة:

ـ لا موقف له، إن موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى، إنه مثل من المثقفين البورجوازيين يقرأ ويستمتع ويتساءل، وقد تجده فى حيرة أمام «المطلق»، وربما بلغت به الحيرة حد الألم، ولكنه يمر سادراً بالمتألمين الحقيقيين فى طريقه..

فقال ضاحكًا:

ـ ليس خالى كذلك..

ـ أنت أدرى، كذلك قصص رياض قلدس ليست بالقصص المنشودة، إنها واقعية وصفية تحليلية، ولا تتقدم عن ذلك خطوة، لا توجيه بها ولا تبشير!

ففكر أحمد قليلاً ثم قال:

ـ ولكنه كثيراً ما يصف حال الكادحين من العمال والفلاحين، ومعنى هذا أنه يهب مسرح البطولة فى أقاصيصه للطبقة الكادحة!

ـ ولكنه يقتصر على الوصف والتحليل، إنه لعمل سلبى بالنسبة للمعركة الحقيقية! . .

يا لها من فتاة تروم العراك! شديدة الجد فيما يبدو، ولكن أين المرأة؟!

ـ وكيف تريدينه أن يكتب؟

ـ أقرأت شيئا عن الأدب السوفيتى الحديث، بل أقرأت مكسيم جوركى؟

فصمت باسما، لا داعى للخجل، كان طالب اجتماع لا طالب أدب، ثم أنها تكبره بسنوات، ترى ما عمرها؟ ربما كانت فى الرابعة والعشرين أو أكثر! وعادت تقول:

ـ هذا ما ينبغى أن تقرأ من ألوان الأدب، سأعيرك بعضه إذا شئت . .

ـ بكل سرور . .

فابتسمت قائلة:

ـ ولكن الإنسان «الحر» لا يكفى أن يكون قارئا أو كاتبًا! إن المبادئ تتعلق بالإرادة قبل كل شىء، الإرادة أولاً وقبل كل شىء.

مع ذلك رآها أنيقة، أجل ليس فى وجهها زواق، ولكن عنايتها بمظهرها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها، هذا الصدر الحى مؤثر كغيره من الصدور الفاتنة، ولكن مهلاً هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ؟ طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر إلى المرأة إلا من زاوية خاصة! . .

ـ إنى مسرور بمعرفتك، وأرى أنه أمامنا أكثر من مجال للعمل معًا كيد واحدة . .

فقالت باسمة ـ وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كل شىء:

ـ هذا إطراء! . .

ـ إنى مسرور بمعرفتك حقًا . .

أجل إنه كذلك، ولكن ينبغى ألا يسىء فهم ما ينفعل به صدره فلعله الاستجابه الطبيعية لمراهق مثله، واصطنع الحذر حتى لا ترمى بنفسك إلى مثل موقفك بالمعادى، فإن الحزن لم يمح بعد من صفحة قلبى . .

٣٥

ـ مساء الخير يا عمتى .

وتبع جليلة إلى مجلسها المختار فى الصالة، وما استقر بهما المجلس فوق الكنبة حتى نادت المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب وجعلت ترقيها وهى تعد الخوان حتى فرغت من مهمتها وذهبت، وعند ذاك التفتت جليلة إلى كمال قائلة :

ـ يا ابن أخى، أقسم لك أننى لم أعد أشرب إلا معك، كل ليلة جمعة، كما كان يحلو لى أن أشارب أباك فى الزمن القديم، ولكن فى ذلك الزمن أشارب الكثيرين أيضًا . .

وقال كمال فى نفسه : «ما أحوجنى إلى الشراب، لا أدرى ماذا كانت تكون الحياة بدونه!» ثم قال يحاورها :

ـ ولكن الويسكى اختفى يا عمتى، وكذلك كافة المشروبات النظيفة، ويقال إن الغارة الألمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خمور عالمى حتى سالت الوديان بالويسكى الأصيل . .

ـ يا روحى على غارة من هذا النوع! ولكن خبرنى قبل أن تسكر كيف حال السيد أحمد؟

ـ لا تقدم ولا تأخر، يعز على يا ست جليلة مرقده، ربنا يلطف به . .

ـ يا ما نفسى أزوره، ألا تجد الشجاعة فتبلغه عنى السلام؟

ـ يا خبر! . لم يبق إلا هذا حتى تقوم الساعة!

فضحكت العجوز ثم قالت :

ـ أتحسب أن رجلاً مثل السيد أحمد يمكن أن يتصور البراءة فى إنسان خاصة إذا كان من صلبه؟

ـ ولو يا زين الستات! . . صحتك . .

ـ صحتك . . ، ربما تأخرت عطية إذ أن ابنها مريض . .

فقال كمال فى شىء من الاهتمام :

ـ فى آخر مرة لم يكن بها شىء! . .

ـ نعم ولكن ابنها مرض يوم السبت الماضى، روحها المسكينة فى ابنها، وإذا مسه سوء طارت أبراج عقلها . .

ـ يا لها من امرأة طيبة عاثرة الحظ، طالما أقنعتنى أحوالها بأنها لا تمارس هذه الحياة إلا مضطرة . .

فقالت جليلة باسمة أو ساخرة :

ـ إذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى هى بمهنتها؟

ومرت الخادم بمجمرة تنفث بخورا لطيفا، وكان جو الخريف يهفو رطيبًا من نافذة فى نهاية الصالة، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنها قوية الأثر، غير أن كلام جليلة عن المهنة ذكره بأمور كاد ينساها فقال :

ـ كدت أنقل من مصر يا عمتى، ولو وقع المحظور لكنت الآن أعد الحقائب للسفر إلى أسيوط! . .

فضربت جليلة صدرها بكفها وقالت :

ـ أسيوط يا بلح!، أسيوط فى عين عدوك، وماذا حصل؟

ـ سليمة والحمد لله!

ـ معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل . .

فهز رأسه كالموافق دون تعليق. إنها ما زالت ترى أباه في هالة المجد القديم، لا تدرى أنه ـ حين أخبره عما تقرر عن نقله ـ قال محزونا آسفًا «لم يعد يعرفنا أحد، أين أصدقاؤنا أين؟»، وقبل ذلك مضى إلى صديقه القديم فؤاد جميل الحمزاوى لعله يعرف أحدًا من كبار رجال المعارف ولكن القاضى الخطير قال له» إنى آسف جدًا يا كمال فأنا بصفتى قاضيًا لا أستطيع أن أرجو أحدًا». وأخيرًا لجأ إلى رضوان ابن أخيه وهو يتعثر بخجله، وفى نفس اليوم عدل عن نقله! «يا له من شاب خطير! كلالهما موظف فى وزارة واحدة وفى درجة واحدة رغم أنه فى الخامسة والثلاثين والشاب فى الثانية والعشرين، ولكن كيف ينتظر من خوجة ابتدائى أفضل من هذا؟ ولم يعد من الممكن أن يتعزى بالفلسفة أو يدعيها، فليس الفيلسوف من ردد قول الفلاسفة، كالببغاء، واليوم كل متخرج فى كلية الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن، وقد كان هناك ثمة أمل فى أن يجمع ناشر مقالاته فى كتاب، ولكن لم يعد لمثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر، وما أكثر الكتب هذه الأيام، وهو فى هذا الخضم لا شىء، وقد مل حتى طفح بالملل. فمتى يدرك قطاره محطة الموت؟ ونظر إلى الكأس فى يد عمته، ثم إلى وجهها الناطق بعمرها المديد فلم يسعه إلا الإعجاب بها، ثم تساءل:

ـ ماذا تجدين فى الشراب يا عمتى؟ . .

فافتر فوها عن أسنان ذهبية وهى تقول:

ـ وهل تحسبنى أشرب الآن؟، مضى ذلك الزمان، لا طعم لها اليوم ولا أثر، كالقهوة لا أكثر ولا أقل، فى الزمان الأول سكرت مرة فى فرح ببيرجوان حتى اضطر التخت أن يحملنى إلى عربتى آخر الليل، ربنا يكفيك شرها! . .

«ولكنها خير من لا خير له» . .

ـ وذروة النشوة هل عرفتها؟ كنت أبلغها بكأسين، اليوم يلزمنى ثمانية كئوس كى أبلغها، ولا أدرى كم غدا، ولكنها ضرورية يا عمتى، فعندها يرقص القلب المكلوم طربًا . .

ـ قلبك طروب يا بن أخى دون الحاجة إلى الخمر . .

قلبه طروب! وهذا الحزن الصديق؟ والرماد المتخلف من محترق الآمال؟، لم يبق للملول إلا الامتلاء بالخمر، فى هذه الصالة أو فى تلك الحجرة إذا جاءت التى تداوى ابنها، هو وهى فى موضع واحد من الحياة، حياة من لا حياة لهم.

ـ أخشى ألا تجىء عطية! . .

ـ ستجئ حتمًا، أليس المرض فى حاجة إلى النقود؟

يا له من جواب! بيد أنها لم تمكنه من التفكير إذ مالت نحوه فى اهتمام، ونظرت إليه مليا، ثم قالت بصوت منخفض:

ـ لم يبق إلا أيام! . .

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها:

ـ ربنا يطول عمرك ولا يحرمنى منك!

فقالت باسمة:

ـ سأهجر هذه الحياة!

فانتصب نصفه الأعلى فى دهشة وهتف:

ـ ماذا قلت؟!

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية:

ـ لا تخف، ستذهب بك عطية على بيت آمن كهذا البيت . .

ـ ؟! . . .

ـ ولكن ماذا حدث؟

ـ كبرت يا ابن أخى، وأغنانى الله فوق حاجتى، وبالأمس ضبط بيت قريب وسيقت صاحبته إلى القسم، حسبى، إنى أفكر فى التوبة، ينبغى أن أقابل ربى على غير ما أنا عليه!

أتى على بقية كأسه، وملأه كأنما لم يصدق ما سمعه:

ـ لم يبق إلا أن تستقلى السفينة إلى مكة!!

ـ ربنا يقدرنى على فعل الخير..

وتساءل ولما يفق من دهشته:

ـ أجاء هذا كله فجأة؟!

ـ كلا، إنى لا أبوح بسر إلا عند العمل، طالما فكرت فى هذا من زمن...

ـ جد؟!

ـ كل الجد، ربنا معنا!

ـ لا أدرى ماذا أقول، ولكن ربنا يقدرك على فعل الخير.

ـ آمين..

ثم ضاحكة:

ـ ولكن اطمئن فلن أغلق هذا البيت حتى أطمئن على مستقبلك!..

فضحك ضحكة عالية وقال:

ـ هيهات أن أجد بيتا أرتاح فيه كهذا البيت!

ـ لك على أن أوصى بك البدرونة الجديدة ولو كنت فى مكة!

كل شىء يبدو مضحكًا ولكن الخمر ستظل قبلة المحزون، وتتغير الأوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوى ويسفل كمال أحمد عبد الجواد، ولكن الخمر ستظل بشاشة المكروب، ويومًا يحمل كمال رضوان على

كتفه ليدلله ثم يجىء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من عثرته ولكن الخمر ستظل نجدة الملهوف، وحتى الست جليلة تفكر فى التوبة فى الوقت الذى يبحث هو عن ماخور جديد ولكن الخمر ستظل المأوى الأخير، ويمل السقيم كل شىء حتى يمل الملل ولكن الخمر ستظل مفتاح الفرج.

ـ يسعدنى أن أسمع عنك دائمًا ما يسر.

ـ الله يهديك ويسعدك..

ـ إذا كان وجودى يضايقك؟..

وسدت فاه بأصبعها، وقالت:

ـ سامحك الله، هذا بيتك ما دام بيتى، وكل بيت أحل فيه فهو بيتك يا ابن أخى..

أثمة لعنة قديمة مجهولة قضى عليه بأن يكفر عنها؟! كيف المخرج من هذه الحيرة التى تغشى حياته؟ حتى جليلة تفكر جادة فى تغيير حياتها فلم لا يتخذ منها أسوة؟ لا بد للغريق من صخرة يلوذ بها أو فليغرق، وإذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها معنى؟!..

ـ ربما كان من الخطأ أن نبحث فى هذه الدنيا عن معنى بينا أن مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى..

وحدجته جليلة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت إلى ما بدر منه دون شعور. وضحكت جليلة متسائلة:

ـ سكرت بهذه السرعة؟.

فدارى ارتباكه بضحكة عالية، وقال:

ـ خمر الحرب كالسم، لا تؤاخذينى، ترى متى تأتى عطية؟!

٣٦

غادر كمال بيت جليلة عند منتصف الساعة الثانية صباحًا، كان كل شيء غارقًا في الظلام، وكان الظلام غارقًا في الصمت، وسار على مهل نحو السكة الجديدة ثم مال إلى الحسين. حتى متى يعيش في هذا الحي المقدس الذي لم يمت إليه بصلة؟ وابتسم ابتسامة فاترة، لم يكن بقي من الخمر إلا خمارها، أما الجسد فقد خمدت لواعجه، فنقل خطاه في إعياء وكسل. عادة في مثل هذه اللحظة الخامدة يصرخ شيء في أعماقه ـ لا هو التوبة ولا الندم ـ ناشدا التطهر، ملتمسا الخلاص من قبضة الشهوات إلى الأبد، كأن موجة شهواته تنحصر عن صخور تقشف كاملة. ورفع رأسه إلى السماء، كأنما ليستأنس بالنجوم فانطلقت في السكون صفارة الإنذار! ودق قلبه دقة عنيفة ثم حملقت عيناه النائمتان، ثم بدافع غريزي مال إلى أقرب جدار وسار بحذائه، ونظر إلى السماء مرة أخرى فرأى أضواء الكشافات الكهربائية تمسح صفحاتها في سرعة شديدة، تلتقي أحيانًا ثم تتفرق في جنون. وحث خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعوراً موحشًا بوحدته كأن وجه الأرض قد خلا إلا منه! وإذا بصفير مبحوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل، يعقبه انفجار شديد ارتجت له الأرض تحت قدميه، قريب أم بعيد؟ ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته عن الغارات، إذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات، والتمع الجو بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيل إليه أن الأرض تتطاير. وانطلق يعدو بسرعة لا يلوي على شيء صوب درب قرمز ملتمسًا في قبوها التاريخي مخبأ. وكانت المدافع تنطلق في غضب

جنونى، والقنابل تدك مراميها دكا، والأرض تميد. وفى ثوان من الفزع بلغ القبو، وكان يكتظ بخلق كثيرين تكاثفت بهم ظلمته، فاندس بينهم وهو يلهث. وكان جوه يسوده الرعب ويمتلئ بهمهمات الفزع فى ظلام دامس، أما مدخل القبو ومخرجه فيضيئان من آن لآخر بانعكاسات الإشعاعات المنطلقة فى الفضاء، وقد توقف سقوط القنابل أو هذا ما خيل إليهم، أما المدافع فلم يخف جنونها ولم يكن رجعها فى النفوس دون رجع القنابل، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهار صادرة عن نسوة وأطفال ورجال.

- هذه غارة جديدة وليست كالسابقات..

- وهذا الحى القديم هل يتحمل الغارات الجديدة؟!

- اعفونا من هذه الثرثرة وقولوا يارب!

- كلنا يقول يا رب!..

- اسكتوا.. اسكتوا يرحمكم الله!

وكان كمال يلاحظ الضوء الذى ينير مخرج القبو حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيل إليه أنه لمح هيئة أبيه بينها، وخفق قلبه، أيكون حقًا أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق إلى القبو؟ بل كيف استطاع أن يغادر فراشه؟ وشق طريقًا إلى نهاية القبو مخترقًا الكتل البشرية المضطربة، فتبين على التماع الضوء أسرته جميعًا، أباه وأمه وعائشة وأم حنفى! واتجه نحوهم حتى وقف بينهم وهو يهمس:

- أنا كمال!. كلكم بخير؟

لم يجب أبوه، وكان ملقيًا بظهره فى إعياء إلى جدار القبو بين الأم وعائشة، أما الأم فقالت:

- كمال؟ الحمد لله، شىء فظيع يا بنى، ليست ككل مرة، خيل إلينا

أن البيت سينقض فوق رءوسنا، وربنا شد حيل أبيك فنهض وجاء بيننا، لا أدرى كيف جاء ولا كيف جئنا . .

وغمغمت أم حنفى :

ـ عنده الرحمة، ما هذا الهول؟! ربنا يلطف بنا . .

وفجأة هتفت عائشة :

ـ متى تسكت هذه المدافع؟!

وخيل إلى كمال أن صوتها ينذر بانهيار عصبى فاقترب منها وأمسك بكفها بين يديه وكأنه قد استرد بعض وعيه المفقود عندما وجد نفسه حيال من هم فى حاجة إلى تشجيعه. وكانت المدافع ما تزال تنطلق فى غضبها الجنونى، غير أن وطأتها أخذت تخف بدرجة غير محسوسة، ومال كمال نحو أبيه وسأله :

ـ كيف حالك يا أبى؟

فجاءه صوته وهو يهمس فى خور :

ـ أين كنت يا كمال؟ أين كنت حين وقعت الغارة؟ . .

فقال يطمئنه :

ـ كنت على مقربة من القبو، كيف حالك؟

فأجبا بصوت متقطع :

ـ الله أعلم . . كيف غادرت فراشى وهرولت فى الطريق؟ الله أعلم . . لم أشعر بشىء . . متى تعود الحال إلى الهدوء؟ أأخلع لك جاكتتى لتجلس عليها؟

ـ كلا، أنا قادر على الوقوف، ولكن متى تعود الحال إلى الهدوء؟ . .

ـ الغارة انتهت فيما يبدو، أما قيامك المفاجئ فلا تخفه. إن المفاجآت كثيرا ما تصنع المعجزات مع المرض! . .

وما كاد ينتهى من قوله حتى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادة مرة أخرى وضج القبو بالصراخ :

ـ إنها فوق رءوسنا !

ـ وحد الله . .

ـ أسكتوا هذا الشؤم ! . .

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدى أبيه بين يديه ، وكان يفعل ذلك لأول مرة فى حياته ، وكانت يدا الرجل ترتجفان ، وكانت يدا كمال ترتجفان كذلك ، أما أم حنفى فقد أنبطحت على الأرض وهى تولول . وعاد الصوت العصبى يصيح فى هياج :

أياكم والصراخ ، سأقتل الصارخ ! . .

وعلا الصراخ ، وتلاحقت طلقات المدافع ، واشتد توتر الأعصاب ، فى توقع زلازل جديدة ، ولكن المدافع استمرت تنطلق وحدها ، وظل توقع انفجارات جديدة يخنق الأرواح .

ـ انتهت القنابل !

ـ إنها تغيب ثم تنفجر . .

ـ إنها بعيدة ، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت من حولنا !

ـ بل سقطت فى النحاسين !

ـ هكذا يخيل إليك ولعلها فى الأورنس !

أنصتوا يا هوه ، ألم تخف المدافع ؟

بلى خفت طلقاتها ، ثم لم تعد تسمع إلا من بعيد ، ثم متطقعة ثم متباعدة ، ثم بين الطلقة والأخرى دقيقة كاملة ، ثم أناخ الصمت ، وامتد ، وطال وعمق ، ثم انعقدت الألسن ، حتى مضت تتعالى همسات الأمل الباكى ، وأخذ كثيرون يتذكرون أشياء وأشياء ، ويحيون من جديد ، ويتنهدون فى ارتياح حذر مشوب بالإشفاق ، وعبثًا حاول كمال

أن يرى وجه أبيه بعد أن عادت التماعات الضوء الخاطف وخيم الظلام . .

ـ أبى ، ستعود الحال إلى الهدوء . .

فلم يجب الرجل ولكنه حرك يديه بين يدى ابنه كأنما ليقنعه بأنه ما زال حيا . .

ـ هل أنت بخير؟ . .

فحرك يديه مرة أخرى . وشعر كمال بحزن أوشك أن يهيج دموعه .

وانطلقت صفارة الأمان . .

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح الأطفال عقب مدافع الأعياد ، وضج المكان وما حوله بحركة ما لها من آخر . صفقات أبواب ونوافذ ، هدير كلام عصبى ، ثم تتابع أنصراف المنحشرين فى القبو ، وقال كمال وهو يتنهد :

ـ فلنعد . .

وضع الأب ذراعًا على كتف كمال والأخرى على كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة . وبدءوا يتساءلون عن الرجل ، كيف هو ، وماذا أصابه أثر مغامرته الخطيرة . غير أن الأب توقف عن المشى وهو يقول بصوت ضعيف :

ـ أشعر بأننى يجب أن أجلس . .

فقال له كمال :

ـ دعنى أحملك . .

فقال فى إعياء :

ـ لن تستطيع . .

ولكن كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع الأخرى تحت ساقيه ، ورفعه . لم يكن حملاً خفيفًا ولكن ما بقى من أبيه كان على أى

حال هينا. وسار فى بطء شديد، والآخرون يتبعونه مشفقين. وانتحبت عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب:

ـ لا داعى للفضيحة!

فكتمت فاها بيدها، ولما بلغوا البيت عاونت أم حنفى فى حمل السيد، فصعدا به السلم على مهل وحذر، وكان مستسلمًا ولكن همهمته الاستغفارية المتوصلة نمت عن حزنه وضيقه، حتى طرحاه بعناية على فراشه، ولما أضىء نور الحجرة بدا وجه الأب شديد الشحوب كأن الجهد قد استصفى دمه، وكان صدره يعلو وينخفض بعنف، فأغمض عينيه إعياء، ثم راح يتأوه، ولكنه غالب ألمه حتى استطاع أخيرًا أن يلوذ بالصمت. وكان الجميع يقفون صفا بإزاء فراشه ويتطلعون إليه فى وجل وإشفاق، وأخيرًا تساءلت أمينة بصوت متهدج:

ـ سيدى بخير؟

ففتح عينيه، وجعل ينظر فى الوجوه مليًا، وبدا لحظات كأنه لا يعرفها، ثم تنهد وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ الحمد لله..

ـ نم يا سيدى.. نم كى تستريح..

وترامى إليهم رنين الجرس الخارجى فمضت أم حنفى لتفتح الباب، وتبادلوا نظرات متسائلة فقال كمال:

ـ لعل أحدًا من السكرية أو قصر الشوق قد جاء ليطمئن علينا.

وصدق حدسه فما لبث أن دخل الحجرة عبد المنعم وأحمد ثم تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش الأب وهم يحيون الموجودين فوجه إليهم الرجل نظرات فاترة، وكأن الكلام لم يسعفه فاكتفى برفع يده النحيلة تحية، وقص عليهم كمال فى اقتضاب ما عاناه والده فى ليلته المزعجة، ثم قالت أمينة همسًا:

ـ ليلة فظيعة ربنا لا يعيدها . .

وقالت أم حنفى :

ـ الحركة أتعبته قليلاً ولكنه سيسترد بالراحة عافيته . .

ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول :

ـ ينبغى أن تنام، كيف حالك الآن؟

فرنا الرجل إليه ببصر خاب وغمغم :

ـ الحمد لله . . أشعر بتعب فى جنبى الأيسر . .

فسأله ياسين :

ـ أأحضر لك الطبيب؟

فأشار بيده فى ضجر ثم همس :

ـ كلا خير لى أن أنام . .

فأشار ياسين إلى الموجودين بالخروج، وتراجع إلى الوراء قليلاً فرفع الرجل يده النحيلة مرة أخرى. وغادروا الحجرة واحداً فى إثر واحد فلم يبق فيها مع الرجل إلا أمينة، ولما جمعتهم الصالة سأل عبد المنعم خاله كمال :

ـ ماذا فعلتم؟ أما نحن فقد هرعنا إلى المنظرة فى الحوش .

وقال ياسين :

ـ ونحن نزلنا إلى شقة الدور الأرضى عند جيراننا . .

فقال كمال فى قلق :

ـ ولكن التعب قد أنهك قوى بابا . .

فقال ياسين :

ـ ولكنه سيسترد صحته بالنوم . .

ـ وما عسى أن نفعل به إذا وقعت غارة أخرى؟! . .

ولم يحر أحد جوابًا فساد صمت ثقيل حتى قال أحمد:

ـ بيوتنا قديمة ولن تتحمل الغارات . .

وعند ذاك أراد كمال أن يبدد سحب الكآبة المخيمة التى أرهقت أعصابه فقال منتزعًا من شفتيه ابتسامة:

ـ إذا هدمت بيوتنا فحسبها شرفًا أن هدمها سيكون بأحدث أساليب العلم الحديث . .

٣٧

أوصل كمال زوار آخر الليل حتى الباب الخارجى، ولم يكد يعود إلى باب السلم حتى ترامت إليه من فوق ضجة مريبة، وكانت أعصابه ما تزال متوترة فداخلته كآبة ورقى السلم وثبا. وجد الصالة خالية، وحجرة الأب مغلقة، وخليطًا من الأصوات يعلو خلف بابها المغلق، فهرع إلى الحجرة ودفع الباب ثم دخل، وكان يتوقع شرا أبى أن يفكر فى كنهه. كان صوت الأم المبحوح يهتف «سيدى»، وكانت عائشة تنادى بصوت غليظ «بابا» على حين تسمرت أم حنفى عند رأس الفراش فدهمه شعور بالفزع واليأس والاستسلام الحزين؛ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحا على الفراش، ونصفه الأعلى ملقى على صدر الأم التى تربعت وراء ظهره، وصدره يعلو وينخفض فى حركة آلية تند عنها حشرجة غريبة ليست من أصوات هذا العالم، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جديدة لا ترى ولا تعى ولا تملك أن تخبر عما يعتلج وراءها، فتسمرت قدماه وراء شباك السرير، وانعقد لسانه، وتحجرت عيناه، لم يجد شيئا يقوله أو شيئا يفعله، وعانى شعورًا قاهرًا بالعجز

المطلق، واليأس المطلق والتفاهة المطلقة وكأنه فقد الوعى لولا إدراكه أن أباه يودع الحياة. ورددت عائشة بصرا زائغًا بين وجه أبيها ووجه كمال ثم هتفت:

ـ أبى، هذا كمال يريد أن يحدثك!

وخرجت أم حنفى عن غمغمتها المتصلة قائلة فى نبرات ممزقة:

ـ أحضروا الطبيب!..

فأنَّت الأم فى حزن غاضب:

ـ أى طبيب يا حمقاء؟!

ثم ندت عن الأب حركة كأنما يحاول الجلوس، وإزداد صدره تشنجا واضطرابًا، ومد سبابة يمناه ثم سبابة يسراه، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من الألم ثم مالت على أذنه وتشهدت بصوت مسموع وكررت ذلك حتى سكنت يداه. وأدرك كمال أن أباه لم يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتتشهد نيابة عنه، وأن كنه هذه الساعة الأخيرة سيبقى سرا إلى الأبد، وإن وصفه بالألم أو الفزع أو الغيبوبة رجم بالغيب، ولكنه على كل حال لا ينبغى أن تطول، إنها أجل وأخطر من أن تبتذل، أما أعصابه فقد انهارت حيالها، وخجل من نفسه إذا نزعت لحظات إلى تحليل الموقف ودراسته، كأن احتضار أبيه يجوز أن يكون زادًا لتأمله ومادة لمعرفته، وضاعف ذلك من حزنه ومن ألمه، وقد اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته، ثم ما هذا؟ أيهم بالقيام؟ أم يحاول الكلام؟ أم يخاطب شيئًا مجهولاً؟ أيتألم؟ أم يفزع؟.. آه...

وشهق الأب شهقة عميقة ثم ارتمى رأسه على صدره.

صرخت عائشة من الأعماق: «يا أبى.. يا نعيمة.. يا عثمان.. يا محمد» فهرعت إليها أم حنفى ودفعتها أمامها برقة إلى الخارج،

ورفعت الأم وجهها الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولكنه لم يتحرك، فهمست فى يأس:

ـ دعنى أقم بواجبى الأخير نحو أبيك. .

فتحول عن موقفه ومضى خارجًا، وكانت عائشة مرتمية على الكنبة وهى تعول، فمضى إلى الكنبة المقابلة لها وجلس، أما أم حنفى فذهبت إلى الحجرة لتساعد سيدتها وأغلقت الباب وراءها. ولم يعد بكاء عائشة مما يحتمل فقام واقفا وراح يقطع الصالة ذهابًا وإيابًا دون أن يوجه إليها خطابًا، وكان من حين لآخر يرنو إلى باب الحجرة المغلق ثم يضغط على شفتيه بشدة، وتساءل لم يبدو لنا الموت بهذه الغرابة؟ وكان كلما جمع أفكاره ليتأمل تشتت وغلبه الانفعال. كان الأب ـ حتى بعد انزوائه ـ يملأ هذه الحياة، فلن يكون غريبًا إذا وجد غدًا البيت غير البيت الذى عهده، والحياة غير الحياة التى ألفها، بل عليه منذ اللحظة أن يعد نفسه لدور جديد. واشتد ضيقه بنحيب عائشة وهم مرة بأن يسكتها ولكنه لم يفعل، وعجب من أين لها بهذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كل شىء. وعاد يفكر فى اختفاء أبيه من هذه الحياة فكبر عليه تصور هذا، ثم ذكر حاله الأخير فأكل الحزن شغاف قلبه. وذكر صورته القديمة الماثلة فى خاطره، وهو فى تمام أبهته وقوته، فشعر برثاء عميق للكائنات جميعًا، ولكن متى يسكت نحيب عائشة؟!. . ألا تستطيع أن تبكى ـ مثله ـ بغير دموع؟!. .

وفتح باب الحجرة وخرجت منه أم حنفى، وترامى إليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأم، فأدرك أنها فرغت من أداء واجبها وخلصت للبكاء، وتقدمت أم حنفى من عائشة وقالت لها بصوت غليظ:

ـ كفاية بكاء يا سيدتى. .

ثم تحولت إليه قائلة :

ـ الفجر لاح يا سيدى، نم ولو قليلا فأمامك غد عصيب . .

ثم أفحمت فى البكاء، ثم غادرت المكان وهى تقول فى صوت باك :

ـ سأذهب إلى السكرية وقصر الشوق لإبلاغ الخبر الأسود! . .

* * *

وجاء ياسين مهرولاً تتبعه زنوبة ورضوان، ثم ترامى إليهم من الطريق الصامت صوات خديجة. وبوصول خديجة استعرت النار فى البيت جميعًا فاختلط الصوات بالصراخ والبكاء. وتعذر على الرجال البقاء فى الدور الأول فصعدوا إلى المكتبة فى الدور الأعلى وجلسوا واجمين، وغشيهم الصمت والوجوم حتى قال إبراهيم شوكت :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، قضت عليه الغارة، رحمه الله رحمة واسعة كان رجلا ولا كل الرجال . .

ولم يتمالك ياسين نفسه فبكى، وعند ذاك انفجر كمال باكيًا، فعاد إبراهيم شوكت يقول :

ـ وحدوا الله، لقد ترككم رجالاً . .

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلعون إلى الرجلين الباكيين فى حزن ووجوم وشىء من الدهش. وسرعان ما جفف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت، فقال إبراهيم شوكت :

ـ الصباح قريب، فلنفكر فيما يجب عمله . .

فقال ياسين فى اقتضاب حزين :

ـ لا جديد فى الأمر فقد جربناه مرات . .

فقال إبراهيم شوكت :

ـ يجب أن تكون الجنازة جديرة بمقامه . .

فقال ياسين بتوكيد :

ـ هذا أقل ما يجب!

وهنا قال رضوان:

ـ الشارع أمام البيت ضيق لا يتسع للسرادق المناسب فلنقم سرادق العزاء فى ميدان بيت القاضى..

فقال إبراهيم شوكت:

ـ ولكن العادة جرت بأن يقام سرادق العزاء أمام بيت المتوفى!..

فقال رضوان:

ـ ليس هذا بالمكان الأول من الأهمية خاصة وأنه سيؤم السرادق وزراء وشيوخ ونواب!

وأدرك المستمعون أنه يشير إلى معارفه هو فقال ياسين دون مبالاة:

ـ نقيمه هناك..

وكان أحمد يفكر فى الدور المنوط به فقال:

ـ لن نتمكن من نشر النعى فى جرائد الصباح..

فقال كمال:

ـ جرائد المساء تصدر حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر فلنجعل ميعاد الجنازة فى الساعة الخامسة..

ـ ليكن، القرافة قريبة على أى حال..

وتأمل كمال مجرى الحديث فى شىء من العجب. كان الأب فى الساعة الخامسة اليوم فى فراشه يتابع الراديو أما فى نفس الساعة غداً..! إلى جانب فهمى وابنى ياسين الصغيرين، ترى ماذا تبقى من فهمى؟ لم يخفف العمر من رغبته القديمة فى التطلع إلى جوف القبر، ترى هل كان الأب حقًا يرغب فى قول شىء كما تهيأ له؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ والتفت ياسين إليه متسائلاً:

ـ هل شهدت احتضاره؟

ـ نعم، عقب انصرافك مباشرة.

ـ تألم؟

ـ لا أدرى، من يدرى يا أخى؟ ولكنه لم يستغرق أكثر من خمس دقائق.. تنهد ياسين ثم تساءل:

ـ ألم يقل شيئًا؟

ـ كلا، والغالب أنه فقد النطق..

ـ ألم يتشهد؟

فقال كمال وهو يغض بصره ليدرى تأثره:

ـ قامت أمى بذلك نيابة عنه..

ـ ليرحمه الله..

ـ آمين..

وساد الصمت مليا حتى خرقه رضوان قائلاً:

ـ يجب أن يكون السرادق كبيراً ليتسع للمعزين..

فقال ياسين:

ـ طبعًا، أصدقاؤنا كثيرون.. (ثم وهو ينظر نحو عبد المنعم).. وهناك شعبة الأخوان المسلمين!..

ثم متنهدًا:

ـ لو كان أصحابه أحياء لحملوا النعش على أكتافهم!..

* * *

ثم كانت الجنازة كما رسموا، وكان أصدقاء عبد المنعم أكثر عددًا، أما أصدقاء رضوان فكانوا أعلى مقامًا، ولفت نفر منهم الأنظار

بشخصياتهم المعروفة لقراء الجرائد المجلات، وكان رضوان بهم مزهوا حتى كاد يغطى زهوه على حزنه. وشيع أهل الحى «جار العمر» حتى الذين لم يصلهم به سبب من أسباب التعارف الشخصى، فلم تكد الجنازة تخلو إلا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة. وعند باب النصر ظهر الشيخ متولى عبد الصمد فى الطريق، وكان يترنح من الكبر فرفع رأسه نحو النعش وهو يضيق عينيه ثم سأل:

ـ من هذا؟

فأجابه رجل من أهل الحى:

ـ المرحوم السيد أحمد عبد الجواد!.

فجعل وجه الرجل يهتز يمنة ويسرة فى ارتعاش، وملامحه تتساءل فى حيرة، ثم إذا به يسأل:

ـ من أين؟..

فإجابه الرجل وهو يهز رأسه فى شيء من الحزن:

ـ من هذا الحى، كيف لا تعرفه! ألا تذكر السيد أحمد عبد الجواد؟!..

ولكن لم يبد عليه أنه تذكر شيئًا، والقى نظرة أخيرة على النعش ثم سار فى سبيله..

٣٨

خلا البيت من سيدى فليس هو البيت الذى عاشرته أكثر من خمسين عامًا، والجميع يبكون حولى، وخديجة لا تفارقنى فهى قلبى العامر بالحزن والذكريات وهى قلب كل قلب بل هى ابنتى وأختى وأمى

أحيانًا، وأكثر بكائى خلسة حين أخلو إلى نفسى إذ ينبغى أن أشجعهم على النسيان فما يهون على أن يحزنوا أو ـ لا قدر الله ـ أن ينال منهم الحزن أى منال. أما إذا خلوت إلى نفسى فلا أجد عزاء إلا فى البكاء فأبكى حتى تجف دموعى، وأقول لأم حنفى إذا تسللت إلى وحدتى الباكية دعينى وشأنى يرحمك الله. فتقول لى كيف أتركك وأنت على هذه الحال؟ أنا عارفة بحالك.. ولكنك ست مؤمنة بل أنت ست المؤمنات فعندك نتعلم العزاء والتسليم لقضاء الله.. قول جميل يا أم حنفى ولكن أنى للقلب المحزون أن يفقه معناه، ولم يعد لى شأن فى هذه الدنيا ولم يعد لى عمل وكل ساعة من ساعات يومى مرتبطة بذكرى من ذكريات سيدى.. لم أعرف الحياة إلا وهو محورها الذى تدور حوله فكيف أطيقها ولم يعد له فيها ظل؟ وأنا أول من اقترح تغيير معالم الحجرة العزيزة.. ما حيلتى ما داموا لا يدخلونها حتى تتعلق أبصارهم بمكانه الخالى ويجهشون بالبكاء.. وسيدى يستحق الدموع التى تسيل من أجله، ولكنى لا أطيق بكاءهم وأخاف على قلوبهم الغضة فأعزيهم بما تعزينى به أم حنفى وأطالبهم بالتسليم لله وقضائه، ولذلك أخليت الحجرة من أثاثها القديم وانتقلت إلى حجرة عائشة، ولكيلا تهجر الحجرة وتستوحش نقلت إليها أثاث الصالة فانتقل إليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجمرة نتحدث كثيرًا وتقطع أحاديثنا الدموع، ولا يشغلنا شىء كما يشغلنا الإعداد للقرافة وأشرف بنفسى على تجهيز الرحمة فلعله الواجب الأوحد الذى لم أتخل عنه لأم حنفى كما تخليت لها عن كل شىء، تلك المرأة العزيزة الوفية التى دخلت بجدارة فى صميم أسرتنا، فنحن نعد الرحمة معا ونبكى معا ونتذكر الأيام الجميلة معًا فهى دائمًا معى بروحها وذاكرتها، وأمس جر الحديث إلى ذكر ليالى رمضان فبادرت تحدث عن سيرة سيدى فى رمضان منذ ساعة استيقاظه فى الضحى حتى حين عودته إلينا عند السحور، فذكرت بدورى كيف كنت أهرع إلى المشربية لأرى الحنطور

الذى يعيده وأستمع إلى ضحكات راكبيه أولئك الذين ذهبوا تباعًا إلى رحمة الله كما ذهبت الأيام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعافية فاللهم متع الأبناء بطول العمر وقر أعينهم بأفراح الحياة، وهذا الصباح رأيت قطتنا تشمم الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التى أهديناها إلى الجيران فقطع قلبى منظرها الحائر الحزين وهتفت من أعماق قلبى الله يصبرك يا عائشة.. عائشة المسكينة التى هاج موت أبيها حزنها فهى تبكى أباها وابنتها وابنيها وزوجها فما أحر الدموع وأنا التى تجرعت مرارة الثكل قديمًا حتى سال قلبى دما واليوم أفجع بوفاة سيدى وتخلو حياتى منه وكان ملء حياتى جميعًا ولا يبقى لى من الواجبات إلا أن أعد له الرحمة أو أتلقاها من السكرية وقصر الشوق فهذا كل ما بقى لى، كلا يا بنى، أختر لنفسك هذه الأيام مجلسًا غير مجلسنا الحزين حتى لا تسرى إليك عدواه.. لماذا أنت واجم؟ الحزن لم يخلق للرجال فالرجل لا يستطيع أن يحمل الأعباء والأحزان معًا.. اصعد إلى حجرتك وتسل بالقراءة والكتابة كما تفعل أو انطلق إلى أصحابك فاسهر، ومن بدء الخليقة فالأعزاء يفارقون ذويهم، فلو كان الاستسلام إلى الحزن هو المتبع لما بقى على ظهر الأرض حى.. لست حزينة كما تتوهم وما ينبغى لمؤمن أن يحزن، وسوف نعيش إذا أراد الله وسوف ننسى ولا سبيل إلى العزيز الذى سبق إلا حين يشاء الله، هكذا أقول له ولا آلو أن أتكلف ما ليس بى من التصبر والتجلد إلا إذا هلت خديجة قلب بيتنا الحى وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن أجهش فى البكاء، وقالت لى عائشة إنها رأت أباها فى المنام قابضًا على ساعد نعيمة بيد وعلى ساعد محمد بيد حاملاً عثمان على كتفه وقال لها إنه بخير وإنهم بخير فسألته عن سر النافذة التى نورت لها فى السماء ثم توارت إلى الأبد فتجلت فى عينيه نظرة عتاب ولم ينبس. ثم سألتنى عن معنى الحلم. يا حيرة أمك يا عائشة.. غير أنى قلت لها إن العزيز مات

وهو مشغول القلب بها ولذلك زارها فى الحلم وجاءها بأولادها من الجنة لتقر برؤيتهم عينا فلا تنغصى عليهم صفوهم باستسلامك للحزن، ليت عائشة الزمان الأول تعود ولو ساعة، ليت الذين حولى يبرءون من حزنهم حتى لا يشغلنى شاغل عن واجب الحزن العميق، وجمعت ياسين وكمال وقلت لهما: هذه المخلفات العزيزة ماذا نفعل بها؟ فقال ياسين: آخذ الخاتم فإنه على قد أصبعى، ولك الساعة يا كمال أما السبحة فلك أنت يا نينة.. والجبب والقفاطين؟.. وذكرت من توى الشيخ متولى عبد الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين: لقد انتهى الرجل فهو فى غيبوبة ولا يعرف له مقر، وقال كمال مقطبًا: لم يعرف أبى!.. نسى اسمه وتولى عن الجنازة دون أكتراث. فانزعجت وأنا أقول: يا للعجب متى حدث هذا؟ كان سيدى يسأل عنه حتى أيامه الأخيرة وكان دائمًا يحبه ولم يره إلا مرة أو مرتين مذ زار بيتنا ليلة دخلة نعيمة، ولكن رباه أين نعيمة وأين ذلك التاريخ كله؟ ثم اقترح ياسين أن تهدى الملابس إلى سعاة ديوانه وفراشى مدرسة كمال فليس أحق بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدعون له بالرحمة فى مقره الأخير، أما المسبحة العزيزة فلن تفارق يدى حتى أفارق الحياة، والقبر كم يبدو حلو المزار على ما يثير من شجن ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل إليه الشهيد الغالى، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعتبره حجرة من بيتنا لكنها فى أطراف حينا، ويجمعنا القبر جميعًا كما كان يجمعنا مجلس القهوة فى الزمن الخالى، وتنوح خديجة حتى ينال منها الإعياء ثم نؤمر بالسكوت تأدبًا لاستماع القرآن، ثم يشغلهم الحديث حينا فأسر بما يصرف أعزائى عن الحزن، ويشتبك رضوان وعبد المنعم وأحمد فى نقاش طويل وتنضم إليهم كريمة أحيانًا فذاك ما يغرى كمال بمشاركتهم الحديث ويلطف من كآبة المقام، ويسأل عبد المنعم عن خاله الشهيد فيقص ياسين القصص فتنبعث الحياة فى الأيام القديمة ويعود غائب

الذكريات ويخفق قلبى فلا أدرى كيف أدارى دموعى، وكثيراً ما أرى كمال واجمًا فأسأله عما به فيقول لى إن صورته لا تفارقنى خاصة منظر الاحتضار فلو كانت نهايته أخف! فقلت له برقة عليك أن تنسى هذا كله. فتساءل كيف يكون النسيان؟ فقلت له بالإيمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال: كم كنت أخافه فى مطلع حياتى ولكنه تكشف لى فى عهده الأخير عن إنسان جديد بل صديق حبيب. ألا ما كان أظرفه وأرقه وألطفه، لم يكن فى الرجال مثله. وياسين يبكى كلما أهاجته الذكرى.. كمال حزنه فى صمته الواجم أما ياسين الضخم فيبكى كالأطفال ويقول لى إنه الرجل الوحيد الذى أحببته فى حياتى، أجل كان أباه وكان أمه ولم ينعم بالعطف والحنان والرعاية إلا فى كنفه حتى شدته كانت رحمة ولن أنسى يوم عفا عنى وردنى إلى بيته فصدق فراسة أمى رحمها الله التى ما انفكت تقول لى إن السيد ليس بالرجل الذى يقطع أم أولاده، وكان يجمعنا حبه فاليوم تجمعنا ذكراه، أما بيتنا فلا يخلو من الزوار غير أن قلبى لا يسكن حتى أجد خديجة وياسين وآلهما حولى.. حتى زنوبة فما أصدق حزنها، وقالت لى كريمة الصغيرة الجميلة: يا جدتى تعالى عندنا فهذه أيام مولد الحسين وتحت بيتنا تقام الأذكار وأنت تحبين ذلك، فقبلتها شاكرة وقلت لها: يا بنيتى جدتك لم تعتد البيات خارج بيتها.. إنها لا تدرى شيئًا عن آداب بيت جدها فى تلك الأيام التى خلت. ما أجمل ذكراها والمشربية آخر حدود دنياى حيث أنتظر عودة سيدى آخر الليل وهو من قوته يكاد يهد الأرض عند مغادرته للحنطور ثم يملأ الحجرة بطوله وعرضه والعافية تكاد تثب من وجهه أما اليوم فلا يعود ولن يعود وقبل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورق جسمه وخف وزنه حتى حمل بيد واحدة. يا حزنى الذى لن يذهب! وقالت عائشة فى غضب إن هؤلاء الأحفاد لم يحزنوا على جدهم، إنهم لا يحزنون، فقلت لها بل حزنوا ولكنهم صغار ومن

رحمة الله بهم ألا يغرقوا فى الحزن، فقالت: انظرى إلى عبد المنعم لا ينتهى نقاشه، وهو لم يحزن على ابنتى وسرعان ما نسيها كأنها شىء لم يكن. فقالت لها: بل حزن عليها طويلا وبكى كثيرا وحزن الرجال غير حزن النساء وقلب الأم غير القلوب جميعًا، ومنذا الذى لا ينسى يا عائشة ونحن ألا نتسلى بالحديث أو يدركنا الابتسام أحيانا وسوف يأتى يوم لا يكون فيه دموع، ثم أين فهمى أين؟ وقالت لى أم حنفى: لماذا امتنعت عن زيارة الحسين؟ فقلت: نفسى فاترة عن كل شىء أحببته وسأزور سيدى عندما يبرأ الجرح. فقالت لى: وهل يبرأ الجرح إلا بزيارة سيدك؟ هكذا ترعانى أم حنفى وهى ربة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت، إنك يا ربى رب الجميع أنت القاضى ولا راد لقضائك ولك أصلى، وددت لو أبقيت على سيدى قوته حتى النهاية فما آلمنى شىء كما آلمنى رقاده، هو الذى كانت الدنيا تضيق عن مراحه.. حتى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمولاً على الأيدى كالطفل لذلك تسيل دموعى ويتكاثف حزنى..

٣٩

ـ سأتوكل على الله وأخطب كريمة بنت خالى..

رفع إبراهيم شوكت عينيه إلى ابنه فى شىء من الدهش، أما أحمد فأحنى رأسه وهو يبتسم ابتسامة دلت على أنه لم يفاجأ بالخبر، على حين تركت خديجة الشال الذى تطرزه وحدجته بنظرة غريبة غير مصدقة ثم نظرت إلى زوجها وهى تتساءل:

ـ ماذا قال:

فعاد عبد المنعم يقول :

ـ سأتوكل على الله وأخطب كريمة بنت أخيك . .

فبسطت خديجة يديها فى حيرة وقالت :

ـ هل أفلست الدنيا من الذوق؟ أهذا الوقت مناسب لحديث الخطبة حتى مع صرف النظر عن المخطوبة؟!

فقال عبد المنعم باسمًا :

ـ كل الأوقات مناسبة للخطبة . .

فهزت رأسها فى حيرة وهى تتساءل :

ـ وجدك؟! . . (ثم وهى تردد عينيها بين أحمد وإبراهيم) . هل سمعتم عن شىء كهذا من قبل؟

فقال عبد المنعم فى شىء من الحدة :

ـ خطبة لا زواج ولا فرح ، وقد انقضى على وفاة جدى أربعة اشهر كاملة . . وقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة :

ـ كريمة ما زالت صغيرة ، مظهرها أكبر من سنها فيما أعتقد . .

فقال عبد المنعم :

ـ هى فى الخامسة عشرة ولن يكتب الكتاب قبل عام . .

فقالت خديجة فى تهكم ومرارة :

ـ هل أطلعتك زنوبة هانم على شهادة الميلاد؟

فضحك إبراهيم شوكت ، وضحك أحمد ، أما عبد المنعم فقال جادًا :

ـ لن يتم شىء قبل عام ، وبعد عام سيكون قد مضى على وفاة جدى حوالى العام والنصف وتكون كريمة قد بلغت سن الزواج . .

ـ ولماذا توجع دماغنا الآن؟

ـ لأنه لا بأس من إعلان الخطبة فى الوقت الحاضر .

فتساءلت خديجة فى سخرية :

ـ وهل تحمض الخطبة إذا أجلت عامًا؟

ـ أرجوك . . أرجوك أن تكفى عن المزاح . .

فصاحت خديجة :

ـ لو وقع هذا لكان فضيحة .

فقال عبد المنعم فى هدوء ما استطاع :

ـ دعى جدتى لى ، ستفهمنى خيرًا منك ، إنها جدتى وجدة كريمة على السواء .

فقالت بخشونة :

ـ ليست جدة لكريمة . .

فسكت عبد المنعم وقد تجهم وجهه فبادره أبوه قائلاً :

ـ المسألة مسألة ذوق فيحسن أن ننتظر قليلاً . .

فهتفت خديجة حانقة :

ـ يعنى أنه لا اعتراض لك إلا على الوقت!

فتساءل عبد المنعم متغابيًا :

ـ هل ثمة اعتراض آخر؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاغل بتطريز الشال فاستطرد عبد المنعم قائلاً :

ـ كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذلك؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة :

ـ هى ابنة أخى حقًا ولكن كان ينبغى أن تذكر أمها أيضًا!

وتبادلوا النظرات فى إشفاق، ثم اندفع عبد المنعم قائلاً فى حدة :

ـ أمها زوجة أخيك كذلك!

فارتفع صوتها وهى تقول :

ـ أعلم هذا، وهو مما يؤسف له!

ـ ذلك الماضى المنسى! من يذكره الآن؟! لم تعد إلا سيدة محترمة مثلك!

فقالت بصوت غليظ :

ـ ليست مثلى ولن تكون مثلى أبدا!

ـ ماذا يعيبها؟! عرفناها منذ صغرنا سيدة محترمة بكل معنى الكلمة، والإنسان إذا تاب واستقام محيت صفحة سوابقه فلا يذكره بها بعد ذلك إلا . . وأمسك، فقالت وهى تهز رأسها فى أسف :

ـ نعم؟ صفنى! سب أمك إكرامًا لهذه المرأة التى عرفت كيف تأكل مخك، طالما تساءلت عما وراء الدعوات المتتابعة إلى ولائم قصر الشوق، وإذا بك تقع كالجردل!

فردد عبد المنعم عينيه غاضبًا بين أبيه وأخيه ثم تساءل :

ـ أهذا الكلام يليق بنا؟ أسمعانى رأيكما! . .

فقال إبراهيم شوكت متثائبًا :

ـ لا داعى لكثرة الكلام، عبد المنعم سيتزوج إن اليوم أو غدًا، وأنت تودين هذا، وكريمة ابنتنا، وهى بنت جميلة ولطيفة، لا داعى للشوشرة . .

وقال أحمد :

ـ أنت يا نينة أول من يود إرضاء خالى ياسين!

فقالت خديجة محتدة :

ـ كلكم ضدى كالعادة، ولا حجة لكم إلا خالى ياسين، ياسين أخى، وكان خطؤه الأول أنه لم يعرف كيف يتزوج، وعنه ورث ابن أخته هذا المزاج الغريب! . .

فتساءل عبد المنعم فى عجب :

ـ أليست امرأة خالى صديقتك؟! من يراكما وأنتما تتناجيان يظنكما شقيقتين! . .

ـ ما حيلتى فى امرأة سياسية مثل اللنبى؟ لكن لو ترك لى الأمر أو لو لم أرع خاطر ياسين ما سمحت لها بدخول بيتى، وماذا كانت النتيجة؟ . أكلت مخك بالولائم المغرضة، وعليه العوض؟

عند ذاك قال أحمد مخاطبًا أخاه :

ـ اخطبها وقتما تشاء، نينة لسانها كثير الكلام ولكن قلبها طيب . .

فضحكت ضحكة عصبية وقالت :

ـ عفارم يا ولد! تختلفان فى كل شىء . فى الدين والملة والسياسة، أما على فتتحدان! . .

فقال أحمد فى مرح :

ـ خالى ياسين أغلى الناس عندك، وسوف ترحبين بكريمته كأحسن ما يكون الترحيب، الحكاية أنك تودين عروسًا غريبة حتى تتمكنى ـ كحماة ـ من اضطهادها، حسن، على أنا أن أحقق لك هذا الأمل، سوف أجيئك بالعروس الغريبة لتشفى غليلك!

ـ لا عجب إن جئتنى غدًا براقصة! علام تضحكون؟! هذا شيخ الإسلام سيصاهر عالمة فماذا أتوقع منك أنت المتهم فى دينه والعياذ بالله؟!

ـ نحن فى حاجة إلى راقصة بالفعل!

وإذا بخديجة تقول وكأنما تذكرت أمرًا خطيرًا:

ـ وعائشة يا ربى ترى ماذا تقول عنا؟!

فقال عبد المنعم محتجًا:

ـ ماذا تقول؟ لقد توفيت زوجتى منذ أربع سنوات كاملة فهل تود أن أبقى أرمل مدى العمر؟

فقال إبراهيم شوكت فى ضجر:

ـ لا تخلقوا من الحبة قبة، المسألة أبسط من هذا كله، كريمة ابنة ياسين، ياسين أخو خديجة وعائشة، حسبنا هذا. أف. كل شىء عندكم نقار حتى الأفراح؟!..

واختلس أحمد من أمه نظرة باسمة، وجعل يراقبها حتى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة، وراح يقول لنفسه: هذه الطبقة البورجوازية كلها عقد، تحتاج إلى محلل نفسانى، بارع ليشفيها من كافة عللها، محلل له قوة التاريخ نفسه! لو هادننى الحظ لسبقت أخى إلى الزواج ولكن البورجوازية الأخرى اشترطت مرتبًا لا يقل عن خمسين جنيهًا، هكذا تجرح قلوب لأمور لا شأن لها بالقلوب، ترى ماذا يكون رأى سوسن حماد لو علمت بمغامرتى الفاشلة؟!

٤٠

كان الجو شديد البرودة، ولم يكن خان الخليلى الرطب مما يؤثر شتاء، ولكن رياض قلدس نفسه الذى أشار ذلك المساء بالذهاب إلى قهوة خان الخليلى التى شيدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح

الأرض، أو كما قال: «علمنى كمال على آخر الزمن أن أكون من غواة الغرائب». كانت قهوة صغيرة، بابها يفتح على حى الحسين، ثم تمتد طولاً فى شبه ممر تصف على جانبيه الموائد وينتهى بشرفة خشبية تطل على خان الخليلى الجديد. جلس الأصدقاء فى جناح الشرفة الأيمن يحتسون الشاى ويدخنون نارجيلة بالمناوبة. وكان إسماعيل لطيف يقول:

- أنا فى إجازة للاستعداد ومن ثم أسافر..

فتساءل كمال فى أسف:

- ستغيب عنا ثلاثة أعوام؟

- نعم، لابد من المغامرة، مرتب ضخم لا أتخيل أن أناله يومًا هنا، ثم إن العراق بلد عربى لا يختلف عن مصر كثيراً..

سيخلف وحشة، لم يكن صديق الروح ولكنه صديق العمر، وتساءل رياض قلدس ضاحكًا:

- ألا يحتاج العراق إلى مترجمين؟

فسأله كمال:

- أتسافر إذا سنحت لك فرصة كفرصة إسماعيل؟

- لو حدثت فى الماضى ما ترددت أما اليوم فلا..

- وما الفرق بين الماضى والحاضر؟

فقال رياض قلدس ضاحكا:

- بالنسبة لك لا شىء، أما بالنسبة لى فهو كل شىء، الظاهر أننى سأنضم قريبًا إلى جماعة المتزوجين!.

دهش كمال للخبر الذى وقع عليه دون تمهيد وقد ساوره قلق لم يدرك كنهه:

ـ حقًا؟! لم تشر إلى ذلك من قبل!

ـ بلى، جاء بغتة، فى آخر مقابلة، فى آخر مقابلة بيننا لم يكن فى البال شىء!

ضحك إسماعيل لطيف فى ظفر، أما كمال فتساءل وهو يحاول أن يبتسم:

ـ كيف؟

ـ كيف؟! كما يحدث كل يوم، مدرسة جاءت لزيارة أخيها فى إدارة الترجمة فأعجبتنى، فجسست النبض فوجدت من يقول: «تفضل»..

تساءل إسماعيل ضاحكًا وهو يتناول خرطوم النارجيلة من كمال:

ـ ترى متى يجس هذا ـ (مشيراً إلى كمال) النبض؟

هكذا إسماعيل لا يفوت فرصة أبدا لإثارة هذا الموضوع المعاد، ولكن ثمة أمر أخطر من هذا، فجميع الأصدقاء المتزوجين يقولون إن الزواج «زنزانة»، فمن المحتمل جدا ألا يرى رياض ـ إذا تزوج ـ إلا فى القليل النادر، وربما تغير وتبدل فيصبح صديقا بالمراسلة، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه، ولكن كيف تمضى الحياة بدونه؟ وإذا جعل الزواج منه شخصا جديدا كإسماعيل فسلام على كافة مسرات الحياة! وسأله:

ـ متى تتزوج؟

ـ فى الشتاء القادم على أبعد الفروض.

كأنما قضى عليه أن يفتقد دواما صديقا لروحه المعذبة:

ـ عند ذاك ستكون رياض قلدس أخر!

ـ لم؟!.. أنت واهم جدا..

فقال وهو يدارى قلقه بابتسامة:

ـ واهم ؟! رياض اليوم شخص لا يشبع روحه شىء ويقنع جيبه بلا شىء، أما الزوج فلن يشبع جيبه أبدا ولن يجد فرصة لمتاع الروح . .

ـ ياله من تعريف جارح للزوج ! ولكنى لا أوافقك عليه . .

ـ كإسماعيل الذى اضطر إلى الهجرة إلى العراق، لست أسخر من هذا فهو طبيعى فوق أنه بطولة، ولكنه فى الوقت نفسه بشع، تصور أن تغرق حتى قمة رأسك فى هموم الحياة اليومية، ألا تفكر إلا فى مشكلات الرزق، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملاليم، أن تمسى شاعرية الحياة ضياع وقت !

فقال رياض فى استهانة :

ـ أوهام مبعثها الخوف !

وقال إسماعيل لطيف :

ـ آه لو تعرف الزواج والأبوة ! لقد فاتك حتى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة . .

لا يبعد أن يكون الصواب رأيه، ولو صح هذا فحياته مأساة سخيفة، ولكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق ؟ غير أن الذى يكربه الآن أنه بات مهددا بالوحدة المرعبة مرة أخرى، كما عانى عقب اختفاء حسين شداد من حياته، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض ؟! .هذا ما يروم حقا، جسم عطية وروح رياض فى شخص واحد يتزوجه فلا يتهدده الشعور بالوحدة حتى الموت، هذه هى المشكلة، وإذا برياض يقول فى ضجر :

ـ دعونا من حديث الزواج، لقد انتهيت منه وعقبى لك، على أن ثمة أحداثا سياسية هامة هى التى ينبغى أن تستأثر اليوم باهتمامنا .

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفيق من

المفاجأة فتلقى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينبس، أما إسماعيل لطيف فقال ضاحكا:

- عرف النحاس كيف ينتقم لإقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فاقتحم عابدين على رأس الدبابات البريطانية!

وتريث رياض قليلا ليعطى كمال فرصة للرد غير أن هذا لم ينشط للكلام، فقال رياض فى لهجة متجهمة:

- انتقام؟! إن خيالك يصور لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة..

- فما الحقيقة؟

وألقى رياض نظرة على كمال كأنما يحثه على الكلام فلما لم يستجب استطرد قائلا:

- ليس النحاس بالرجل الذى يتآمر مع الإنجليز فى سبيل العودة إلى الحكم، إن أحمد ماهر مجنون، هو الذى خان الشعب وانضم إلى الملك، ثم أراد أن يغطى مركزه المضعضع بتصريحه الأحمق الذى أعلنه أمام الصحفيين!

ثم نظر إلى كمال مستطلعا رأيه، وكان حديث السياسة قد جذب أخيرا بعض اهتمامه غير أنه شعر برغبة فى معارضة رياض ولو بعض الشيء فقال:

- لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف، ولست أشك فى وطنيته مطلقا، إن الإنسان لا ينقلب فى هذه السن إلى خائن ليتولى وظيفة تولاها خمس مرات أو ستا من قبل، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالى؟..

- أنت شكاك لا نهاية لشكك، ما الموقف المثالى؟

ـ أن يصر على رفض الوزارة حتى لا يخضع للإنذار البريطانى وليكن ما يكون.

ـ ولو عزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم عسكرى بريطانى؟

ـ ولو! . .

تنهد رياض فى غيظ وقال:

ـ نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة، أما السياسى فأمامه مسئولية خطيرة، فى هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النحاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد حاكم عسكرى إنجليزى؟ وإذا انتصر الحلفاء ـ ويجب أن نفترض هذا أيضًا ـ فنكون فى صفوف الأعداء المنهزمين، السياسة ليست مثالية شعرية ولكنها واقعية حكيمة . .

ـ لا زلت أومن بالنحاس، ولكن لعله أخطأ، لا أقول تآمر أو خان . .

ـ المسئولية تقع على العابثين الذين ملأوا الفاشست من وراء ظهور الإنجليز كأن الفاشست سيحترمون استقلالنا، أليس بيننا وبين الإنجليز معاهدة؟ وأليس الشرف يقضى علينا باحترام كلمتنا؟ ثم ألسنا ديموقراطيين يهمنا أن تنتصر الديموقراطية على النازية التى تضعنا فى جدول الأمم والأجناس فى أحط طبقة وتثير شحناء الجنسية والعنصرية والطائفية؟! . .

ـ معك فى هذا كله، ولكن الخضوع للإنذار البريطانى جعل من استقلالنا وهما! . .

ـ احتج الرجل على الإنذار ونزل الإنجليز عند رأيه . .

فضحك إسماعيل عاليا ثم قال:

ـ يا عينى على الاحتجاج الأنجلو إجبشيان! . .

غير إنه سرعان ما قال جادا:

ـ إنى أقره على ما فعل، ولو كنت مكانه لفعلته، رجل أبعد رغم أغلبيته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه، والواقع أنه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ، ففى سبيل أى شىء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكرى إنجليزى؟!

وازداد وجه رياض تجهما، أما كمال فابتسم قائلاً فى هدوء بدا غريبًا:

ـ أخطأ الآخرون وتحمل النحاس نتيجة الخطأ، لا شك أنه أنقذ الموقف، أنقذ العرش والبلاد، ثم إن العبرة بالخاتمة، فإذا ذكر له الإنجليز صنيعه بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير!..

إسماعيل هازئا وهو يصفق طالبًا جمرات للنارجيلة:

ـ إذا ذكر الإنجليز صنيعه! وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقيلونه قبل ذلك!

فقال رياض بإيمان:

ـ الرجل تقدم لحمل أكبر مسئولية فى أحرج الظروف..

فقال كمال باسما:

ـ كما ستتقدم لحمل أكبر مسئولية فى حياتك!..

فضحك رياض، ثم نهض قائلاً «عن إذنكم» ومضى فى اتجاه دورة المياه، وعند ذاك مال إسماعيل نحو كمال وقال وهو يبتسم:

ـ فى الأسبوع الماضى زار والدتى «جماعة» لا شك أنك تذكرهم!

فنظر كمال إليه مستطلعًا وهو يتساءل:

ـ من؟..

فقال الآخر وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

ـ عايدة!

وقع الاسم من أذنيه موقعًا غريبًا، فغطت غرابة موقعه على كافة الانفعالات التى كان حريًا بأن يثيرها، وبدا حينا كأنما هو صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه، وكل شىء كان متوقعًا إلا هذا، ومضت لحظات وكأن الاسم ليس له معنى، من عايدة؟ أى عايدة؟ يا للتاريخ! كم عامًا مضى دون أن يطرق هذا الاسم مسامعه منذ ١٩٢٦، أو ١٩٢٧؟ ستة عشر عامًا أو عمر شاب يافع بالكمال لعله أحب ومنى بالإخفاق! لقد طعن فى السن حقًا، عايدة؟! ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى؟ لا شىء! ليس إلا اهتمامًا عاطفيًا مشوبًا بشىء من الانفعال كمن تمس يده موضع عملية جراحية ملتئم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى، وتمتم تسائلاً:

ـ عايدة؟!

ـ نعم، عايدة شداد ألا تذكرها؟ أخت حسين شداد!..

وشعر بمضايقة تحت عينى إسماعيل فقال متهربًا:

ـ حسين! ترى ما أخبار حسين؟

ـ من يدرى؟

وشعر بسخف تهربه، ولكن ما حيلته وقد أحس بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة؟ وبدا له الحب على مثال غريب بعض الشىء.. كالطعام! تشعر به بقوة وهو على المائدة، ثم وهو فى المعدة، ثم وهو فى الأمعاء على نحو ما، ثم وهو فى الدم على نحو آخر، حتى يستحيل خلايا ثم تتجدد الخلايا بمرور الزمن فلا يبقى منه أثر، لكن ربما بقى منه صدى فى الأعماق هو ما نسميه بالنسيان، وقد يعرض للإنسان «صوت» قديم فيدفع بهذا النسيان إلى قريب من منطقة الوعى فيسمع الصدى على وجه ما، وإلا فما هذا الاضطراب؟ أم لعله الحنين إلى عايدة لا باعتبارها المحبوبة التى كانت ـ فقد انتهى هذا إلى غير رجعة ـ

ولكن باعتبارها رمزًا للحب الذى كان كثيرًا ما يستوحش غيبته الطويلة، مجرد رمز كالخربة المهجورة التى تثير ذكريات تاريخية جليلة:

وعاد إسماعيل يقول:

ـ وتحادثنا طويلاً ـ أنا وعايدة وأمى وزوجى ـ فروت لنا كيف هربت هى وزوجها بل وجميع ممثلى الدول السياسيين أمام الجيوش الألمانية حتى لاذا بأسبانيا، وأنهما نقلا أخيرًا إلى إيران؛ ثم رجعنا إلى أيام زمان وضحكنا كثيرًا..

مهما يكن من أمر الحب الذى مات فقلبه يبعث حنينا مسكرًا، وأوتار الأعماق التى تهتكت أخذت تصعد أنغامًا بالغة فى الخفوت والحزن، وتساءل:

ـ ما شكلها الآن؟

ـ لعلها فى الأربعين، كلا أنا أكبر منها بعامين، عايدة فى السابعة والثلاثين، وامتلأت قليلاً عما كانت، لكنها ما زالت محتفظة برشاقتها، ووجهها هو هو تقريبًا فيما عدا نظرة عينيها التى أصبحت توحى بالجد والرزانة، وقالت إنها أنجبت ابنا فى الرابعة عشرة وبنتا فى العاشرة.

هذه هى عايدة إذن، لم تكن حلما ولم يكن تاريخها وهما، فقد تمر لحظات فيبدو ذلك الماضى كأنه لم يكن، وهى زوجة وأم وتذكر الماضى وتضحك كثيراً، ولكن ما حقيقة صورتها؟ ماذا بقى من هذه الحقيقة فى الذاكرة؟ فلشد ما تتغير المناظر فى أثناء حفظها بالذاكرة، وهو يود أن يلقى نظرة ثابتة على هذا الكائن البشرى لعله يقف على السر الذى مكنه قديمًا من أن يفعل به الأفاعيل.

وعاد رياض إلى مجلسه فخاف كمال أن يقطع إسماعيل حديثه ولكنه واصله قائلاً:

ـ وسألوا عنك!

ردد رياض نظره بينهما فأدرك أن حديثًا خاصًا يدور بينهما فعدل عنهما إلى النارجيلة، أما كمال فقد شعر بأن جملة «سألوا عنك» توشك أن تودى بقوة مناعته كأشد الميكروبات فتكا، وتساءل وهو يبذل أقصى ما يملك من قوة ليبدو طبيعيًا:

ـ لماذا؟

ـ سألوا عن فلان وعلان من أصحاب زمان ثم سألوا عنك فقلت مدرسًا بمدرسة السلحدار وفيلسوفًا كبيرًا ينشر مقالات لا أفهمها في مجلة الفكر التي لا أفتحها فضحكوا ثم سألوا «هل تزوج؟» فقلت كلا..

فوجد نفسه يسأل:

ـ ماذا قالوا؟

ـ لا أذكر ماذا حوّلنا عن هذا الحديث؟

إن المرض الكامن يهدد بالانفجار، والذى مرض قديمًا بالسل يجب أن يحذر البرد، أما جملة سألوا عنك فما أشبهها بأنغام الصبا في بساطة معناها وشديد نفاذها في النفس، وقد يطرأ ظرف فتعبر النفس حال عاطفية مندثرة بكامل قوتها الماضية ثم تنقطع.. كالمطر في غير أوانه، على ذلك شعر في هذه اللحظة العابرة بأنه انقلب ذلك العاشق القديم، وأنه يعانى الحب حيا بكافة أنفاسه السارة والحزينة، ولكن الخطر لم يكن يتهدده بصفة جدية فهو كالحالم المكروب الذى يداخله شعور ملطف بأن ما يراه حلمًا لا حقيقة، لكنه تمنى في تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو لبضع دقائق فتعترف له بأنها بادلته عاطفته يومًا أو بعض يوم وأن فارق السن أو غيره هو الذى فرق بينهما! لو وقعت هذه المعجزة لعزته عن كافة آلامه قديمها وحديثها ولعد نفسه سعيدًا في الخلق وأن الحياة لم تمض عبثًا، بيد أنها صحوة كاذبة كصحوة الموت،

والأحرى به أن يقنع بالنسيان، وهو نصر ولو انطوى على هزيمة، وليكن عزاؤه أنه ليس الوحيد فى البر الذى منى بخيبة الحياة، وتساءل:

- متى يسافرون إلى إيران؟

- سافروا أمس أو هذا ما أخبرتنى به فى زيارتها..

- وكيف تلقت كارثة أسرتها؟

- تجنبت هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هى إليه!

وإذا برياض قلدس يهتف مشيراً أمامه «انظروا» فنظروا إلى الجناح الأيسر من الشرفة فرأوا امرأة غريبة الشكل، كانت فى الحلقة السابعة، نحيلة الجسد، حافية القدمين، ترتدى جلبابا مما يرتدى الرجال، وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافتها أى أثر للشعر فهى صلعاء أو قرعاء، أما وجهها فبدا غارقًا فى أصباغ الزواق على هيئة مزرية مضحكة معا، ولم يكن فيها ناب واحد على حين راحت عيناها ترسلان فى جميع الجهات نظرات تودد واستعطاف باسم. تساءل رياض باهتمام:

- شحاذة؟

فقال إسماعيل:

- مجذوبة على الأرجح!

وقفت تنظر إلى المقاعد الخالية فى الجناح الأيسر ثم اختارت مقعداً وجلست، عند ذاك انتبهت إلى أعين المحدقين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- مساء الخير يا رجال!

فرحب رياض بتحيتهاوقال بحرارة:

- مساء الخير يا حاجة!

فندت عنها ضحكة ذكرت إسماعيل - على حد قوله - بالأزبكية فى عزها!.. وقالت:

ـ حاجة! نعم أنا كذلك إن كنت تقصد المسجد «الحرام»!

وضحكوا ثلاثتهم فتشجعت وقالت بإغراء:

ـ اطلبوا لى الشاى والنارجيلة ولكم الأجر عند الله . .

فصفق رياض بحماس ليطلب لها ما أرادت ومال على أذن كمال هامسًا هكذا تبدأ بعض القصص» أما العجوز فقد ضحكت فى سرور وقالت:

ـ هذا كرم أيام زمان! . . أغنياء حرب يا أولادى؟ . .

فقال كمال ضاحكًا:

ـ نحن فقراء حرب، أى موظفين ياحاجة . .

وسألها رياض:

ـ ما الاسم الكريم؟

فارتفع رأسها فى كبرياء مضحك وقالت:

ـ السلطانة زبيدة على سن ورمح!

ـ السلطانة؟!

ـ نعم . . (ثم وهى تضحك) . . ولكن رعيتى ماتوا!

ـ الله يرحمهم!

ـ الله يرحم الأحياء أما الأموات فحسبهم أنهم بين يدى الله . . ، خبرونى من أنتم؟

وجاء النادل بالنارجيلة والشاى وهو يبتسم، ثم اقترب من مجلس الأصحاب وسألهم:

ـ تعرفونها؟

ـ من هى؟

ـ زبيدة العالمة، أشهر عالمة فى زمانها، ثم انتهى بها العمر والكوكايين إلى ما ترون!

خيل إلى كمال أنه لا يسمع هذا الاسم للمرة الأولى أما رياض قلدس فقد ارتفع اهتمامه إلى الذروة فجعل يحث أصحابه على أن يعرفوها بأنفهسم كما طلبت حتى تنفتح نفسها للكلام فقال إسماعيل مقدما نفسه :

ـ إسماعيل لطيف .

فقالت ضاحكة وهى ترشف الشاى قبل أن يبرد :

ـ عاشت الأسماء ولو أنه اسم لا معنى له . .

فضحكوا ، وفى ذات الوقت سبها إسماعيل بصوت لم تسمعه ، أما رياض قلدس فقال :

ـ رياض قلدس .

ـ كافر؟! عشقنى واحد منكم كان تاجراً فى الموسكى اسمه يوسف غطاس ، كان قد الدنيا ، وكنت أصلبه على السرير حتى يطلع الصبح ! . .

وشاركتهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة فى وجهها ثم اتجه بصرها إلى كمال فقال :

ـ كمال أحمد عبد الجواد .

وكانت تقرب قدح الشاى من فيها فتوقفت يدها فى يقظة طارئة ثم حملقت فى وجهه متسائلة :

ـ قلت ماذا؟

فأجاب عنه رياض قلدس :

ـ كمال أحمد عبد الجواد .

فأخذت نفسا من النارجيلة وقالت وكأنما تخاطب نفسها :

ـ أحمد عبد الجواد! ولكن ما أكثر الأسماء! كالقروش أيام زمان . . (ثم مخاطبة كمال) . . والدك تاجر النحاسين؟

فدهش كمال وقال :

ـ نعم .

فقامت من مجلسها واقتربت منهم حتى وقفت أمامه ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكلها بأجيال وهتفت :

ـ إنت ابن عبد الجواد! يا ابن الرفيق الغالى! ولكنك لا تشبهه! هذا أنفه حقًا، ولكنه كان كالبدر فى ليلته، ما عليك إلا أن تذكره بالسلطانه زبيدة وهو يحدثك عنى بما فيه الكفاية!

أغرق رياض وإسماعيل فى الضحك، على حين ابتسم كمال وهو يغالب ما ركبه من ارتباك، وهنا فقط تذكر حديث ياسين فى الزمن الخالى، بل أحاديثه عن أبيه وزبيدة العالمة! وعادت تسأله :

ـ كيف حال السيد؟ انقطعت من زمن طويل عن حيكم الذى نبذنى، أنا الآن من أهل الإمام، ولكنى أحن إلى الحسين فأزوره كل حين ومين، وكنت مريضة وطال بى المرض حتى ضاق بى الجيران فلولا الملام لرمونى فى القبر حية، كيف حال السيد؟

فقال كمال فى شىء من الوجوم :

ـ توفى منذ أربعة أشهر . .

فقطبت قليلاً وقالت :

ـ إلى رحمة الله، يا خسارة، كان رجلا ولا كل الرجال . .

ثم عادت إلى مجلسها، وبغتة ضحكت ضحكة عالية، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل الشرفة وهو يقول لها منذرًا :

ـ كفاية ضحك، سكتنا له دخل بحماره، كتر خير البكوات على إكرامهم لك، ولكن إن عدت إلى الزياط فالباب من هنا . . فلاذت بالصمت حتى ذهب الرجل، ثم نظرت إليهم باسمة، ثم سألت كمال :

ـ وأنت كأبيك أم لا . . ؟

وأتت بيدها حركة شاذة فضحك الأصدقاء وقال إسماعيل :

ـ إنه لم يتزوج بعد ! . .

فقالت فى لهجة ارتياب عابث :

ـ الظاهر أنك ابن أونطة ! . .

فضحكوا ، ثم نهض رياض ، ومضى إليها فجلس إلى جانبها وهو يقول :

ـ حصل لنا الشرف يا سلطانة ، ولكنى أود أن أسمع لك وأنت تحدثينا عن أيام السلطنة ! . .

٤١

لم يبق إلا ثلث ساعة ثم تلقى المحاضرة ، أما قاعة إيوارت فقد قاربت الامتلاء ، إن مستر روجر ـ كما قال رياض قلدس ـ أستاذ خطير ، وهو كأخطر ما يكون حين يتكلم عن شكسبير . أجل قيل إن المحاضرة لن تخلو فى النهاية من نوع من الدعاية السياسية ولكن ماذا يهم فى ذلك مادام المحاضر هو مستر روجر والموضوع هو وليم شكسبير . غير أن رياض كان مغتمًا واجمًا ، ولولا أنه هو الذى دعا كمال إلى سماع المحاضرة لتخلف عن شهودها ، وكان حزينا كما ينبغى لرجل مثله تستأثر السياسة باهتمامه كل هذا الاستئثار . وكان يهمس فى أذن كمال بانفعال غير خاف : .

ـ يفصل مكرم من الوفد ! كيف تقع هذه الخوارق ؟ !

ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذلك فهز رأسه فى وجوم دون أن ينبس :

ـ إنها كارثة قومية ياكمال، ما كان ينبغى أن تتهاوى الأمور حتى هذا الحضيض . .

ـ نعم، ولكن من المسئول؟

ـ النحاس! . قد يكون مكرم عصبيًا، ولكن الفساد الذى تسرب إلى الحكومة أمر واقع ولا يصح السكوت عليه .

فقال كمال باسمًا :

ـ دعنا من الفساد الحكومى، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هى لضياع النفوذ . .

فتساءل رياض فى شىء من التسليم :

ـ أيباع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة؟ . .

فلم يتمالك كمال أن ضحك قائلاً :

ـ لقد بعت نفسك أنت بهذه العاطفة الزائلة! . .

ولكن رياض قال دون أن يبتسم :

ـ أجبنى! . .

ـ مكرم عصبى، شاعر ومغن! عنده أن يكون كل شىء أو لا يكون شيئًا على الإطلاق، وجد نفوذه المأثور يتقلص فثار، ثم وقف لهم وقفته فى مجلس الوزراء منددًا علانية بالاستثناءات فاستحال التفاهم أو التعاون، حدث يؤسف له!

ـ والنتيجة؟

ـ هناك السراى تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد فى الوفد، وستحتضن مكرم فى الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل،

سنرى من الآن فصاعدا مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراى، إما هذا وإما العزلة، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحاس أو أكثر، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد إلا كراهة فى مكرم ولكنهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به. .

فعبس رياض وقال:

ـ صورة بشعة، أخطأ الاثنان، النحاس ومكرم، إن قلبى متشائم من هذه الحركة. .

ثم بصوت أشد انخفاضًا:

ـ سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى، أو يأوون إلى حصن عدوهم اللدود «الملك» وهو مأوى لن يدوم لهم طويلاً، وإذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال؟

فتساءل كمال متغابيًا:

ـ لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة؟ مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم، إنه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومى فلن يذهب. .

فهز رياض رأسه فى أسف ساخر وقال:

ـ هذا ما قد يكتب فى الجرائد، أما الحقيقة فهى ما أعنى، لقد شعر الأقباط بأنهم طردوا من الوفد، وهم يتلمسون الأمان وأخشى ألا يظفروا به أبدا، لقد جاءتنى السياسة أخيراً بعقدة جديدة كعقدة الدين، فكما كنت أنبذ الدين بعقلى وأميل إليه بقلبى بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبى وأميل إليه بعقلى، إذا قلت إنى وفدى فقد كذبت قلبى وإذا قلت إنى عدو للوفد خنت عقلى، إنها كارثة لم تخطر لى على بال، والظاهر أنه مقضى علينا نحن الأقباط

بأن نعيش فى شخصيات منقسمة أبدا، لو كانت مجموعتنا فرداً واحداً لجن!..

شعر كمال بامتعاض وألم، وبدت له لحظتذاك جماعات البشر وكأنها تمثل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفجعة، ثم قال فى صوت لا ينم عن إيمان:

ـ عسى أن تكون مشكلة وهمية، إذا نظرتم إلى مكرم كرجل سياسى لا الأمة القبطية جميعًا!..

ـ هل ينظر إليه المسلمون أنفسهم على هذا النحو؟!

ـ هكذا أنظر إليه أنا!

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال:

ـ إنى أتساءل عن المسلمين فما دخلك أنت؟

ـ أليس موقفنا واحدا أعنى أنا وأنت؟

ـ بلى مع فارق بسيط، وهو أنك لست من الأقلية.. (ثم وهو يبتسم) لو عشت فى عصر الفتح الإسلامى وتكشف لى الغيب لدعوت الأقباط جميعًا إلى الدخول فى دين الله!..

ثم فى شىء من الاحتجاج:

ـ إنك لا تصغى إلى..!

أجل! . كانت عيناه مصوبتين نحو مدخل القاعة، ونظر رياض إلى حيث ينظر فرأى فتاة فى مقتبل العمر، ترتدى فستانا رماديا بسيطا، فى هيئة الطالبات، وقد جلست فى المقاعد الأمامية المخصصة للسيدات.

ـ تعرفها؟..

ـ لا أدرى!..

وانقطعت فرصة الكلام إذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصة ودوت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم ساد الصمت الذى تبدو فيه السعلة كالذنب

الفاضح، ثم قدمه مدير الجامعة الأمريكية بكلمة مناسبة، ثم بدأ الرجل في إلقاء محاضرته. وظل كمال أكثر الوقت متجه العينين نحو رأس الفتاة فى تساؤل واهتمام. وكان قد رآها مصادفة عند دخولها، فدهمه منظرها، وانتزعته بقوة من تيار أفكاره، ثم قذفت به فى الماضى عشرين عامًا ثم استردته إلى الحاضر وهو يلهث. خيل إليه أول الأمر أنه يرى عايدة، غير أنها لم تكن عايدة دون ريب. . هذه الفتاة التى لا يمكن أن تجاوز العشرين، ولم يتح له وقت كاف كى يتفحص قسماتها ولكن جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجه والقامة والروح ومجتلى العينين، أجل لم ير هاتين العينين فى غير وجه عايدة من قبل. أتكون شقيقتها؟. خطر له هذا الرأى أول ما خطر، بدور، ولم يغب عنه الاسم هذه المرة، وسرعان ما ذكر صداقتها له فى الماضى البعيد، ولكن هيهات ـ أن تكون حقًا هى ـ أن تتذكره، المهم أن صورتها أيقظت قلبه، ردته ولو إلى حين إلى شىء من تلك الحياة الغامرة التى اكتظ بها زمنا، فهو فى اضطراب، يسمع إلى الأستاذ المحاضرة دقائق ثم ينظر إلى رأس الفتاة أكثر الوقت، ثم يغرق فى موجة الذكريات، مستشعرًا فى أناة جملة المشاعر التى تتلاحم وتصطرع فى وجدانه. فلأتبعها لأعرف حقيقتها، لا غاية لى ولكن الملول مشاء، إنى أتوق لأى شىء قد يمسح عن روحى الصدأ المتكاثف فوقها. وتربص مبيتا هذه النية، ترى أطالت المحاضرة أم قصرت؟. لا يدرى. ولكنه عند انتهائها أفضى بغرضه إلى رياض ثم ودعه وسار فى أثر الفتاة. تابع بعناية مشيتها، مشية رشيقة، قامة هيفاء، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأن الأخرى لم يعد متوكدا منها، أما القامة فأغلب الظن أنها هى هى، وكان شعر الأخرى «ألا جرسون» اما هذا الشعر فغزير معقوص، ولكن اللون الأسود واحد فى الحالين ما فى ذلك شك، ولم يستطع أيضًا أن يتفحص وجهها على محطة الترام لازدحامها بجمهور المستمعين، ولكنها استقلت الترام رقم

١٥ الذاهب إلى العتبة وانحشرت فى الحريم فاستقله وراءها وهو يتساءل ترى أهى فى طريقها إلى العباسية أم أن ما يفترضه ليس إلا أضغاث أحلام؟ عايدة لم تستقل تراما فى حياتها قط، كان رهن أمرها سيارتان، أما هذه المسكينة. . ! وداخله حزن كحزنه يوم استمع إلى قصة إفلاس شداد بك وانتحاره. وأفرغ الترام أكثر حمولته فى العتبة فاختار موقفًا غير بعيد منها فوق طوار المحطة، وجعلت تنظر صوب الناحية التى تترقب مجىء الترام منها فرأى جيدها الطويل النحيل، ذلك العهد القديم، ثم لاحظ أن بشرتها قمحية اللون مع ميل إلى البياض، ليست خمرية كالصورة الذاهبة، فشعر لذلك بأول أسف منذ تبعها، كأنما تبعها ليرى الأخرى. ثم جاء ترام العباسية فتأهبت للركوب. ولما وجدت الحريم مزدحمة استقلت عربة الدرجة الثانية، ولم يتردد فكان فى أعقابها، وجلست فجلس إلى جانبها، ثم امتلأت المقاعد على الصفين، ثم امتلأ ما بينهما بالواقفين. ووجد لتوفيقه فى الجلوس إلى جانبها ارتياحًا لا مزيد عليه، غير أن جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرة أخرى، ربما لما يحدثه ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين، القديمة الخالدة والماثلة إلى جانبه. وكان منكبه يلامس منكبها ملامسة خفيفة كلما ند عن الترام حركة مفاجئة خاصة عند القيام والوقوف، وجعل يلاحظها كلما أمكن ويتفحصها ما استطاع. هاتان العينان السوداوان الساجيتان، والحاجبان المقرونان، والأنف السوى اللطيف، والوجه البدرى، كأنه ينظر إلى عايدة. حقًا؟ كلا، ثمة تباين فى لون البشرة، ولمسة اختلاف هنا أو هناك، لا يذكر إن كانت إلى الزيادة هى أم إلى النقصان، ومع أن تباينهما كان يسيرا إلا أن إحساسه به كان خطيرًا فهو كدرجة الحرارة الواحدة التى قد تكون فاصلاً بين الصحة والمرض، ولكنه كان فى الوقت نفسه حيال أقرب مثال إلى عايدة التى خيل إليه أنه بات يذكرها أوضح من أى وقت مضى على ضوء هذا الوجه الجميل.

والجسم لعله هو هو، ما أكثر ما تساءل عنه، فلعله الآن يراه، وهو رشيق نحيل، صدره آية فى الحياء، كذلك هو فى جملته، لا يمت بسبب إلى جسم عطية البض المدملج الذى يتعشقه! فهل فسد ذوقه على مر الأيام؟ أو أن حبه القديم كان ثائراً على غريزته الكامنة؟ بيد أنه كان حبًا سعيداً حالمًا ثمل القلب بنشوات الذكريات، وكانت ملامساته المتقطعة لها تزيده نشوة وإغراقًا فى التأملات، إنه لم يمس عايدة، كان يراها أبدا مستحيلة المنال، أما هذه الصغيرة فهى تسير فى الأسواق وتجلس فى تواضع بين جمهور الدرجة الثانية، فما أشد حزنه! وذلك التباين الطفيف الذى أحنقه وخيب أمله، وقضى على حبه القديم بأن يبقى لغزا إلى الأبد. وجاء الكمسارى مناديًا «التذاكر والأبونيهات» ففتحت حقيبتها وأخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتى يصل الرجل إليها. فاسترق على التذكرة النظر حتى عثر على اسمها «بدور عبد الحميد شداد.. طالبة بكلية الآداب» لم يعد ثمة شك، إن قلبى يخفق أكثر مما ينبغى، لو أستطيع أن أنشل هذا الاشتراك! كى احتفظ بأقرب صورة لعايدة، آه لو كان فى الإماكن هذا، مدرس فى السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلية الآداب! يا له من عنوان مثير تتمناه الجرائد، فيلسوف فاشل فى حدود الأربعين! ترى ما سن بدور؟ لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهى فى الواحدة والعشرين من عمرها السعيد، السعيد؟! لا قصر ولا سيارة ولا خدم ولا حشم، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلت الكارثة بأسرتها، وهو عمر حرى بأن يدرك معنى الكارثة ويذوق الألم، تألمت المسكينة وذعرت ابتليت بهذا الشعورى القاسى الذى أصبحت به جد خبير جمعنا الألم على تفاوت فى الزمن كما جمعتنا الصداقة القديمة المنسية، وجاءها الكمسارى فسمعها وهى تقول له «تفضل» ثم ناولته التذكرة، وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرا طويلا ثم انبعثت فى السمع بكل حلاوتها

وجميع ذكرياتها فأحيت فترة سماوية من الزمن دومت أذنه فى مملكة الطرب الإلهية مستهدفة أحلام الزمان الغابر، هذه النغمة الدافئة الرخيمة المفعمة بسحر الطرب. أسمعينى صوتك وما هو بصوتك، يا صديقتى القديمة السيئة الحظ، من حسن الحظ أن صاحبة هذ الصوت الأصلية ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى، لم ترتق إليها الأحزان التى أغرقت أسرتها، أما أنت فقد انحدرت إلينا نحن جمهور الدرجة الثانية، ألا تذكرين صديقك الذى كنت تتعلقين بعنقه وتبادلينه القبل؟ كيف تعيشين اليوم يا صغيرتى؟ وهل تعملين مثلى فى النهاية مدرسة فى إحدى المدارس الابتدائية؟ ومر الترام بمكان القصر القديم الذى قام فى موضعه بناء ضخم جديد، وقد رآه قبل ذلك فى المرات القلائل التى زار فيها العباسية منذ انقطاعه التاريخى عنها خاصة فى العهد الأخير وهو يتردد على بيت فؤاد جميل الحمزاوى. العباسية نفسها تغيرت كبيتكم يا صغيرتى، اختفت قصورها وحدائقها التى عاصرت حبى وحزنى، وقامت مكانها العمارات الضخمة المكتظة بالسكان والحوانيت والمقاهى والسينمات، فليسر بذلك أحمد المفتون بمتابعة صراع الطبقات أما أنا فكيف أشمت بالقصر وآله على حين أن قلبى مطمور فى أنقاضه؟ أو كيف أحتقر المخلوق البديع الذى لم يذق نكد العيش ولا زحمة الشعب إذ كان يخطر كالمعنى الجميل وقلبى له ساجد؟

وعندما توقف الترام فى المحطة التالية لقسم الوايلى غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطة يراقبها، فرآها وهى تعبر الطريق إلى شارع «ابن زيدون» الذى يواجه المحطة مباشرة. كان شارعا ضيقا تقوم على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتغطى وجهه الممهد بالأسفلت والأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت إلى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كواء. ووقف ينظر إلى الطريق والبيت فى صمت واجم، ذلك المكان الذى تقيم فيه اليوم سنية هانم

حرم شداد بك! وهذه الشقة لا يزيد إيجارها على ثلاثة جنيهات، وليت سنية هانم تخرج إلى الشرفة ليلقى عليها نظرة ويقيس ما حاق بها من تغير لا شك أنه خطير، ولعله لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلاملك متأبطة ذراع زوجها إلى حيث تنتظر السيارة، كانت تختال عجبا فى معطفها الوثير وتلقى على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنية، ولن يمنى الإنسان بعدو أشد فتكا من الزمن. فى هذه الشقة نزلت عايدة فى أثناء إقامتها بالقاهرة، ولعلها جلست بعد العصارى فى هذه الشرفة البالية، ولعلها قاسمت أمها وأختها فراشهما الواحد ما فى ذلك ريب، فليتنى علمت بوجودها فى الوقت المناسب، وليتنى رأيتها بعد ذلك التاريخ الطويل، كان ينبغى أن أراها وأنا متحرر من استبدادها. كى أعرفها على حقيقتها، وبالتالى كى أعرف نفسى أنا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة..

٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب يصغى إلى الدرس الذى يلقيه الأستاذ الإنجليزى، لم تكن أول مرة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرة فيما بدا له، ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان فى الحضور - كمستمع - لمتابعة الدروس المسائية التى تلقى ثلاث مرات فى الأسبوع، وأكثر من هذا فإن الأستاذ قد رحب به عندما علم بأنه مدرس لغة إنجليزية. أجل كان غريبًا بعض الشىء أن يعنى بمتابعة هذه الدروس فى أواخر العام الدراسى ولكنه علل ذلك أمام الأستاذ بأنه يقوم ببحث استدعى متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاته منها، وكان قد علم بوجود بدور فى هذا القسم عن طريق رياض

قلدس الذى عرفه بدوره عن طريق صديقه سكرتير الكلية. وبدا منظره، ببذلته الأنيقة ونظرته الذهبية وطوله ونحوله وشاربه الغليظ وشعيراته البيض التى تلتمع فى سوالفه إلى رأسه الضخم وأنفه الكبير، بدا كل أولئك ملفتًا للأنظار خاصة وهو يجلس بين عدد محدود من الشباب الغض، فكم بدوا كالمتسائلين وكم حدجوه بنظرات لم يرتح لها، حتى خيل إليه أنه يسمع ما يدور فى نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدرى بها وأخبر! وهو نفسه كان يعجب لهذه الخطوة الخارقة التى أقدم عليها دون مبالاة على ما جشمته من جهد وحرج، ما بواعثها الحقيقية وما هدفها؟ لا يدرى شيئًا على وجه التحقيق ولكنه ما إن رأى بارقة نور فى ظلمة حياته الداكنة حتى انذلق يتسمته وهو لا يلوى على شىء مدفوعًا بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل، غير مبال بما قد يعثر به فى طريق محفوف بالتزمت والتقاليد من ناحية، وبالسباب المتوثب للسخرية من ناحية أخرى. كان غارقًا فى اليأس والملل فجرى ملهوفًا وراء هذا الشىء الذى لا يشك فى أنه تسلية وأى تسلية، وحياة وأى حياة، وبحسبه أنه انقلب يهتم بالزمن وينشد الأمل ويأمل فى المسرة، بل وها هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميتًا، وكان يشعر بضيق الوقت، فالعام الدراسى يشارف نهايته المحتومة، بيد أن نهايته لم تضع هباء، فبدور قد رأته كما رآه الجميع، ولعلها شاركت فيما يدور من همس حوله، إلى أن عينيهما قد تلاقتا أكثر من مرة، ولعلها طالعت فى عينيه ما يضطرم فى ذاته من الاهتمام والإعجاب، من يدرى؟ وفضلاً عن هذا كله فعند العودة يستقلان ترام الجيزة معًا ثم ترام العباسية، وكثيراً ما يجلسان فى مكان واحد، فباتت تعرفه جيداً، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حيها كله، خاصة إذا كان مدرسًا حريصًا على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار. أما عن غايته من هذا كله فلم يشق على نفسه فى تحقيقها، لقد دبت فيه الحياة بعد موات فتهالك

عليها، وهو تواق بكل قوة نفسه المعذبة إلى أن يعود ذلك الإنسان الذى تعتلج فى وجدانه المشاعر وتهيم فى عقله الخواطر وتنجلى فى حواسه المناظر، وأن ينسى بهذا السحر ضجره وسقمه وحيرته أمام ألغاز لاتحل، كأنها الخمر ولكنها أعمق متاعًا وألطف عاقبة. وفى الأسبوع الماضى حدث شىء تأثر له قلبه أيما تأثر، فقد عاقه إشرافه على النشاط الرياضى بمدرسة السلحدار عن الوصول إلى الكلية فى الوقت المناسب، فدخل حجرة الدرس متأخرًا، والتقت عيناهما عند دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتًا، التقت عيناهما التقاء خاطفا سحريا وسرعان ما أرخت جفونها فيما يشبه الحياء. لم تكن إذن مجرد نظرة تلتقى فيها عينان محايدتان، وبات مرجحًا أنها استشعرت شيئًا من الحياء، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيه قد ضاع عبثًا؟! الصغيرة باتت تستحى من نظراته فلعلها أخذت تدرك أنها ليست بالنظرات البريئة التى توجهها المصادفة، وأثار ذلك فى نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيراً من الصور، حتى وجد نفسه يتذكر عايدة ويتخيلها، ولكنه لم يدر لماذا، فإن عايدة لم تغض طرف حياء حياله قط، فلعل شيئا آخر الذى ذكره بها، لفتة أو رنوة أو ذلك السر الساحر الذى ندعوه بالروح. وأول أمس حدث شىء آخر له خطورته كذلك، انظر كيف ردت الحياة إليك! قبل ذلك لم يكن لشىء خطورة قط، أو لم تكن تضفى الخطورة إلا على هذه الألغاز العقيمة كالإرادة عند شوبنهور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون، كانت الحياة كلها صماء لا خطر لها، انظر اليوم كيف أن رنوة أو لفتة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جميعًا! حدث ذلك وهو ماض إلى الكلية قبل الخامسة مساء مخترقًا حديقة الأورمان، فما يدرى إلا وبدور وثلاث فتيات يطالعنه على أريكة ينتظرن غليها ميعاد الدرس، والتقت عيناهما التقاء عميقًا كما وقع فى حجرة الدرس، وكان يود أن يحييهن عند الاقتراب ولكن

الممشى الذى يسير فيه عرج به بعيداً عنهن كأنه أبى أن يشترك فى هذه المؤامرة العاطفية المرتجلة، ولما ابتعد قليلاً التفت وراءه فرآهن يهمسن فى أذنها باسمات وهى مسندة رأسها إلى راحتها كأنما تخفى وجهها! ما هذا المنظر البديع؟! لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره، ولكنه لا يحتاج إلى براعة رياض، لا شك أنهن يهمسن لها عنه حتى أخفت وجهها حياء! هل ثمة معنى غير هذا؟. فلعل الصب فضحته عيونه، ولعله جاوز المدى وهو لا يدرى حتى صار أحدوثة، وماذا يكون من أمره لو انقلب الهمس تعريضا يتمازح به الطلبة الشياطين؟! وفكر جاداً فى الانقطاع عن الكلية، ولكنه وجدها تجلس إلى جانبه فى ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أول يوم تبعها فيه! وترصد التفاتها ناحيته ليحييها وليكن ما يكون، فلما طال انتظاره بعض الشىء التفت هو ثم تظاهر بأنه فوجئ بجلوسها لصقه فهمس فى أدب:

ـ مساء الخير..

فنظرت نحوه كالداهشة ـ لم تترك له عايدة ذكرى تصنع أنثوى من أى نوع كان ـ ثم همست:

ـ مساء الخير..

زميلان يتبادلان التحية ولا غبار على ذلك، لم يكن مع أختها بهذه الجرأة، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج.

ـ حضرتك من العباسية فيما أعتقد؟

ـ نعم...

ـ لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها!

ـ من المؤسف أننى لم أتابع المحاضرات إلا أخيراً..

ـ نعم..

ـ أرجو أن أعوض ما فاتنى فى المستقبل..

فابتسمت دون أن تنبس، «زيدينى من سماع صوتك فإنك النغمة الوحيدة من الماضى التى لم يغيرها الزمن» . .

ـ ماذا تنوين بعد الليسانس؟ معهد التربية؟

فقالت باهتمام لأول مرة:

ـ لا حاجة بى إلى ذلك لأن الوزارة محتاجة إلى مدرسات ومدرسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد فى التعليم . .

طمع فى نغمة واحدة فوهب لحنا كاملاً!

ـ إذن ستعملين مدرسة!

ـ نعم، لم لا؟

ـ إنها مهنة شاقة، سلينى عنها.

ـ حضرتك مدرس فيما سمعت؟

ـ نعم، أوه، نسيت أن أقدم نفسى، كمال أحمد عبد الجواد.

ـ تشرفنا.

فقال باسما:

ـ ولكنك لم تشرفينى بعد؟

ـ بدور عبد الحميد شداد!

ـ تشرفنا يا افندم . .

ثم مستدركا كمن فوجئ بشىء فريد:

ـ عبد الحميد شداد! ومن العباسية؟ حضرتك أخت حسين شداد؟

فلمعت عيناها فى اهتمام وقالت:

ـ نعم.

فضحك كمال كأنما يضحك عجبًا من غرابة المصادفات وقال:

ـ يا سلام! كان أعز أصدقائى، وقضينا معًا أيامًا سعيدة جدًا، رباه! أنت أخته الصغيرة التى كانت تلعب فى الحديقة؟

فحدجته بنظرة استطلاع. هيهات أن تتذكره! . . «فى ذلك العهد كنت مغرمة بى كما كنت مغرما بأختك».

ـ لا أذكر شيئًا طبعًا . .

ـ طبعًا، هذا تاريخ يرجع إلى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦، تاريخ سفر حسين إلى أوربا، ماذا يفعل الآن؟

ـ فى فرنسا فى القسم الجنوبى الذى انتقلت إليه الحكومة الفرنسية عقب الاحتلال الألمانى . .

ـ وكيف حاله؟ من زمن طويل انقطعت عنى أخباره ورسائله . .

ـ بخير . .

نطقت بها فى لهجة نمت عن رغبة فى الخوض فى الموضوع أكثر من ذلك، وتساءل كمال والترام يمر بمكان القصر القديم: ترى ألم يخطئ بمكاشفتها بصداقته القديمة لأخيها؟ أليس فى ذلك حدا من حريته فيما هو بسبيله؟ ولما جاءت المحطة التالية لقسم الوايلى حيته وغادرت الترام، فلبث فى مكانه كأنما نسى نفسه. كان طوال الطريق يتفحصها كلما سنحت فرصة لعله يهتدى إلى السر الذى سحره قديما، ولكنه لم يجده وإن شعر مرارًا بأنه منه قريب. وكانت تبدو لطيفة وديعة، وكانت تبدو قريبة المنال، وهو الآن يشعر كأنما يعانى خيبة أمل غامضة وحزنا غير بين الأسباب، لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما اعترضه عائق جدى. أجل إنها تبدو مستجيبة ملبية، رغم فارق السن المحسوس أو بسبب فارق السن؟! ثم إن التجارب قد علمته أن شكله لن يعوقه عن الزواج إذا أراده. وهو إذا تزوجها انتقل بقدرة قادر إلى عضوية أسرة عايدة، ولكن ما كنه هذا الخيال السخيف؟ وما عايدة

الآن بالنسبة إليه؟ الحق أنه لا يريد عايدة، ولكنه لا يكف عن التطلع إلى معرفة سرها، لعله يقتنع فى الأقل بأن أزهى عصور العمر - لم يضع هباء. ووجد رغبة طالما ألحت عليه على فترات من العمر - فى مراجعة كراسة الذكريات وعلبة الملبس التى أهديت إليه ليلة الزفاف.

ثم جاش صدره بالحنين حتى تساءل ترى أيمكن أن يقع الإنسان فى الحب وهو يحسن فهمه ويلم بعناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية؟ ولكن هل يقى الكيميائى علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين؟ أو فلماذا يجيش صدره هذا الجيشان؟ رغم ما منى به من خيبة الأمل، رغم الفارق الكبير بين الماضى والحاضر، رغم أنه لا يدرى إن كان من أهل الماضى أم من أهل الحاضر، رغم هذا كله فصدره جياش وقلبه يخفق..

٤٣

هنا حديقة الشاى، سماؤها أفرع وغصون ريانة، ومرتاد النظر البط السابح فى البحيرة الزمردية، والجبلاية فيما وراء ذلك، واليوم عطلة مجلة الإنسان الجديد، وهاهى سوسن حماد تبدو رائعة فى فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين، وهى آخذة زينتها ولكن فى لباقة وحذر، وكان قد مضى على زمالتهما عام فجلسا متقابلين يضىء وجهيهما ابتسام التفاهم، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكأسا دندورمة لم يبق فيهما إلا ذوب ثمالة الحليب المورد بالفراولا، «إنها أعز شىء لدى فى هذه الدنيا، أدين لها بمسراتى جميعًا وهى قبلة آمالى أيضًا، ونحن زميلان مخلصان، لم ينطق الحب بيننا ولكننى لا أشك فى أننا متحابان، ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون، بدأنا رفيقين فى ميدان

الحرية، وعملنا يدا واحدة، وكلانا مرشح للسجن، وكنت كلما نوهت بجمالها حملقت فى وجهى محتجة وزجرتنى مقطبة كأن الحب شىء لا يليق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنا فيه من عمل، ويومًا قلت لها: «إنى أحبك.. إنى أحبك.. فافعلى ما بدا لك»، فقالت لى: «هذه الحياة هى الجد كل الجد وأنت تعبث»، فقلت لها: «إنى مثلك أرى أن الرأسمالية فى طور الاحتضار وأنها استنفدت كافة أغراضها، وأن على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتدور آلة التطور إذ أن الثمرة لن تسقط وحدها، وأن علينا أن نخلق الوعى ولكن بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك» فقطبت تقطيبة متكلفة بعض الشىء وقالت: «إنك تصر على إسماعى ما لا أحب»، وشجعنى خلو حجرة السكرتارية فهويت إلى وجهها فجأة ولثمت خدها فحدجتنى بنظرة قاسية وأكبت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة فى الاتحاد السوفيتى الذى كنا نترجمه معًا.

- هذا الحر كله فى يونيه فكيف إذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزتى؟

- يبدو أن الإسكندرية لم تخلق لأمثالنا!

فضحك قائلاً:

- ولكن الإسكندرية لم تعد مصيفًا، كانت كذلك قبل الحرب أما اليوم فالإشعات قد جعلتها خرابًا..

- الأستاذ عدلى كريم يؤكد أن أغلبية سكانها قد هجروها وأن طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها!

- هى كذلك، وعما قليل يدخلها رومل بجيوشه..

ثم بعد صمت قصير:

- وسوف يلتقى فى السويس بالجيوش اليابانية الزاحفة على آسيا ويعود العهد الفاشستى كما كان فى العصر الحجرى!

فقالت سوسن فى شىء من الانفعال:

ـ روسيا لن تنهزم، وإن آمال البشرية مصونة خلف جبال الأورال. . .

ـ نعم لكن الألمان على أبواب الإسكندرية!

تساءلت وهى تنفخ:

ـ لماذا يحب المصريون الألمان؟

ـ كراهة فى الإنجليز، وسوف يمقتونهم فى الغد القريب، إن الملك يبدو اليوم كالسجين ولكنه سينطلق من سجنه ليستقبل رومل ثم يشربان معا نخب وأد الديموقراطية الناشئة فى بلادنا، ومن المضحك أن الفلاحين يظنون أن رومل سيوزع الأرض عليهم!

ـ أعداؤنا كثيرون، الألمان فى الخارج، والإخوان والرجعية فى الداخل وكلاهما شىء واحد. .

ـ لو سمعك أخى عبد المنعم لثار على رأيك، يعتبر الإخوانية فكرة تقدمية تزرى بالاشتراكية المادية. .

ـ قد يكون فى الإسلام اشتراكية، ولكنها اشتراكية خيالية كالتى بشر بها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، إنه يبحث عن حل للظلم الاجتماعى فى ضمير الإنسان بينا أن الحل موجود فى تطور المجتمع نفسه، إنه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولكن إلى أفراده، وليس فيه بطبيعة الحال أية فكرة عن الاشتراكية العلمية، وفضلاً عن هذا كله فتعاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أسطورية تلعب فيها الملائكة دوراً خطيراً، لا ينبغى أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرنا فى الماضى البعيد، قل هذا لأخيك. .

فضحك أحمد فى سرور غير خاف وقال:

ـ أخى شاب مثقف وقانونى ذكى، إنى أعجب كيف يتحمس أمثاله للإخوان!

فقالت بازدراء:

ـ الإخوان يصطنعون عملية تزييف هائلة، فهم حيال المثقفين يقدمون الإسلام فى ثوب عصرى، وهم حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار، فينتشرون باسم الاشتراكية والوطنية والديموقراطية.

حبيبتى لا تمل الحديث عن مبادئها، قلت حبيبتى؟ نعم فمنذ القبلة التى اختلستها دأبت على أن أدعوها بحبيبتى وكانت تحتج بالكلام تارة وبالإشارة تارة أخرى ثم جعلت تتجاهله كأنما قد يئست من إصلاحى، وعندما قلت لها إنى تواق إلى سماع كلمات الحب من ثغرها المشغول بالاشتراكية وبختنى قائلة باحتقار: «هذه النظرة البورجوازية العتيقة إلى المرأة.. هه؟!» فقلت لها جزعًا: إن احترامى لك فوق كل كلام وإنى لأعترف بأنى تلميذك فى أنبل ما صنعت فى حياتى ولكننى أحبك كذلك وما فى ذلك من بأس. فذهب غضبها فيما شعرت ولكنها استبقت مظاهره فيما رأيت، واقتربت منها مضمرا تقبيلها فلا أدرى كيف حزرت غرضى فدفعتنى فى صدرى ولكننى رغم ذلك لثمت خدها وما دام المحذور قد وقع ـ وقد كان بوسعها منعه جديًا ـ فقد اعتبرتها راضية، وإنها لكائن بديع جميل العقل والجسم معًا رغم إغراقها فى السياسة، وعندما دعوتها للنزهة فى الحديقة قالت: «على شرط أن نأخذ معنا الكتاب لنواصل الترجمة» قلت لها: بل للفرجة والمناجاة وإلا كفرت بالاشتراكية جميعًا! ولعله مما يزعجنى كثيرًا حيال نفسى المتشبعة بالسكرية إننى مازلت أنظر أحيانا إلى المرأة بالعين التقليدية البورجوازية فيخيل إلى فى بعض ساعات التقهقر والخور أن الاشتراكية عند المرأة التقدمية ليست إلا نوعًا من الفتنة كضرب البيانو والتبرج ولكن من المسلم به كذلك أن العام الذى زاملت فيه سوسن قد

غيرنى كثيرا وطهرنى لدرجة محمودة من البورجوازية المستوطنة فى أعماقى! . .

ـ من المؤسف أن زملاءنا يعتقلون بلا حساب! . .

ـ نعم يا حبيبتى، الاعتقال موضة تشيع أيام الحروب وأيام الإرهاب على السواء، غير أن القانون لا يرى بأسا فى اعتناق المبدأ إذا لم يقترن بالدعوة إلى العنف. .

فضحك أحمد وقال:

ـ سيلقى القبض علينا إن آجلا وإن عاجلاً إلا. .

فحدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول:

ـ إلا إذا أدبنا الزواج!

فهزت منكبيها فى ازدراء وقالت:

ـ من أدراك بأننى أوافق على الزواج من رجل مزيف مثلك؟

ـ مزيف؟!

ففكرت قليلاً ثم قالت باهتمام جدى:

ـ لست من طبقة العمال مثلى! كلانا يحارب عدوا واحدا ولكنك لم تخبره كما خبرته، لقد ذقت الفقر طويلاً، ولمست آثاره الكريهة فى أسرتى، وغالبته أخت لى حتى غلبها فماتت، أما أنت فلست. . لست من طبقة العمال!

فقال بهدوء:

ـ ولا كان إنجلز من هذه الطبقة. .

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت:

ـ كيف أدعوك؟ البرنس أحمدوف؟! هه لا أنكر عليك مبدأك، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيدة، يخيل إلى أنك تسر أحيانًا لكونك من آل شوكت!

فقال بلهجة لم تخل من حدة:

ـ أنت مخطئة يا ظالمة! لا يعيبنى ما ورثته، فكما أن الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعيبنى، أعنى الدخل القليل الذى عاشت به أسرتنا عيشة التنابلة، لا يعيب أحدا أن يجد نفسه بورجوازيا، ولا عيب إلا فى الجمود والتخلف عن روح العصر..

فقالت وهى تبتسم:

ـ لا تغضب، كلانا ظاهرة طبيعية علمية، لا نسأل عما وجدنا أنفسنا عليه ولكننا مسئولون عما نعتنق ونفعل، إنى أعتذر إليك يا إنجلز، ولكن خبرنى هل أنت على استعداد لمواصلة إلقاء المحاضرات على العمال مهما تكن العواقب؟

فقال بإدلال:

ـ لقد حاضرت حتى أمس خمس مرات، وحررت منشورين خطيرين، ووزعت عشرات المنشورات، وللحكومة دين فى عنقى جاوز العامين سجنا!..

ـ ولها فى عنقى أضعاف ذلك!..

مد يده فى خفة فوضعها على يدها السمراء البضة فى حنان وإعجاب. نعم إنه يحبها، ولكنه لا يندفع فى جهاده باسم الحب، ترى ألم تبدو أحيانًا وكأنها تشك فيه؟ أهى مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من البورجوازية التى تحسبها كامنة فيه؟ إنه مؤمن بالمبدأ كما أنه مغرم بها، لا غنى له عن هذا ولا ذاك، «أليس من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حق الفهم وتفهمه حق الفهم؟ وألا يحول بينك وبينه أى نوع من المكر؟ إنى أعبدها إذ قالت «لقد ذقت الفقر طويلاً»، هذا القول الصريح الذى سما بها عن بنات جنسها جميعًا ومزجها بنفسى، لكننا محبون غافلون والسجن يتربص بنا، وبوسعنا أن نتزوج وأن

نتجنب المتاعب ونقنع برغد العيش، ولكنها تكون حياة بلا روح، لشد ما يبدو لى المبدأ أحيانًا كأنه لعنة مصوبة علينا من القضاء والقدر، إنه دمى وروحى، كأننى المسئول الأول عن الإنسانية جميعًا . .

ـ أحبك . .

ـ ما المناسبة لهذا؟

ـ فى كل مناسبة وبلا مناسبة . .

ـ إنك تتحدث عن الجهاد ولكن قلبك يتغنى بالهناء! . .

ـ التفريق بين هذين سخف كالتفريق بينى وبينك! . .

ـ ألا يعنى الحب الهناء والاستقرار وكراهة السجن؟

ـ ألم تسمعى عن النبى الذى كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوج تسعا؟! . .

ففرقعت بأصابعها هاتفة:

ـ ها هو أخوك قد أعارك فاه، أى نبى يا هذا؟

فقال ضاحكًا:

ـ نبى المسلمين! .

ـ دعنى أحدثك عن كارل ماركس الذى عكف على تأليف «رأس المال» تاركًا زوجه وأولاده للجوع والبهدلة!

ـ كان متزوجًا على أى حال! . .

كأن ماء البركة عصير زمرد، وهذه النسمة اللطيفة تهفو فى خلسة من يونية، والبط يسبح مسددًا منقاره لالتقاط فتات الخبز، وأنت سعيد جدًا، والحبيبة المتعبة ألذ من الطبيعة، يخيل إلى أن وجهها تورد، فلعلها تناست السياسة قليلاً وأخذت تفكر فى . .

ـ كان المأمول يا زميلتى العزيزة أن نحظى فى هذه الحديقة بحديث عذب!

ـ أعذب مما كنا نتحدث به؟

ـ أعنى حبنا! . .

ـ حبنا؟ . .

ـ نعم وأنت تعلمين!

وساد الصمت مليًا حتى غضت عينيها متسائلة:

ـ ماذا تريد؟

ـ قولى إننا نريد شيئا واحدًا!

فقالت كأنما لتطيعه فحسب:

ـ نعم، ولكن ما هو؟ . .

ـ حسبنا لف ودروان!

كأنها تفكر، فما أمر الانتظار على قصره، وإذا بها تقول:

ـ ما دام كل شىء واضحًا فلم تعذبنى؟

فتنهد فى ارتياح عميق وقال:

ـ ما أبهج حبى!

وساد الصمت مرة أخرى كاللازمة بين النغمة والنغمة، ثم قالت:

ـ يهمنى شىء واحد:

ـ أفندم! . .

ـ كرامتى!

فقال كالمنزعج:

ـ هى وكرامتى شىء واحد!

فقالت بامتعاض:

ـ أنت أدرى بتقاليد أناسك!، ستسمع كثيرًا عن الأصل والفصل . .

ـ كلام فارغ، تظنيننى طفلا؟

وترددت قليلاً ثم قالت :

ـ لا يهددنا إلا شيء واحد هو «العقلية البورجوازية»! . .

فقال بقوة جعلتـه في تلك اللحظة أشـبه ما يكـون بأخيه عبد المنعم :

ـ لست منها في شيء!

ـ هل تدرك مدى خطورة قولك؟ . . لقد عنيت أشياء تخص علاقة الرجل بالمرأة في صميمها الشخصي والاجتماعي!

ـ مفهوم جداً . .

ـ سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات المأثورة مثل :

حب، زواج، غيرة، الوفاء، الماضي . .

ـ نعم! . .

قد يعني هذا لا شيء، وقد يعني كل شيء، وكم من مرة خطرت له أفكار، ولكن الموقف يتطلب شجاعة فائقة، ما هو إلا امتحان لعقليته الموروثة والمكتسبة جميعًا، امتحان رهيب، خيل إليه أنه أدرك ما تعني، ولعل الأمر لا يعدو أنها تمتحنه، ولكن حتى لو كان الذي أدركه فلن يتراجع، لقد اعتراه ألم ودبت في أعماقه الغيرة ولكنه لن يتراجع . .

ـ إني مسلم بما تعنين، ولكن دعيني أصارحك بأنني كنت آمل أن أحظى بفتاة عاطفية لا بفكر محاسب مدقق!

فتساءلت وعيناها تتابعان البط السابح :

ـ لتقول لك أحبك وأوافق على الزواج منك؟!

ـ نعم! . .

ضاحكة :

ـ وهل تراني كنت أدخل في التفاصيل ما لم أكن موافقة على المبدأ؟! فضغط على راحتها في رقة، فعادت تقول :

٤٤

ـ إنها سمعة أسرتنا جميعًا، وهو على أى حال ابنكم، وأنتم بعد ذلك أحرار فيما ترون! . .

كانت خديجة تخطب وعيناها تنتقلان بسرعة وقلق من وجه إلى وجه، من زوجها إبراهيم الذى جلس إلى يمينها إلى ابنها أحمد فى الناحية المقابلة من الصالة، مارتين بياسين وكمال وعبد المنعم . .

وقال أحمد مداعبًا وهو يقلد لهجتها :

ـ انتبهوا جميعا، إنها سمعة أسرة، وأنا على أى حال ابنكم! .

فقالت له بصوت متشك مليء بالمرارة :

ـ ما هذا البلاء يا ابنى؟ أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أباك، وتأبى المشورة ولو كانت فى صالحك، دائمًا أنت على صواب والناس جميعًا على خطأ، تركت الصلاة قلنا ربنا يهديه، رفضت أن تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله، قلت أشتغل جورنالجى قلنا اشتغل عربجى! . .

فقال باسما :

ـ والآن أريد أن أتزوج! . .

ـ تزوج، كلنا يسر لهذا، ولكن الزواج له شروط . .

ـ ومن يضع شروطه؟

ـ العقل السليم.

ـ عقلى اختار لى..

ـ ألـم تثـبـت لك الأيام بعـد أنه لا يصح الاعـتـمـاد على عـقلك وحده؟!

ـ أبدا، والمشـورة جائزة فى كل شئ إلا الزواج فـهو كـالطعـام سواء بسواء!..

ـ الطعام.. إنك لا تتزوج من فتاة فحسب ولكن من أسرتها كلهاـ ونحن ـ أهلك ـ نتزوج بالتبعية معك..

فضحك أحمد ضحكة عالية وقال:

ـ كلكم!. هذا أكثر مما يحتمل، خالى كمال لا يريد أن يتزوج، وخالى ياسين يود لو يتزوجها وحده..

وضحكوا جميعًا إلا خديجة، ثم قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك:

ـ إذا كان فى هذا فض المشكلة فأنا على أتم استعداد للتضحية.

فهتفت خديجة:

ـ اضحكوا، إنه يتشجع بضحككم، خير من ذلك أن تصارحوه بآرائكم، فما رأيكم فيمن يرغب فى الزواج من «كريمة» عامل المطبعة التى يعمل بمجلتها؟ إنه يعز علينا أن تعمل بالمجلة «جورنالجى» فكيف وأنت تريد أن تصاهر عمالها! أليس لك رأى ياسى إبراهيم؟.

فرفع إبراهيم شوكت حاجبيه كأنما يريد أن يقول شيئًا، ولكنه سكت، فعادت تقول:

ـ لو وقعت هذه المصيبة فسيمتلئ بيتك ليلة الزفاف بعمال المطبعة والعنابر والحوذية، والله أعلم بما خفى!..

فقال أحمد بتأثر:

ـ لا تتكلمى هكذا عن أهلى!

ـ يارب السماوات، أتنكر أن هؤلاء هم أهلها؟.

ـ سأتزوجها هى وحدها، إنى لا أتزوج بالجملة..

فقال إبراهيم شوكت فى ضجر:

ـ لن تتزوجها وحدها، الله يتعبك كما تتعبنا!

فقالت خديجة متشجعة بمعارضة زوجها:

ـ ذهبت لزيارة بيتها كما تقضى العادة، قلت أرى عروس ابنى، فوجدتهم يقيمون فى بدروم فى شارع كله يهود على الصفين، وأمها لا تفترق فى هيئتها عن الخادمات المحترفات، والعروس نفسها لا يقل عمرها عن ثلاثين عامًا، أى والله، ولو كان بها ذرة من جمال لعذرته، ولماذا يريد أن يتزوجها؟ إنه مسحور، سحرته بحيلة، إنها تعمل معه فى المجلة المشئومة، لعلها غافلته فوضعت له شيئًا فى القهوة أو الماء، اذهبوا وشوفوا واحكموا، أنا غلبت، لقد عدت من الزيارة لا أكاد أرى الطريق من حزنى وأسفى..

ـ إنك تغضبيننى، لن أغفر لك كلامك هذا..

ـ العفو، العفو يا سيد الملاح! الحق على، أنا طول عمرى عيابة فرمانى ربنا فى أولادى بكل العيوب، أستغفر الله العظيم.

ـ مهما تقولت عنهم فليس فيهم من يرمى الناس بالباطل.. مثلك!

ـ بكره يا ما تسمع، ويا ما تعرف، سامحك الله على إهانتى.

ـ أنت التى أهنتنى بما فيه الكفاية!..

ـ إنها تطمع فى مالك، ولولا خيبتك ما طمعت فى أحسن من بياع جرائد..

ـ إنها محررة فى المجلة بمرتب ضعف مرتبى . .

ـ جورناجية هى الأخرى! . . ما شاء الله، وهل تتوظف إلا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة! . .

ـ سامحك الله . .

ـ فليسامحك أنت على ما تصب علينا من عذاب!

وهنا قال ياسين الذى كان يتابع الحديث ويده لا تمسك عن فتل شاربه :

ـ اسمعى يا أختى، لا داعى للنقار، سنصارح أحمد بما ينبغى قوله ولكن لا جدوى من الشجار . .

ونهض أحمد كالغاضب وهو يقول :

ـ عن إذنكم سأرتدى ملابسى لأذهب إلى عملى . .

ولما ذهب انتقل ياسين إلى جانب أخته ومال عليها قائلاً :

ـ لن يفيدك الشجار شيئًا، نحن لا نحكم أبناءنا، إنهم يرون أنفسهم خيراً منا وأذكى، إذا كان لابد من الزواج فليتزوج، فإن سعد كان بها وإلا فهو المسئول علن نفسه، أنا لم يستقر بى بيت إلا بزنوبة كما تعلمين! فعسى أن يكون الخير فيما اختار، ثم إننا لا نعقل بالكلام ولكن بالتجارب .

ثم مستدركا وهو يضحك :

ـ ولو أنه لا الكلام ولا التجارب عقلتنى!

وعلق كمال على قول ياسين قائلاً :

ـ الحق فيما قال أخى . .

فحدجته بنظرة عتاب قائلة :

ـ أهذا كل ما عندك ياكمال؟ إنه يحبك فلو أنك حدثته على انفراد . .

فقال كمال :

ـ إنى خارج معه وسأحدثه ، ولكن كفى عن الشجار ، إنه رجل حر ، ومن حقه أن يتزوج ممن يشاء ، أتستطيعين منعه أم تنوين مقاطعته؟

وقال ياسين باسما :

ـ الأمر بسيط يا أختى ، يتزوج اليوم ويطلق غدًا ، نحن مسلمون لا كاثوليك . .

فضيقت عينيها الصغيرتين وقالت بفم شبه مغلق :

ـ طبعًا ، من محام غيرك يدافع عنه؟ صدق من قال إن الولد لخاله !

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال :

ـ الله يسامحك ، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما تزوجت امرأة قط ! . .

فأشارت إلى زوجها وقالت :

ـ أمه الله يرحمها هى التى اختارتنى بنفسها !

فقال إبراهيم وهو يتنهد باسما :

ـ ودفعت الثمن ، الله يرحمها ويعفو عنها !

ولكنها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحسرة :

ـ لو كانت جميلة ! . . إنه أعمى !

فقال إبراهيم ضاحكًا :

ـ مثل أبيه !

فالتفتت نحوه غاضبة وقالت :

ـ أنت جاحد كجنس الرجال !

فقال الرجل بهدوء :

ـ بل نحن صابرون ولنا الجنة . .

فصاحت به :

ـ إذا كنت ستدخلها فبفضلي . . أنا التى علمتك دينك ! . .

* * *

غادر كمال وأحمد السكرية معا ، وكان يقف من مشروع هذا الزواج موقف الشك والتردد ، إنه لا يمكن أن يتهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة ، أو بالفتور حيال مبادئ المساواة والإنسانية ، ومع ذلك فالواقع الاجتماعى الذى لا يد له فى بشاعته حقيقة واقعة لا يجوز أن يتجاهلها إنسان ، وقديمًا ولع عهداً بقمر بنت أبى سريع صاحب المقلى ، فكادت ـ رغم جاذبيتها ـ تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة . غير أنه كان رغم هذا معجبًا بالشاب ، غابطا له شجاعته وقوة إرادته وغيرهما من المزايا التى حرم هو منها وعلى رأسها الإيمان والعمل والزواج ، كأنما قد بعث فى الأسرة كفارة عن جموده وسلبيته . ما الذى يجعل للزواج هذه الخطورة فى نظرة بينا هو فى نظر الآخرين لا يزيد عن السلام عليكم . . وعليكم السلام؟!

ـ إلى أين يا فتى؟

ـ المجلة يا خالى ، وأنت؟

ـ مجلة الفكر لأقابل رياض قلدس ، ألا تفكر قليلاً قبل أن تخطو هذه الخطوة؟

ـ أى خطوة يا خالى! لقد تزوجت بالفعل! . .

ـ حقًا؟!

ـ حقًا ، وسوف أقيم فى الدور الأول من بيتنا نظرًا لأزمة المساكن . .

ـ يا له من تحد سافر! . .

ـ نعم ، ولكنها لن توجد فى البيت إلا حين تكون أمى قد نامت . .

وبعد أن أفاق من وقع الخبر سأله باسمًا :

ـ وهل تزوجت على سنة الله ورسوله؟

فضحك أحمد أيضا وقال:

ـ طبعًا، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم، أما الحياة فعلى دين ماركس!

ثم وهو يودعه:

ـ خالى، سنعجبك جدًا، سترى وتحكم بنفسك، إنها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة..

٤٥

يا لها من حيرة! كأنها مرض مزمن، فكل أمر يبدو ذا وجوه متعددة متساوية يتعذر فيها الاختيار، تستوى فى ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة اليومية، فإزاء كل تعترض الحيرة والتردد، أيتزوج أم لا؟! كان ينبغى أن يقطع برأى لكنه يدور حول نفسه حتى يصيبه الدوار ويختل منه ميزان الروح والعقل والحواس ثم تنجلى الدوامة عن موقف لم يتغير وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو: أيتزوج أم لا؟ قد يضيق أحيانا بحريته فيثقل عليه الشعور بالوحدة أو يضجر من معاشرة الأشباح الفكرية الخاوية فيحن إلى الأليف وتئن فى محبسه غرائز الأسرة والحب تروم متنفسًا، ثم يتخيل نفسه زوجًا قد برأ من التركيز فى ذاته وتبددت أوهامه لكنه فنى فى الوقت نفسه فى الأبناء واستغرقه الرزق ومطالبه فتراكمت عليه مشاغل الحياة اليومية فينزعج أيما انزعاج ويقرر الاستمساك بانطلاقه مهما تجشم من وحشة وعذاب، بيد أنه لا ينعم بالاستقرار طويلاً فلا يلبث أن يعود إلى التساؤل كرة أخرى، وهكذا وهكذا، فأين المفر؟ وبدور فتاة ممتازة حقًا، لا يعيبها اليوم أن

تركب الترام ما دامت قد ولدت وشبت فى جنة الملائكة التى شغفت قلبه قديمًا، فهى كالشهاب الساقط، وهى فتاة ممتازة حقًا فى حسنها وخلقها وثقافتها، ثم إنها ليست عسيرة المنال فهى الزوجة الواعدة بكل معنى الكلمة إذا أراد أن يتقدم، وما عليه إلا أن يتقدم، وإلى هذا كله فهو لا يسعه إلا أن يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه، فهى آخر ما يودع من أطياف الحياة قبل النوم وهى أول من يستقبل من أطيافها عند الاستيقاظ، ثم لا تكاد تغادر خياله طوال يومه، وما أن يحظى برؤيتها البصر حتى يخفق الفؤاد مرددًا أنغامًا شجية من أوتار علاها الصدأ، ثم إن دنياه لم تبق كما كانت، دنيا حيرة وعذاب ووحشة، داخلتها نسائم وجرى فيها ماء الحياة، فإن لم يكن هذا هو الحب فما عسى أن يكون؟! وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كل أصيل، يقطعه على مهل، مسددًا عينيه إلى الشرفة حتى تلتقى بعينيها ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين، وقد بدا ذلك كما تقع المصادفات، ثم تكرر وقوعه كأنما عن عمد، فما يجد ميعاده حتى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرأ فى كتاب أو تسرح الطرف، فأيقن أنها تنتظره، إذ لو شاءت أن تمحو هذا المعنى من ذهنه ما كلفها ذلك إلا تجنب الشرفة دقائق كل أصيل. ولكن ماذا تظن بمروره وابتسامته وتحيته؟! لكن مهلاً، إن الغرائز لا تخطئ، كلاهما يود أن يلقى صاحبه، وقد استخفه لذلك الطرب وأسكره السرور، وملأه إحساس بجدوى الحياة لم يشعر به من قبل، غير أن هذا الهناء كله لم يمض دون قلق يشوبه، كيف لا وهو لم يجمع بعد على عزم، ولم يتضح له سبيل، ولكن تيارا جرفه فاستسلم له وهو لا يدرى كيف مجراه ولا أين مرساه! قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبر أمره ولكن فرحة الحياة صدته فى إشفاق. فثمل مسرورًا دون أن يخلو من قلق. وقال له رياض: أقدم فهذه فرصتك، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الإنسان الأولى والأخيرة فى هذه الحياة، فيقول مزهوا إنه سيقتحم هذه التجربة

الفريدة غير هياب فيتاح له أن يفهم الحياة فهما جديدًا صادقًا ومن ثم يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال . . أليست هذه هى الحياة أيها الفيلسوف السابح فوق الحياة؟ فأجابه متهربًا : أنت اليوم خصم فأنت آخر من يصلح حكمًا وسوف أفتقد فيك المشير الصادق؟ وبدا له الحب من ناحية أخرى «دكتاتورا» وقد علمته الحياة السياسية فى مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه . ففى بيت عمته جليلة كان يهب عطية جسده ثم سرعان ما يسترده وكأن ما كان لم يكن ، أما هذه الفتاة المستكنة فى حيائها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعًا إلى الأبد ، ولن يجد من شعار يأتم به بعد ذلك إلا الكفاح المرير فى سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء ، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلائل مجرد وسيلة «لتحصيل» الرزق ، وقد يكون الفقير الهندى سخيفا أو مجنونًا ولكنه أحكم ألف مرة من الغارق حتى أذنيه فى سبيل الرزق ، فأنعم بالحب الذى كنت تفتقده وتتحسر عليه . . هاهو يبعث حيا فى فؤادك جارا وراءه المتاعب! وقال له رياض : «أمن المعقول أن تحبها وأن يكون فى وسعك أن تتزوجها . . ثم تمتنع عن زواجها؟» ، فأجابه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج! فقال محتجًا : «إن الحب هو الذى يسلمنا للزواج فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفتاة!» فأجابه بإصرار : «بل أحبها وأكره الزواج» ، فقال : «لعلك تخاف المسئولية» ، فأجابه محتدا : «إننى أحمل من أعباء المسئولية فى بيتى وفى عملى ما لا تحمل بعضه» ، فقال : «لعلك أنانى أكثر مما أتصور» ، فقال ساخراً : «وهل يتزوج الفرد إلا مدفوعًا بأنانيته الظاهرة أو الخفية؟» فقال باسما : «لعلك مريض فاذهب إلى دكتور نفسانى لعله يحللك» ، فقال له ، «من الطريف أن مقالتى القادمة فى مجلة الفكر عن : «كيف تحلل نفسك» ، فقال له : «أشهد لقد حيرتنى» ، فقال له : «أنا الحائر إلى الأبد» .

ومرة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف فى طريقة أم حبيبته متجهة نحو البيت، عرفها من أول نظرة رغم أنه لم يرها منذ سبعة عشر عامًا على الأقل. ولم تكن «الهانم» التى عرفها قديمًا. ذبلت ذبولاً محزنا وركبها الهم قبل الكبر ولم يكن فى وسع إنسان أن يتصور أن هذه المرأة الساعية فى هزالها هى نفس الهانم التى كانت تخطر فى حديقة القصر فى نهاية من الجمال والكمال! ورغم هذا كله فد ذكرته هيئة رأسها بعايدة فقطع قلبه منظرها، وكان حسن الحظ أنه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها وإلا ما استطاع أن يبتسم، ثم ما يدرى إلا وهو يتذكر عائشة! ثم يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هذا الصباح فى البيت وهى تبحث عن طاقم أسنانها التى نسيت أين أودعته قبل نومها. وأول أمس رأى بدور واقفة فى الشرفة على غير عادتها ثم تبين أنها متهيأة للخروج. وتساءل أتخرج وحدها؟! وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى فى سبيله متمهلاً متفكراً. حقا لو جاءت وحدها فإنما تجىء له، هذا الظفر المسكر لعله يغسل إهانة حلت منذ سنين! ولكن هل كانت عايدة تفعل هذا ولو انشق القمر؟! وعندما بلغ منتصف الطريق التفت إلى الوراء فرآها قادمة.. وحدها! وخيل إليه أن خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران. وسرعان ما شعر بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض جوانب نفسه إلى الهروب! كان تبادل الإبتسام قبل ذلك لهوا عاطفيًا بريئا أما اللقاء فسيكون له شأن وأى شأن. هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحسم فى الاختيار. ولو هرب الآن لمنح نفسه مزيدا من التروى! ولكنه لم يهرب، وتقدم فى خطاه المتمهلة كالمخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق إلى شارع الجلال، وفى التفاتة منه التقت عيناهما فى ابتسامة، فقال:

ـ مساء الخير..

ـ مساء الخير..

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد:

- إلى أين؟

- عند واحدة صاحبتى، هناك فى هذا الاتجاه..

وأشارت صوب شارع الملكة نازلى، فقال فى استهتار:

- إنه طريقى فهل تسمحين بأن نسير معا..؟

فقالت وهى تدارى ابتسامة:

- تفضل..

وسارا جنبًا إلى جنب، إنها لم تتحل بهذا الفستان الجميل لتقابل واحدة صاحبتها ولكن لتقابله هو، وهاهو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان، ولكن كيف يكون مسلكه؟ لعلها ضاقت بجموده فجاءت بنفسها لتهيئ له فرصة مواتية فإما ينتهزها إكرامًا لها وإما يتجاهلها فيفتقدها إلى الأبد، هى كلمة قد تقال فيتورط قائلها مدى العمر أو تحبس فيندم حابسها مدى العمر، هكذا دفع إلى مأزق وهو لا يدرى، وهاهو الطريق يطوى ولعلها تترقب، وهى تبدو مستجيبة ملبية كأنها ليست من آل شداد، أجل ليست من آل شداد فى شىء، لقد انتهى آل شداد، وولى زمانهم، وليست التى تسايرك إلا فتاة سيئة الحظ، والتفتت نحوه كالباسمة فقال برقة:

- فرصة سعيدة!..

- شكرًا!

ثم ماذا؟! يبدو أنها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته، وهاهى نهاية الطريق تقترب، يجب أن يقطع برأى فإما التورط وإما الوداع، لعلها لا تتصور أبدًا أن يفترقا ببساطة، ولو كلمة واعدة، وها المفترق على بعد خطوات، إنه يشعر شعورًا مؤلمًا بمدى الخيبة التى ستمنى بها ويأبى لسانه أن ينطق، أم يتكلم وليكن مايكون؟! وتوقفت عن المسير وابتسمت

ابتسامة مرتبكة كأنما تقول آن لنا أن نفترق فبلغ به الاضطراب نهايته، ثم مدت يدها، فتلقاها بيده وصمت فترة رهيبة، ثم غمغم:

ـ مع السلامة! . .

واستردت يدها ثم مالت إلى عطفة جانبة. أوشك أن يناديها، إن ذهابها متعثرة بالخيبة والخجل كابوس لا يحتمل، وأنت أدرى بهذه المواقف التعيسة، غير أن لسانه انعقد. فيم كانت متابعته لها طوال الشهرين الماضيين؟ أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك بنفسها؟ أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية التى عاملتك بها أختها؟، وأنت تحبها؟! وهل تلقى من ليلها ما لقيت من ليلتك التى خلفتها وراءك كالمجمرة المتقدة تضىء فى غياهب الماضى بالألم المنصهر؟!

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أيريد حقًا أن يبقى أعزب لكى يكون فيلسوفا أم أنه يدعى الفلسفة ليبقى أعزب؟ وقال له رياض: هذا شىء لا يصدق ولسوف تندم! وهو شىء لا يصدق حقًا ولكن هل يندم أيضًا؟ وقال له: كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت تتحدث عنها وكأنها فتاة أحلامك؟ ليست فتاة أحلامه. . إن فتاة أحلامه لم تكن لتسعى إليه أبدا. وأخيرًا قال له: إنك فى نهاية السادسة والثلاثين من عمرك ولن تكون بعد ذلك صالحًا للزواج. فامتعض لقوله وداخلته كآبة. .

٤٦

جاءت كريمة إلى السكرية فى حلة العروس فى عربة مع والديها وأخيها. وكان فى استقبالهم إبراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حماد وكمال. ولم يكن ثمة ما يدل على زفاف إلا طاقات الورد التى طوقت الصالة، أما المنظرة فقد امتلأت بذوى اللحى من الشبان

يتوسطهم الشيخ على المنوفى. ومع ذلك كان قد مر عام ونصف على وفاة السيد إلا أن أمينة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيما بعد، أما عائشة فإنها عندما دعتها خديجة إلى شهود الدخلة الصامتة هزت رأسها عجبًا وقالت بلهجة عصبية:

ـ أنا لا أشهد إلا المآتم!

وقد تأملت خديجة لقولها ولكنها كانت قد اعتادت أن تتحلى بالحلم المثالى حيال عائشة. وقد جهز الدور الثانى بالكسرية للمرة الثانية بأثاث العرس. وجهز ياسين ابنته كما ينبغى وباع فى سبيل ذلك آخر أملاكه فلم يعد يبقى له إلا بيت قصر الشوق. وبدت كريمة آية فى الجمال، وقد شابهت أمها فى عهدها الزاهر خاصة فى عينيها الدافئتين، ولم تكن بلغت سن الزواج إلا فى الأسبوع الماضى من أكتوبر. ولاحت خديجة سعيدة كما ينبغى لأم العريس، وقد انتهزت فرصة انفرادها بكمال مرة فمالت على أذنه قائلة:

ـ على أى حال فهى ابنة ياسين، ومهما يكن من أمر فهى خير ألف مرة من عروس العنابر!

وقد مد بوفيه صغير فى حجرة السفرة للأسرة، ومد آخر فى الفناء لمدعوى عبد المنعم من ذوى اللحى، ولم يكن يتميز عنهم إذ أرسل بدوره لحيته حتى قالت له خديجة يومذاك:

ـ الدين جميل ولكن ما ضرورة هذه اللحية التى تبدو فيها مثل محمد العجمى بياع الكسكسى؟!

وجلس أفراد الأسرة فى حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذى جالس أصحابه، واحمد الذى شاركه فى الترحيب بهم بعض الوقت، ثم انتقل إلى حجرة الاستقبال حيث انضم إلى أهله وهو يقول باسمًا:

ـ تراجعت المنظرة فى الزمان ألف عام!

فسأله كمال:

ـ فيم يتحادثون؟

ـ عن معركة العلمين، وقد ارتجت جدران المنظرة بأصواتهم.

ـ وكيف شعورهم حيال انتصار الإنجليز؟

ـ الغضب طبعًا، إنهم أعداء الإنجليز والألمان والروس جميعًا، وهكذا لم يرحموا العريس حتى فى ليلة زفافه..

وكان ياسين جالسًا إلى جانب زنوبة، يبدو فى زينته كأنما يصغرها بعشرة أعوام، فقال:

ـ فليأكلوا بعضهم البعض بعيدًا عنا ومن رحمة ربنا أنه لم يجعل من مصر ميدان حرب..

فقالت خديجة باسمة:

ـ لعلك تريد السلام حتى تفرغ لمزاجك!

ورمقت زنوبة بنظرة ماكرة حتى ضحك الجميع، وكان قد ذاع فى الأيام القريبة الماضية أن ياسين غازل ساكنة جديدة فى بيته، وأن زنوبة ضبطته متلبسًا أو كالمتلبس فما زالت بالساكنة حتى اضطرتها إلى إخلاء الشقة. فقال ياسين يدارى ارتباكه:

ـ كيف أفرغ لمزاجى وبيتى محكوم بالأحكام العرفية!

فقالت زنوبة فى امتعاض:

ـ هلا استحييت أمام أبنتك؟

فقال ياسين فى توسل:

ـ إنى برىء والجارة المسكينة مظلومة!

ـ أنا الظالمة! أنا التى ضبطت وأنا أطرق شقتها بليل ثم اعتذرت بأننى

ضللت سبيلى فى الظلام! هه؟ أربعون عامًا فى البيت ثم لا تعرف أين تقع شقتك؟!

فتعالى الضحك حتى قالت خديجة فى تهكم:

ـ إنه كثير الخطأ فى الظلام!

ـ وفى النور على السواء..

وإذا بإبراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلاً:

ـ وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمد أفندى حسن؟

فقال ياسين مصححًا:

ـ محمد أفندى زفت!

وأجاب رضوان حانقًا:

ـ إنه ينعم الآن بثروة جدى التى آلت إلى أمى!

وقال ياسين محتجًا:

ـ ميراث لا يستهان به، وكلما قصدها رضوان فى معونة للترفيه أو خلافه تصدى له الصفيق وناقشه الحساب!

فقالت خديجة مخاطبة رضوان:

ـ إنها لم تنجب غيرك، وخير لها أن تمتعك بمالها فى حياتها.. ثم مستدركة:

ـ وقد آن لك أن تتزوج، أليس كذلك؟

فضحك رضوان ضحكة فاترة ثم قال:

ـ عندما يتزوج عمى كمال!

ـ لقد يئست من عمك كمال ولكن لا ينبغى أن تقلده..

واصغى كمال لمايدور حوله بامتعاض وإن لم يبد أثره فى وجهه. لقد يئست منه ويئس هو من نفسه. وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن

زيدون معلنًا بذلك عن شعوره بذنبه، غير أنه كان يقف عند طرف المحطة ليراها فى شرفتها من حيث لا تراه، لم يستطع أن يقاوم رغبته فى رؤيتها، ولا أن ينكر حبه لها، أو يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوج منها! حتى قال له رياض إنك مريض وتأبى أن تبرأ!

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى:

ـ أكان محمد حسن يناقشك الحساب لو كان السعديون فى الحكم؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال:

ـ إنه ليس الوحيد الذى يناقشنى الحساب اليوم، ولكن صبراً، إن هى إلا أيام أو أسابيع.

فسألته سوسن حماد:

ـ أتظن أيام الوفد معدودة كما يشيع خصومه؟

ـ أيامه رهن بمشيئة الإنجليز، وعلى أى حال فلن تطول الحرب إلى الأبد..، ثم يجىء وقت الحساب!

فقالت سوسن فى جد ظاهر:

ـ المسئول الأول عن المأساة هم الذين ظاهروا الفاشيست لطعن الإنجليز من الخلف..

وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة، متعجبة من «استرجالها» فى الحديث، فما تمالكت أن قالت:

ـ المفروض أننا فى فرح، تكلموا فى أمور مناسبة!

ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام، على حين تبادل أحمد وكمال نظرة باسمة، أما إبراهيم شوكت فقال ضاحكًا:

ـ عذرهم أن أفراحنا لم تعد أفراحًا، الله يرحم السيد أحمد ويسكنه فسيح جناته..

فقال ياسين متحسراً:

ـ تزوجت ثلاث مرات ولكننى لم أزف مرة واحدة!

فقالت زنوبة فى انتقاد مر:

ـ أتذكر نفسك وتنسى ابنتك؟

فقال ياسين ضاحكًا:

ـ نزف فى الرابعة إن شاء الله..

فقالت زنوبة فى تهكم:

ـ أجلها حتى تزف رضوان!

فغضب رضوان دون أن ينبس. لعنة الله عليكم جميعًا وعلى الزواج أيضًا، ألا تدركون أننى لن أتزوج أبدا! وأننى أود أن أقتل من يفاتحنى بهذه السيرة اللعينة وعقب صمت قصير قال ياسين:

ـ ليتنى أبقى فى بوفيه السيدات حتى لا أقف بين أصحاب اللحى الذين يخيفوننى!

أدركته زنوبة قائلة:

ـ لو عرفوا سيرتك لرجموك!

فقال أحمد ساخرًا:

ـ ستخوض لحاهم فى الصحاف، وتكون معركة، وخالى كمال هل يحب الإخوان؟

فقال كمال باسما:

ـ أحب منهم واحدا على الأقل!

والتفتت سوسن إلى العروس وسألتها بمودة:

ـ وما رأى كريمة فى لحية زوجها؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحنى رأسها المتوج ولم تتكلم، فأجابت عنها زنوبة قائلة:

ـ قليل من الشبان من هم فى تدين عبد المنعم . .

فقالت خديجة :

ـ يعجبنى تدينه ، هذا خلق فى دم أسرتنا ، ولكن لا تعجبنى لحيته . .

فقال إبراهيم شوكت ضاحكًا :

ـ أعترف بأن ابنى ـ المؤمن والمارق على السواء ـ مجنونان !

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال :

ـ الجنون خلق فى دم أسرتنا أيضًا !

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فعالجها قائلاً قبل أن تنبس :

ـ أعنى أننى مجنون ، وأظن كمال أيضًا مجنون ، وإن شئت فأنا المجنون وحدى !

ـ هذا هو الحق دون زيادة .

ـ وهل من العقل أن يقضى إنسان على نفسه بالعزوبة ليتفرغ للقراءة والكتابة ؟

ـ سيتزوج عاجلاً أو آجلاً ويكون سيد العقلاء .

فسأل رضوان عمه كمال قائلاً :

ـ لم لا تتزوج يا عمى ؟ أريد أن أقف على الأقل على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسى حين الضرورة !

فقال ياسين :

ـ أتنوى الإضراب عن الزواج ؟ لن أسمح بهذا ما حييت ، ولكن انتظر حتى تعودوا للحكم ثم تزوج زواجًا سياسيًا رائعًا !

أما كمال فقال له :

ـ إذا لم يكن عندك مانع فتزوج فى الحال . .

هذا الشاب ما أجمله ! وهو مرشح للجاه والمال ! لو رأته عايدة فى

زمانها لعشقته، ولو ألقى نظرة عابرة على بدور لشغفها حبا، أما هو فيدور على نفسه والدنيا كلها تتقدم، ولا يزال يتساءل: أتزوج أم لا أتزوج؟! والحياة تبدو حيرة مظلمة، فلا هى فرصة سانحة ولا هى فرصة ضائعة، والحب عسير طبعه الخصام والعذاب، فليتها تتزوج حتى يخلص من حيرته وعذابه!

وإذا بعبد المنعم يدخل عليهم تتقدمه لحيته وهو يقول:

ـ تفضلوا إلى البوفيه، احتفالنا اليوم قاصر على المعدة..

٤٧

كان كمال يسير متسكعًا فى شارع فؤاد الأول، وكانت الساعة تدور فى العاشرة من صباح الجمعة فلقى طريقا غاصا بالمارة والواقفين، نساء ورجالاً، وكان الجو لطيفًا كأكثر ايام نوفمبر، يغرى بالمشى، وقد ألف أن يتخفف من عزلته القلبية بالاندساس بين الناس فى يوم عطلته، فيمضى على وجهه بلا غاية، متسليًا بمشاهدة الناس والأشياء، وصادفه فى طريقه أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيوه برفع أيديهم إلى رءوسهم فرد تحيتهم بأحسن منها باسما. ما أكثر تلاميذه! منهم من توظف، ومنهم من لا يزال بالجامعة، وغالبيتهم بين الابتدائى والثانوى فليس بالعمر القصير أن تخدم العلم والتعليم أربعة عشر عاما. وكان منظره التقليدى لا يكاد يتغير، البذلة الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة الذهبية والشارب الغليظ، حتى درجته السادسة لم تتغير أربعة عشر عامًا رغم ما يشاع عن تفكير الوفد فى إنصاف الهيئات المظلومة، شىء واحد تغير هو رأسه الذى انتشر المشيب فى سوالفه. وبدا سعيداً بتحيات تلاميذه الذين يحبونه ويحترمونه، وتلك منزلة لم

يظفر بمثلها أحد من المدرسين، ظفر بها هو رغم رأسه وأنفه، وبالرغم مما اعترى تلاميذ هذه الأيام من شيطنة وجموح!

وعندما بلغ تسكعه تقاطع عماد الدين مع فؤاد الأول ما يدرى إلا وبدور تطالعه وجها لوجه، وخفقت جوانحه كأنما انطلقت بها صفارة الإنذار، وجمد بصره لحظات، ثم هم بالابتسام ليتفادى من الموقف الحرج، غير أنها حولت عنه عينيها فى تجاهل بين ودون أن تلين أساريرها ثم مرقت من جانبه، وعند ذلك فحسب رأى أنها تتأبط ذراع شاب تسير فى صحبته! وتوقف عن المسير، ثم أتبعها ناظريه، أجل هى بدور، فى معطف أسود أنيق، وهذا صاحبها فى مثل أناقتها، ولعله لم يبلغ الثلاثين بعد. وبذل جهدا صادقًا ليتمالك نفسه التى هزتها المفاجأة ثم تساءل فى اهتمام من يكون هذا الشاب؟ ليس أخًا لها، ولا هو بالعاشق إذ أن العشاق لا يجاهرون بحبهم فى شارع فؤاد الأول خاصة صباح الجمعة، فهل يكون..؟! وتتابعت دقات قلبه فى إشفاق، ثم تبعها دون تردد، وعيناه لا تفارقانهما، ووعيه مركز فيهما حتى شعر بأن حرارته ترتفع وأن ضغطه يصعد وأن دقات قلبه تنعاه، ورآهما يتوقفان أمام معرض محل لبيع الحقائب فدنا منهما متباطئا مصوبًا عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتى استقر بصره على الخاتم الذهبى! ولفحه إحساس حار كأنه مزيج من الألم العميق، وكان قد مضى على موقف شارع بن زيدون أربعة أشهر، فهل كان هذا الشاب يرصده فى نهاية الطريق ليحل محله؟ وما ينبغى أن يدهش فإن أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأسا على عقب، ووقف أمام محل اللعب على بعد يسير من موقفهما، يلحظهما وكأنه يتفرج على اللعب. إنها اليوم تبدو أجمل مما كانت فى أى يوم مضى، كالعروس بكل معنى الكلمة! ولكن ما هذا السواد الذى يشيع فى كافة ملابسها؟ إن سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولكن ما بال فستانها أسود كذلك؟ موضة أم حداد؟ أتكون أمها قد توفيت؟ ليس

من عادته تصفح الوفيات فى الصحف ولكن ماذا يهمه من ذلك؟ الذى يهمه حقًا أن صفحة بدور قد انطوت فى كتاب حياته، انتهت بدور، وعرف السؤال الحائر «أتزوج أم لا أتزوج» جوابه المحتوم! فليهنأ بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب! وكم تمنى لو تتزوج ليخلص من عذابه فها هى قد تزوجت فليهنأ بالخلاص من العذاب! وخيل إليه أن إنسانا لو ذبح لعانى مثل الإحساس الذى يعانيه فى موقفه. إن أبواب الحياة تغلق فى وجهه وقد نبذ خارج أسوارها. ثم رآهما يتحولان عن موقفهما، ويتجهان نحوه، ومرا به فى سلام وأتبعهما عينيه وهم بالمسير فى أثرهما ولكنه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر، ولبث أمام معرض اللعب، ينظر ولا يرى شيئًا، ونظر صوبهما مرة أخرى كأنما ليلقى عليها نظرة الوداع، وكانت تبتعد دون توقف تختفى تارة وراء المارة وتبدو تارة، ويرى منها جانبًا مرة ثم يرى جانبًا آخر. وكان كل وتر من أوتار قلبه يغمغم: «وداعا». ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوبًا بأنغام حزينة ليست بالجديدة. فذكر بها حالا مماثلة ماضية، دبت فى أعماقه جارة وراءها شتى ذكرياتها المدغمة، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو فى الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفيفة مبهمة! شعور واحد يلتقى فيه الألم باللذة كالفجر تلتقى عنده حاشية الليل بأهداب النهار. ثم اختفت عن ناظريه، وربما اختفت إلى الأبد، كما اختفت أخت لها من قبل! ووجد نفسه يتساءل من عسى أن يكون خطيبها؟ لم يستطع أن يتفحصه وكم يود أن يفعل، وود ـ أن يكون موظفًا ـ أن يكون من طبقة أدنى من طبقة المعلمين! ولكن ما هذه الأفكار الصبيانية؟ إنه لأمر مخجل، أما عن الألم فجدير بالخبير به أن يطمئن إذ أنه عرف بالتجربة أن مصيره ـ ككل شىء ـ إلى الموت. وانتبه أول مرة إلى معرض اللعب الذى ينبسط تحت عينيه، كان آية فى التنسيق والجمال، حاويا لشتى فنون اللعب التى يهيم بها الأطفال من قطارات وسيارات وأراجيح وأدوات

موسيقية وبيوت وحدائق، فانجذب إلى المنظر أمامه بقوة غريبة تفجرت عنها نفسه المعذبة حتى تشبثت بها عيناه، لم يتح له فى طفولته أن ينعم بهذه الجنة فكبر طاويا نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان إشباعها. وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أدارهم بها؟ ومنذا يستطيع أن يجزم بأنه كان طفلاً سعيدًا؟ لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة البائسة التى تحلم بأن ترده طفلاً مثل هذا الطفل الخشبى الذى يلعب فى هذه الحديقة الوهمية الجميلة! إنها رغبة سخيفة ومحزنة فى آن. ولعل الأطفال فى الأصل كائنات لا تحتمل، ولعلها المهنة وحدها التى علمته كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم. ولكن كيف كانت تكون الحياة لو رد إلى الطفولة محتفظًا فى ذات الوقت بعقله النامى وذاكرته؟ فيعود إلى اللعب فى بستان السطح بقلب عامر بذكريات عايدة، أو يمضى إلى العباسية عام ١٩١٤ فيرى عايدة وهى تلعب فى الحديقة ويعرف فى الوقت نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده! أو يخاطب أباه وهو يلثغ فيقول له إن الحرب ستقع عام ١٩٣٩ وأنه سيقضى عليه عقب إحدى غاراتها! يا لها من أفكار سخيفة ولكنها خير على أى حال من التركيز فى هذه الخيبة الجديدة التى ارتطم بها الآن فى شارع فؤاد، خير من التفكير فى بدور وخطيبها وموقفه منها، ولعل ثمة خطأ فى الماضى يكفر عنه وهو لا يدرى، كيف ومتى وقع هذا الخطأ؟ لعله حادث عرضى أو كلمة قيلت أو موقف كابده، هذا أو ذاك هو المسئول عن هذا العذاب الذى يعانى. يجب أن يعرف نفسه حتى يتيسر له أن يخلصها من آلامها، فالمعركة لم تنته بعد، والتسليم لم يقع، وما ينبغى له أن يقع، ولعله المسئول عن ذلك التردد الجهنمى الذى انتهى به إلى قضم الأظافر على حين مضت بدور متأبطة ذراع خطيبها! وينبغى التفكير مرتين فى هذا العذاب المبطن بلذة غامضة، أليس هو الذى ذاقه قديمًا فى صحراء العباسية وهو يتطلع إلى الضوء المنبعث من نافذة حجرة

الزفاف؟ فهل كان ترديده حيال بدور حيلة لدفع نفسه إلى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيثمل بعذابها ولذتها معا؟! يحسن به قبل أن يحرك يده للكتابة عن الله والروح والمادة أن يعرف نفسه، بل شخصه المفرد، كمال أفندى أحمد، بل كمال أحمد، بل كمال فقط، حتى يتسنى له أن يخلقه من جديد، وليبدأ الليلة بمعاودة كراسة الذكريات ليتفحص الماضى جيداً، وستكون ليلة بلا نوم، ولكنها ليست الأولى من نوعها، فعنده منها ذخيرة يصح جمعها فى مؤلف واحد تحت عنوان «ليالى بلا نوم»، ولن يقول إن حياته عبث، ففى النهاية سيخلف عظامًا قد تصنع منها الأجيال القادمة أداة للهو! أما بدور فقد ولت من حياته إلى الأبد، يا لها من حقيقة مليئة بالشجن، كاللحن الجنائزى، ولم تترك ذكرى حنان واحدة، لا عناق ولا قبل، حتى ولا لمسة أو كلمة طيبة، ولكنه لم يعد يخشى السهاد. فقديما كان يلقاه وحيدا، أما اليوم فدون ذلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب، ثم يذهب إلى عطية فى البيت الجديد بشارع محمد على، ثم يواصلان أحاديثهما التى لا تنقضى.

وفى آخر مرة قال لها بلسان أثقله السكر:

ـ كم يوافق أحدنا الآخر!

فقالت له بسخرية مستسلمة:

ـ ما ألطفك فى سكرك!..

فاستطرد:

ـ ما أسعدنا من زوجين لو تزوجنا!..

فقالت مقطبة:

ـ لا تهزأ بى فقد كنت «سيدة» بكل معنى الكلمة..

ـ نعم، نعم، إنك ألذ من الفاكهة فى إبانها!..

فقرصته هازئة وقالت:

ـ هذا قولك ولكننى إذا سألتك ريالا فوق ما تعطينى هربت!

ـ إن ما بيننا ليسمو فوق النقود!

فحدجته بنظرة احتجاج وقالت:

ـ ولكن لى طفلان يفضلان النقود على ما بيننا!

فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخراً:

ـ أنا أفكر فى التوبة أسوة بالست جليلة، ويوم يختارنى التصوف فسأنزل لك عن ثروتى!

فقالت ضاحكة:

ـ إذا وصلت التوبة إليك فقل علينا السلام..

فضحك ضحكة عالية وقال:

ـ لا كانت التوبة المضرة بمثيلاتك!

إلى هذا يفزع من السهاد! ثم شعر بأن وقفته أمام معرض اللعب قد طالبت فتحول عنه وذهب..

٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة:

ـ حقيقى يا حبيبى أنهم سيغلقون الخمارات؟

فأجاب ياسين بثقة واطمئنان:

ـ لا سمح الله يا خالو! من عادة النواب أن يثرثروا عند نظر الميزانية، ومن عادة الحكومة أن تعد بالنظر فى تحقيق رغبات النواب فى أقرب فرصة، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبدا..

واستبقت جماعة ياسين بحانة محمد على المشاركة فى التحقيق، فقال رئيس المستخدمين:

- طول عمرهم يعدون بإخراج الإنجليز، وبفتح جامعة جديدة، وبتوسيع شارع الخليج، فهل تم شىء من هذا يا خالو؟

وقال عميد ذوى المعاشات:

- لعل النائب مقدم الاقتراح قد شرب خمرا زعافًا من خمور الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه..

وقال المحامى:

- ومهما يكن من أمر، فإن حانات الشوارع الإفرنجية لن تمس بسوء، فما عليك يا خالو إذا وقع المحذور، إلا أن تسهم فى تافرنا أوغيرها. الخمار للخمار كالبنيان يشد بعضه بعضا..

وقال باشكاتب الأوقاف:

- إذا كان الإنجليز قد دفعوا بدباباتهم إلى عابدين لمسألة تافهة هى إعادة النحاس إلى الحكم، فهل تظنهم يسكتون عن إغلاق الخمارات؟!

وكان بالحجرة - إلى جماعة ياسين - نفر من أهل البلد من التجار، ولكن على الرغم من ذلك اقترح الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشىء من الغناء قائلاً:

- هلموا نغنى «أسير العشق».

فبادر خالو بالعودة على موقفه وراء الطاولة، وراح الأصدقاء يغنون: «أسير العشق يا ما يشوف هوان»، وبدت نغمة السكر أوضح الأنغام فى أصواتهم حتى لاحت فى وجوه أهل البلد بسمات ساخرة، غير أن الغناء لم يستمر طويلاً، وكان ياسين أول المنسحبين، ثم تبعه

الآخرون فلم يتم الدور إلا لباشكاتب، ثم ساد سكوت تقطعه من حين إلى حين مصمصة أو تمطق أو يد تصفق فى طلب كأس أو مزة، وإذا بياسين يقول:

ـ أما من وسيلة ناجعة للحبل!

فقال الموظف العجوز كالمحتج:

ـ لا تفتأ تسأل هذا السؤال وتعيده!.. صبرك بالله يا أخى!..

وقال باشكاتب الأوقاف:

ـ لا داعى للجزع يا ياسين أفندى، ومسير بنتك تحبل!

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

ـ إنها عروس كالوردة، زينة السكرية، ولكنها أول فتاة فى أسرتنا يمر عليها عام على زواجها دون أن تحمل، لهذا جزعت أمها!

ـ وأبوها فيما يبدو!

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

ـ إذا جزعت الزوجة جزع زوجها..

ـ لو يتذكر الإنسان قرف الأولاد لكره الحبل!..

ـ ولو! الناس يتزوجون عادة لإنجاب الذرية..

ـ لهم حق!، لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية أحد..

فشرب ياسين كأسه وهو يقول:

ـ أخشى أن يكون ابن أختى من أتباع هذا الرأى..

ـ بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم بهم فيستردوا شيئًا من حريتهم المفقودة!

فقال ياسين:

ـ هيهات! المرأة ترضع طفلاً وتهدهد آخر ولكنها فى نفس الوقت

تحملق فى زوجها «أين كنت؟ لماذا غبت إلى هذه الساعة؟» ومع ذلك فالحكماء لم يستطيعوا أن يغيروا هذا النظام الكونى.

ـ ماذا منعهم؟

ـ أزواجهم! لم يدعن لهم فرصة للتفكير فى ذلك..

ـ اطمئن يا ياسين أفندى، فإن زوج ابنتك لا يمكن أن ينسى فضل ابنك فى توظيفه..

ـ كل شىء ينسى..

ثم ـ وهو يضحك ـ وقد دغدغت الخمر رأسه:

ـ ثم إن «المحروس» نفسه خارج الحكم الآن!

ـ آه! والوفد سيعمر هذه المرة فيما يبدو..

وإذا بالمحامى يقول بلهجة خاطبية:

ـ لو سارت الأمور سيرا طبيعيا فى مصر لحكم الوفد إلى الأبد!..

فقال ياسين ضاحكا:

ـ هذا القول له وجاهته لولا خروج ابنى على الوفد!

ـ ولا تنسوا حادث القصاصين! إذا مات الملك فقل على أعداء الوفد السلام!

ـ الملك بسلام!..

ـ الأمير محمد على يعد بذلة التشريفة! وهو منسجم مع الوفد طول عمره..

ـ الجالس على العرش ـ أيًا كان اسمه ـ هو عدو للوفد بحكم مركزه كالويسكى والحلوى لا يتفقان!

فقال ياسين وهو يضحك نشوة:

ـ لعل الحق معكم، فأكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة، وأنتم منكم من بلغ أرذل العمر ومنكم من يوشك أن يدركه!

ـ اسم الله عليك يا بن السبعة والأربعين!

ـ على أى حال فأنا أصغركم سنًا . .

ثم فرقع بأصابعه وهو يتمايل نشوة خيلاء، واستطرد:

ـ ولكن العمر الحقيقى لا يقاس بالسنين، ولكن بالنشوة ينبغى أن يقاس، والخمر قد انحطت نوعًا ومذاقًا فى أيام الحرب ولكن نشوتها هى هى، وعند الاستيقاظ صباحًا يدق رأسك الصداع فتفتح عينيك بكماشة ثم تتجشأ كحولا، غير أنى أقول لكم إنه فى سبيل النشوة يهون أى شىء، ورب أخ يتساءل والصحة؟ أجل لم تعد الصحة كما كانت، وابن السبعة والأربعين غير مثيله فى الزمن الأول مما يدل على أن كل شىء قد غلا ثمنه فى الحرب إلا العمر فلا ثمن له، فى الزمن الأول كان الرجل يتزوج فى الستين من عمره أما فى زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن الوصفات المقوية، والعريس فى شهر العسل قد يوحل فى شبر ماء!

ـ الزمن الأول! أهل الدنيا جميعًا يسألون عنه!

فعاد ياسين يقول وقد أخذت أنغام السكر ترن فى أوتار صوته:

ـ الزمن الأول، اللهم ارحم أبى، شد ما ضربنى ليمنعنى من الاشتراك الدموى فى الثورة! ولكن الذى لا ترهبه قنابل الإنجليز لا يرهبه الزجر! وفى قهوة أحمد عبده كنا نجتمع لتدبر المظاهرات وقذف القنابل . .

ـ هذه الأسطوانة من جديد! خبرنى يا ياسين أفندى أكان وزنك ايام الجهاد كوزنك اليوم؟

ـ وأثقل، غير أنى كنتُ حين الجد كالنحلة، وفى يوم المعركة الكبرى

سرت على رأس المظاهرة أنا وأخى أول شهداء الحركة الوطنية، فسمعت أزيز الرصاص وهو يمرق لصق أذنى ويستقر فى أخى، يا للذكرى! لو امتد به العمر للحق بركب الوزراء المجاهدين!

ـ ولكن العمر امتد بك أنت!

ـ نعم، ولكن ما كان بوسعى أن أكون وزيراً بالابتدائية، ثم إننا فى جهادنا توقعنا الموت لا المناصب، غير أنه لا بد أن يموت أناس ويتبوأ المناصب آخرون، وفى جنازة أخى مشى سعد زغلول فقدمنى إليه زعيم الطلبة، هذه ذكرى عظيمة أخرى!

ـ ولكن كيف وجدت ـ رغم جهادك ـ متعا للعربدة والعشق؟!

ـ اسمعوا يا هوه! وهؤلاء الجنود الذين يضاجعون النساء فى الطرق أليسوا هم الذين ردوا رومل على أعقابه؟! فالجهاد لا يكره الفرفشة، والخمر لو علمتم روح الفروسية، والمجاهد والسكران أخوان يا أولى الألباب!

ـ وسعد زغلول ألم يقل لك شيئا فى جنازة أخيك..؟

فأجاب عنه المحامى قائلاً:

ـ قال له ليتك كنت الشهيد أنت!..

وضحكوا، وكانوا فى هذه الحال يضحكون أولاً ثم يتساءلون عن السبب، وضحك معهم ياسين فى أريحية صافية ثم واصل حديثه قائلاً:

ـ لم يقل هذا، كان رحمه الله مؤدبا لا كحضرتك، وكان ابن حظ أيضًا، ولذلك كان واسع الآفاق، فكان سياسيًا ومجاهداً وأديبًا وفيلسوفًا وقانونيًا، وكانت كلمة منه تحيى وتميت!

ـ الله يرحمه.

ـ ويرحم الجميع، كل ميت يستحق الرحمة، بحسبه أنه فقد الحياة،

حتى المومس وحتى القواد، وحتى الأم التى كانت تبعث بابنها إلى رفيقها ليعود إليها به . .

ـ وهل يمكن أن توجد هذه الأم؟!

ـ كل ما تتصور وما لا تتصور يوجد فى الحياة!

ـ ألم تجد إلا ابنها؟

ـ ومن أرعى للأم من الابن؟! ثم إنكم جميع أبناء المضاجعة!

ـ الشرعية! . .

ـ هذه شكليات أما الحقيقة فواحدة، وقد عرفت مومسات بائسات كان فراشهن يخلو من ضجيع أسبوعًا أو أكثر، دلونى على أم من أمهاتكم قضت مثل هذه الفترة بعيدا عن قرينها!

ـ لا أعرف شعبًا كالشعب المصرى ولعا بالخوض فى أعراض الأمهات!

ـ نحن شعب قليل الأدب! . .

فقال ياسين ضاحكًا :

ـ إن الزمن أدبنا أكثر مما ينبغى، والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن غير مؤدبين! ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك، فالتوبة عادة ختامنا! . .

ـ هاأنا من ذوى المعاشات ولكننى لم أتب بعد!

ـ التوبة لا تخضع لكادر الموظفين، ثم إنك لا تفعل شيئا ضارا، أنت تسكر ساعات كل ليلة وليس فى ذلك من بأس، وسوف يمنعك عن السكر يومًا المرض أو الطبيب وكلاهما شىء واحد، ونحن بطبعنا ضعفاء، ولولا ذلك ما ألفنا الخمر ولا صبرنا على الحياة الزوجية، ونزداد بمرور الأيام ضعفا ولكن رغائبنا لا تقف عند حد، هيهات، فنتعذب ثم نسكر مرة أخرى، ويشيب شعرنا

فيفضح منا المستور وإذا بصفيق يعترض سبيلك فى الطريق وهو يقول: «عيب أن تطارد امرأة وشعرك شايب!» يا سبحان الله ما لك أنت إذا كنت شابًا أو شيخًا، أتبع امرأة أم أتبع حمارة! حتى تخال حينا أن الناس متآمرون مع زوجك عليك، وهنالك إلى ذلك كله الدلال بثقله والعسكرى بهراوته، حتى الخادمة تتيه دلالا فى سوق الخضار، وهكذا تجد نفسك فى عالم مشاكس لا صديق لك فيه إلا الكأس، ثم يجىء دور المرتزقة من الأطباء فيقولون لك بكل بساطة: «لا تشرب!».

- ومع ذلك أتنكر أننا نحب الدنيا بكل قلوبنا؟

- بكل قلوبنا! والشر نفسه لا يخلو من خير، حتى الإنجليز لا يخلون من خير، لقد عرفتهم يومًا عن كثب، وكان لى منهم أصدقاء على عهد الثورة!

فهتف المحامى:

- ولكنك كنت تجاهدهم.. أنسيت؟!

- نعم.. نعم، لكل حال ما يناسبها، وفى مرة ظنونى جاسوسا لولا أن سارع إلى زعيم الطلبة فى اللحظة المناسبة فدل القوم على حقيقتى فهتفوا لى، وكان ذلك فى جامع الحسين!

- يعيش ياسين.. يعيش ياسين! ولكن ماذا كنت تفعل فى جامع الحسين؟

- أجب، هذه نقطة هامة جدًا!

فضحك ياسين ثم قال:

- كنا نصلى الجمعة، وكان من عادة أبى أن يأخذنا معه لصلاة الجمعة، ألا تصدقون؟ سلوا أهل الحسين!..

- كنت تصلى زلفى لأبيك؟

ـ ولله، لا تسيئوا الظن بنا، نحن أسرة دينية، أجل كلنا سكيرون فاسقون، ولكن فى النهاية تنتظرنا التوبة!

وهنا تأوه المحامى قائلا:

ـ ألا نعاود الغناء قليلاً؟

فبادره ياسين قائلاً:

ـ أمس غادرت الحانة وأنا أغنى فاعترضنى شرطى وهتف بى محذرا: «يا أفندى!» فسألته: «ألا يحق لى أن أغنى؟»، فقال: «ممنوع الزعيق بعد الساعة ١٢» فقلت محتجًا: «ولكننى أغنى!» فقال بحدة: «كله زعق أمام القانون»، فسألته: «والقنابل التى تنفجر بعد الساعة ١٢ ألا تعد زعقًا؟» فقال مهددًا: «الظاهر أنك ترغب فى البيات فى القسم» فابتعدت عنه وأنا أقول: «بل الأفضل أن أبيت فى البيت!»، كيف نكون أمة متحضرة والعساكر تحكمنا؟!» وفى البيت تلقى زوجك بالمرصاد وهنالك فى الوزارة رئيسك، حتى فى التربة يستقبلك ملكان بالهراوات..

وعاد المحامى يقول:

ـ فلنمز بشىء من الغناء..

فتنحح عميد ذوى المعاشات ثم راح يترنم:

جوزى اتجوز عليه ولسه الحنة فى إيديه.

يوم ما جه وجبها عليه دى نار يا ناس وآدت فيه

وسرعان ما رددوا المطلع فى حماس همجى، وكان ياسين يغرق فى الضحك حتى دمعت عيناه..

٤٩

كثيراً ما كانت تشعر خديجة بأنها وحيدة. ومع أن إبراهيم شوكت ـ خاصة منذ أن قارب السبعين ـ كان يعتكف فى بيته طوال أيام الشتاء، إلا أنه لم يستطع أن يبدد وحشتها، ولم تهن فى القيام بواجبات بيتها، غير أنها ـ الواجبات ـ باتت أهون من أن تستغرق حيويتها ونشاطها، فعلى تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قوية نشيطة وازدادت جسامة. وأسوأ من هذا أن وظيفتها كأم قد انقطعت على حين أن دورها كحماة لم ولن يبدأ أبدا فيما بدا. فإحدى الزوجتين ابنة أخيها، والأخرى موظفة لاتكاد تلتقى بها إلا فيما ندر من الأوقات والمناسبات. فكانت تروح عن صدرها المكبوت فيما يدور بينها وبين زوجها المتلفع بعباءته.

ـ مضى أكثر من عام على زواجهما ولم نوقد شموعًا!

فهز الرجل منكبيه استهانة دون تعليق فعادت تقول:

ـ لعل عبد المنعم وأحمد يعدان الذرية موضة قديمة كطاعة الوالدين!

فقال الرجل فى ضجر:

ـ أريحى نفسك فهما سعيدان وحسبنا هذا.

فتساءلت فى حدة:

ـ إذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها؟

ـ لعل إبنيك يخالفانك فى هذا الرأى!

ـ لقد خالفانى فى كل شىء، ما أضيع تعبى وأملى..

ـ أيحزنك ألا تكونى جدة؟

فقالت فى حدة تعالت درجتها :

ـ إن حزنى عليهما لا على نفسى !

ـ لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فبشره خيراً .

ـ أنفق المسكين كثيراً وسينفق غداً أكثر ، إن عرائس اليوم غالية الثمن كالطماطم واللحوم !

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول :

ـ أما الأخرى فأستعين عليها بسيدى المتولى .

ـ إعترفى بأن لسانها كالشهد !

ـ مكر ودهاء ، ماذا تتوقع من إبنة العنابر ؟

ـ إتقى الله يا شيخة !

ـ ترى متى يذهب بها «الأستاذ» إلى الطبيب؟

ـ إنهما زاهدان فى هذا !

ـ طبعاً ، إنها موظفة ، فمن أين تجد الوقت للحبل والولادة؟

ـ إنهما سعيدان ما فى ذلك شك .

ـ الموظفة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة ، وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان . .

ـ إنه رجل ولن يضيره ذلك . .

ـ ليس فى هذا الحى كله شابان كولدى فيا خسارة !

* * *

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه واتجاهه ، فأثبت أنه موظف كفء و«أخ» نشيط ، وقد انتهى الإشراف على شعبة الجمالية إليه فعين مستشاراً قانونيًا لها ، وأسهم فى تحرير المجلة ، وكان يلقى المواعظ أحيانًا فى المساجد الأهلية . وجعل من شقته ناديًا لإخوانه يسهرون عنده كل

ليلة وعلى رأسهم الشيخ على المنوفى. وكان الشاب شديد التحمس موفور الاستعداد كى يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل فى خدمة الدعوة التى آمن بكل قلبه ـ على حد تعبير المرشد ـ بأنها دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية، وكان الشيخ على المنوفى يقول:

ـ تعاليم الإسلام وأحكامه شاملة تنظيم شئون الناس فى الدنيا والآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية الروحية أو العبادة دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية ومصحف وسيف..

فيقول شاب من المجتمعين:

ـ هذا هو ديننا، ولكننا جامدون لا نفعل شيئا والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله..

فيقول الشيخ على:

ـ لا بد من الدعاية والتبشير، وتكوين الأنصار المجاهدين، ثم تجىء مرحلة التنفيذ..

ـ وإلام ننتظر؟

ـ لننتظر حتى تنتهى الحرب. إن الحقل مهيأ لدعوتنا، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب، وعندما يهتف الداعى فى الوقت المناسب يهب الإخوان وكل مدرع بقرآنه وسلاحه..

عبد المنعم بصوته القوى العميق:

ـ فلنوطن النفس على جهاد طويل، إن دعوتنا ليست موجهة إلى مصر وحدها. ولكن إلى كافة المسلمين فى الأرض، ولن يتحقق لها النجاح حتى تجمع مصر والأمم الإسلامية على هذه المبادئ

القرآنية، فلن نغمد السلاح حتى نرى القرآن دستورًا للمسلمين أجمعين . .

الشيخ على المنوفى :

- أبشركم بأن دعوتنا تنتشر بفضل الله فى كل بيئة، لها اليوم مركز فى كل قرية، إنها دعوة الله، والله لا يخذل قومًا ينصرونه . .

وفى نفس الوقت، كان يستعر نشاط آخر فى الدور التحتانى وإن اختلف الهدف، ولم يكن وفير العدد كهذا، فإن أحمد وسوسن كانا يجتمعان فى كثير من الليالى بعدد محدود من الأصدقاء مختلفى النحل والملل، أكثرهم من البيئة الصحفية. وقد زارهم الأستاذ عدلى كريم ذات مساء، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظرية. فقال لهم :

- حسن أن تدرسوا الماركسية، ولكن تذكروا أنها وإن تكن ضرورة تاريخية إلا أن حتميتها ليست من حتمية الظاهرات الفلكية. إنها لن توجد إلا بإرادة البشر وجهادهم، فواجبنا الأول ليس فى أن نتفلسف كثيراً ولكن فى أن نملأ وعى الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخى الذى عليها أن تلعبه لإنقاذ نفسها والعالم جميعًا . .

أحمد . .

- إننا نترجم الكتب القيمة عن هذه الفلسفة للخاصة من المثقفين، ونلقى المحاضرات الحماسية على العمال المجاهدين، وكلا العملين واجب لا غنى عنه . .

فقال الأستاذ :

- ولكن المجتمع الفاسد لن يتطور إلا باليد العاملة، وحين يمتلئ وعيها بالإيمان الجديد، ويمسى الشعب كله كتلة واحدة من الإرادة، فهنالك لن تقف فى سبيلنا القوانين الهمجية ولا المدافع . .

- كلنا مؤمنون بذلك، غير أن كسب العقول المثقفة بمعنى السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم . .

وإذا بأحمد يقول :

ـ سيدى الأستاذ، ثمة ملاحظة أود إبداءها، عرفت بالتجربة أنه ليس من العسير إقناع المثقفين بأن الدين خرافة وأن الغيبيات تخدير وتضليل، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهذه الآراء، وإن أكبر تهمة يستغلها أعداؤنا هى رمى حركتنا بالإلحاد أو الكفر؟

ـ إن مهمتنا الأولى أن نحارب روح القناعة والخمول والاستسلام، أما الدين فلن يتأتى القضاء عليه إلا فى ظل الحكم الحر، ولن يتحقق هذا الحكم إلا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من الإيمان، ومن الحكمة دائمًا أن تخاطب الناس على قدر عقولهم . .

ونظر الأستاذ إلى سوسن باسما وهو يقول :

ـ كنت تؤمنين بالعمل فهل بت تقنعين بالنقاش فى ظل الزواج؟ . .

وكانت تدرك أنه يداعبها وأنه لا يعنى ما يقول : ومع ذلك فقد قالت جادة :

ـ إن زوجى يحاضر العمال فى الخرابات النائية، وأنا لا أنى أوزع المنشورات بنفسى . .

ثم قال أحمد مغتمًا :

ـ إن عيب حركتنا أنها تجذب إليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبية!

فقال الأستاذ عدلى كريم وهو يهز رأسه الكبير فى استهانة واضحة :

ـ أعلم هذا حق العلم، ولكنى أعلم أيضًا أن الأمويين قد ورثوا الإسلام وهم لا يؤمنون به ومع ذلك فهم الذين نشروه فى بقاع العالم القديم حتى أسبانيا! ! فمن حقنا أن نستفيد من هؤلاء، علينا

أن نحذرهم فى الوقت نفسه، ولا تنسوا أن الزمن معنا على شرط أن نبذل ما فى وسعنامن جهد وتضحية . .

ـ والإخوان يا أستاذ! لقد بتنا نشعر بأنهم عقبة خطيرة فى سبيلنا!

ـ لا أنكر هذا، ولكنهم ليسوا بالخطورة التى تتخيلها، ألاترى أنهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون اشتراكية الإسلام؟ فحتى الرجعيون لم يجدوا بدا من استعارة اصطلاحاتنا، وهم لو سبقونا إلى الانقلاب فسوف يحققون بعض مبادئنا ولو تحقيقا جزئيًا، ولكنهم لن يوقفوا حركة الزمن المتقدمة إلى هدفها المحتوم، ثم إن نشر العلم كفيل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش!

* * *

ومضت خديجة تراقب مظاهر هذا النشاط الغريب فى دهشة مقرونة بالامتعاض والسخط، حتى قالت يوما لزوجها :

ـ لم أر بيتا كبيتى عبد المنعم وأحمد، لعلهما قهوتان وأنا لا أدرى، فلا يجىء المساء حتى يمتلئ الطريق بالزوار من أصحاب الحى والخواجات، لم أسمع عن شىء كهذا من قبل . .

فهز الرجل رأسه قائلاً :

ـ آن لك أن تسمعى . .

فقالت بحدة :

ـ إن مرتبيهما لن يكفيا ثمن القهوة التى تقدم للضيوف!

ـ هل اشتكيا إليك الفقر؟

ـ والناس؟ماذا يقولون وهم يرون أفواجًا تدخل وأفواجًا تخرج؟

ـ كل واحد حر فى بَيته . .

فنفخت قائلة :

ـ إن أصوات أحاديثهم التى لا تنتهى تعلو أحيانًا حتى تخرج إلى الحارة . .

ـ فلتخرج إلى الحارة أو فلتصعد إلى السماء! . .

وتنهدت خديجة من الأعماق وهى تضرب كفا بكف . .

٥٠

كانت فيللا عبد الرحيم باشا عيسى بحلوان تودع الفوج الأخير من الزوار الذين جاءوا يودعونه قبيل سفره إلى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج . .

ـ إن الحج أمنية قديمة ، لعن الله السياسة فهى التى شغلتنى عنه عامًا بعد عام ، ولكن فى مثل عمرى يجب أن يفكر المرء فى أداء اللقاء القريب بربه .

فقال على مهران وكيل الباشا :

ـ لعن الله السياسة!

فردد الباشا عينيه الذابلتين بين رضوان وبين حلمى متفكرًا ثم قال :

ـ قل فيها ما شئت ، غير ان لها جميلا فى عنقى لا أنساه وهو أنها سلتنى عن وحشتى ، إن الأعزب العجوز مثلى يلتمس الأنس ولو فى الجحيم!

فلعب على مهران حاجبيه وقال :

ـ ونحن يا باشا ألم نقم بواجبنا فى تسليتك؟

ـ دون شك ، ولكن يوم الأعزب طويل كليل الشتاء ، ولابد للإنسان

من رفيق، وإنى لأعترف بأن المرأة ضرورة خطيرة، وكم أذكر أمى هذه الأيام! إن المرأة ضرورة حتى لمن لا يتعشقها!

وكان رضوان يفكر فى أمور بعيدة فإذا به يسأل الباشا:

ـ هب النحاس باشا يسقط أفلا تعدل عن السفر؟!

فلوح الباشا بيده ساخطًا وقال:

ـ فليبق بنحسه حتى أعود على الأقل من الحج!..

ثم وهو يهز رأسه:

ـ كلنا مذنب، والحج يغسل الذنوب..

فضحك حلمى عزت قائلاً:

ـ إنك يا باشا مؤمن، وإن إيمانك لمما يحير الكثيرين!

ـ لمه؟ إن الإيمان واسع الصدر، المنافق وحده الذى يدعى البراءة المطلقة، ومن الغباء أن تظن أن الإنسان لا يقترف الذنوب إلا على جثة الإيمان، ثم إن ذنوبنا أشبه بالعبث الصبيانى البرىء!

فقال على مهران متنهدًا فى ارتياح:

ـ يا له من قول جميل! والآن دعنى أصارحك بأنى تشاءمت كثيراً حين حدثتنى عن أعتزامك الحج، وساءلت نفسى ترى أهى التوبة؟! وهل تنتهى بالنسبة لنا مسرات الحياة؟!

فضحك الباشا حتى اهتز جذعه وقال:

ـ أنت شيطان من صلب شيطان، أتحزنون حقًا إذا علمتم أنها التوبة؟

فقال حلمى متأوها:

ـ كمن ذبح وليدها فى حجرها!..

فضحك عبد الرحيم باشا مرة أخرى وقال:

ـ آم منكم يا أولاد الإيه، على مثلى إذا أراد التوبة حقًا أن ينأى بنفسه

عن العيون النجل والخدود الوردية، وأن يعكف على مجاورة قبر النبى عليه الصلاة والسلام . .

فهتف مهران فى شماتة :

ـ الحجاز وما أدراك ما الحجاز، لقد حدثنى عنها العارفون، ستكون كالمستجير من الرمضاء بالنار!

فقال حلمى عزت كالمحتج :

ـ لعلها دعاية كاذبة كالدعايات الإنجليزية، وهل يوجد فى الحجاز كله وجه كوجه رضوان؟!

فهتف عبد الرحيم عيسى :

ـ ولا فى الجنة! . . (ثم متراجعًا) . . لكننا يا أولاد الحرام بصدد حديث التوبة!

فقال على مهران :

ـ مهلاً يا باشا، لقد أخبرتنى يومًا عن الصوفى الذى تاب سبعين مرة، أليس معنى هذا أنه أذنب سبعين مرة؟

فقال رضوان :

ـ أو مائة مرة!

فقال على مهران :

ـ أنا راض بسبعين!

فتساءل الباشا ووجهه يتهلل بشرا :

ـ وهل فى العمر بقية؟

ـ ربنا يطول عمرك يا باشا، طمئنا وقل إنها التوبة الأولى!

ـ والأخيرة!

ـ فشر! إذا تحديتنى فسوف أستقبلك حين العودة من الحج بقمر ولا كل الأقمار ثم ننظر ماذا يكون من أمرك!

فقال الباشا باسما:

ـ ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الأخص، أنت شيطان يا مهران، شيطان لا غنى للإنسان عنه . .

ـ أحمد الله على ذلك . .

رضوان وحلمى فى وقت واحد تقريبًا:

ـ ونحمده عليه . .

فقال الباشا فى خيلاء وسرور:

ـ أنتم أنسى، ما الحياة بدون المودة والصداقة؟ الحياة جميلة، الجمال جميل، الطرب جميل، العفو جميل، أنتم شباب وتنظرون إلى الدنيا من زاوية خاصة، وسوف يعلمكم العمر الكثير، إنى أحبكم وأحب الدنيا، وأن زيارتى لبيت الله للشكر والاعتذار وطلب الهداية . .

فقال رضوان باسمًا:

ـ ما أجمل منظرك! إنك تقطر صفاء . .

فقال على مهران بمكر:

ـ ولكن حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى، حقا يا باشا إنك معلم الجيل!

ـ وأنت إبليس نفسه يا ابن الهرمة! اللهم إنى إذا قدمت يوما للحساب فسأشير إليك وكفى!

ـ أنا ! مظلوم والله، لست إلا عبدا مأمورا! . .

ـ بل أنت شيطان . .

ـ ولكن لا غنى لإنسان عنه ؟

فضحك الباشا قائلا:

ـ نعم يا عكروت . .

ـ كنت وما أزال فى حياتك العامرة نغما مطربا ووجها مليحا وهناء متجددا، وأخيرا لا تنس أيام شبابى يا سعادة الغادر . .

فتأوه الباشا قائلا :

ـ أيام زمان . . آه من الزمان، يا أولاد لم نكبر ؟ جلت حكمتك يا ربى وعَلَتْ . .

كانت قناتى لا تميل لغامز فألانها الإصباح والإمساء

فقال مهران ملعبا حاجبيه :

ـ لغامز ؟ بل قل لا تميل لمهران . .

ـ يا ابن الكلب لا تفسد الجو بهذرك، لا يجوز أن نعبث عند ذكر الأيام الجميلة، الدموع أحيانا أجمل من الابتسام وأضخم إنسانية وأشد عرفانا بالجميل، اسمعوا هذا أيضا :

واستنكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ـ ما رأيكم فى قوله «من الحوادث» ؟

وإذا بمهران ينادى على طريقة باعة الصحف :

ـ الحوادث والأهرام والمصرى . .

الباشا يائسا :

ـ الحق ليس عليك ولكن عـ . . . .

ـ عليك أنت .

ـ أنا . برىء منك، عندما عرفتك كنت على حال يحسدك عليها إبليس، ولكنى لن أسمح لك أن تنتزعنى من جو الذكريات، نعم اسمعوا إلى هذا أيضا :

عريت من الشباب وكان غضا كما يعرى من الورق القضيب

فتساءل مهران كالمنزعج :

ـ القضيب يا باشا :

الباشا وهو يردد ناظريه بين رضوان وحلمى المغرقين فى الضحك :

ـ صاحبكم جثة لا يؤثر فيها الشعر ، ولكنه سيبلغ قريبا فترة الحسرات ، حين يصير كل جميل خبرا لكان أو إحدى أخواتها ، (ثم ملتفتا إلى مهران) وأصحاب زمان يا ابن الهرمة هل نسيتهم؟

ـ أوه ، الله يمسيهم بالخير . . كانوا الجمال كله والدلال كله . .

ـ ماذا تعرف عن شاكر سليمان ؟

ـ كان وكيل الداخلية وفرخة بكشك عند الإنجليز حتى أحيل على المعاش قبل الأوان فى وزارة النحاس الثانية أو الثالثة لا أذكر ، وأظنه الآن معتكفا فى عزبته بكوم حمادة . .

ـ يا عينى على أيامه ، وحامد النجدى ؟

ـ هذا أسوأ أحبابنا حظا ، خسر الجلد والسقط ، وإنه ليطوف الآن ليلا بالمراحيض العمومية . .

ـ كان خفيفا ظريفا ولكنه كان كذلك مقامرا وعربيدا . وعلى رأفت؟

ـ لقد بلغ «باجتهاده» أن صار عضوا فى مجلس إدارة عدة شركات ، ولكن سمعته ضيعت عليه الوزارة فيما يقال . .

ـ لا تصدق ما يقال ، ولى الوزارة أناس جاوزت شهرتهم حدود المملكة ، غير أن هذا الرأى الذى طالما نوَّهت لكم عنه وهو أن التحلى بالفضائل العامة واجب علينا أكثر من بقية الناس ، فإذا تحقق لأحدكم هذا فلا تثريب عليه بعد ذلك ، لقد حكم المماليك مصر أجيالا ، وما زالت ذراريهم تنعم بالجاه والمال ، وما المملوك؟ هو ذلك نفسه ، سأقص عليكم قصة عظيمة المغزى . .

وصمت الباشا قليلا كأنما ليجمع شتات فكره ثم قال :

ـ كنت فى ذلك الوقت رئيس محكمة، وحدث أن عرضت على قضية مدنية عن ميراث مختلف عليه، وقبل نظر القضية عرَّفنى بعضهم بشاب جميل له وجه رضوان وقوام حلمى . . (ثم مشيرا إلى مهران) ورشاقة هذا الكلب فى عز أيامه. فتصادقنا عهدا وأنا لا أدرى عن سره شيئا، حتى إذا كان يوم نظر القضية ما أدرى إلا وهو يقف أمامى ممثلا لأحد طرفى النزاع، ماذا تظنون فعلت ؟ فتمتم رضوان :

ـ يا له من موقف . .

ـ تنحيت عن نظر القضية دون تردد .

وأبدى رضوان وحلمى عن إعجابهما أما مهران فقال كالمحتج :

ـ وضيعت عليه كفاحه ؟

فقال الباشا دون اكتراث لهذر مهران :

ـ ليس هذا فحسب، ولكنى قطعته احتقارا لسوء خلقه، أجل، لا قيمة للإنسان بلا خلق، ليس الإنجليز بأذكى الناس، الفرنسيون والإيطاليون أذكى منهم ولكنهم سادة الخلق فهم سادة العالم . لذلك أنبذ الجمال التافه المنحط .

فتساءل على مهران ضاحكا :

ـ هل أفهم من إبقائك علىَّ أنى ذو خلق ؟ . .

فأشار الباشا نحوه جادا وهو يقول :

ـ الأخلاق متنوعة، فالقاضى مطالب بالنزاهة والعدل، والوزير بالواجب والشعور بالمسئولية العامة، والصديق بالصفاء والوفاء، وأنت عربيد بلا شك ووغد فى أحايين كثيرة، ولكنك أمين وفى . .

ـ أرجو أن يكون وجهى قد تورد .

ـ الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . والحق أنى قانع بما فيك من خير ، ثم إنك زوج وأب وهذه فضيلة أخرى ، وهى سعادة لا يقدرها إلا من عانى صمت البيوت ، إلا أن صمت المقام عذاب الشيخوخة! فقال رضوان كالمنكر :

ـ حسبت الشيخوخة محبة للهدوء :

ـ تخيلات الشباب عن الشيخوخة ضلال ، تخيلات الشيخوخة عن الشباب حسرات ، خبرنى يا رضوان عن رأيك فى الزواج .

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول :

ـ هو الرأى الذى حدثتك عنه من قبل يا باشا .

ـ لا أمل فى العدول عنه؟

ـ لا أظن .

ـ لمه؟

تردد رضوان قليلا ثم قال :

ـ شىء عجيب ، لا أدرى كنهه ، لكن المرأة تبدو لى مخلوقا مثيرا للاشمئزاز . .

فتجلت فى العينين الذابلتين نظرة حزينة وقال :

ـ يا للأسف ، ألا ترى أن على مهران زوج وأب ؟ وأن صديقك حلمى من أنصار الزواج ؟ إنى أرثى لك رثاء مضاعفا إذ أنه رثاء لنفسى أيضا ، طالما حيرنى ما قرأت وما سمعت عن جمال المرأة ، غير أنى طويت نفسى على رأيى الخاص إكراما لذكرى أمى ، كنت أحبها حبا جما ، وقد أسلمت الروح بين ذراعى ودموعى تتساقط فوق جبينها وخديها ، وكم أود لو تتغلب على متاعبك يا رضوان . . .

فقال رضوان وكان يبدو شاردا ساهما :

ـ يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة . . ليس الأمر مشكلة!

ـ يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة، ولكن الأمر مشكلة وقد لا تبالى تساؤل الناس ولكن ماذا عن تساؤلك أنت؟، من الممكن أن تقول إن المرأة مثيرة للاشمئزاز ولكن لماذا هى لا تثير اشمئزاز الآخرين؟ هنالك يركبك إحساس كالمرض، مرض لا تعرف له دواء، فتعتزل العالم به، وهو شر رفيق فى الوحدة، وربما أخجلك بعد ذلك أن تحتقر المرأة وإن تكن مضطرا إلى مواصلة احتقارها .

وهنا نفخ على مهران فيما يشبه اليأس ثم قال :

ـ منيت النفس بليلة مرحة جديرة بالوداع .

فضحك عبد الرحيم باشا ثم قال :

ـ ولكنه وداع حاج ، ماذا تعرف أنت عن توديع الحجاج؟

ـ سأودعك بالدعاء ثم أستقبلك بالورود والخدود، ويومئذ نرى ماذا أنت فاعل .

فضرب الباشا كفا بكف وهو يقول ضاحكا :

ـ إنى مفوض أمرى إلى الله ذى الجلال! . .

٥١

عند تقاطع شارعى شريف وقصر النيل، أمام مقهى رتز ، وفجأة، وجد كمال نفسه أمام حسين شداد ، وتوقفا عن السير وكلاهما يحملق فى وجه صاحبه حتى هتف كمال :

ـ حسين . .

فهتف الآخر بدوره :

ـ كمال!

ـ ثم تصافحا فى حرارة وهما يضحكان ضحكة الغبطة والسرور .

ـ أية مفاجأة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل .

ـ أية مفاجأة سعيدة! تغيرت كثيرا يا كمال، ولكن مهلا لعلى أبالغ، عودك هو هو، جملة منظرك، ولكن ما هذا الشارب المحترم ؟ وهذه النظارة الكلاسيكية وهذه العصا . وهذا الطربوش الذى لم يعد أحد يلبسه غيرك .

ـ وأنت شد ما تغيرت! سمنت أكثر مما كنت أتصور، أهذا يتفق وتقاليد باريس؟ أين حسين زمان؟!

ـ وأين باريس زمان؟ أين هتلر وموسولينى؟ ما علينا، كنت ذاهبا إلى ريتز لأشرب قدح شاى فهل عندك مانع من الجلوس معى قليلا ؟

ـ بكل سرور . .

فمالا إلى ريتز ثم جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجية المطلة على الطريق، وطلب حسين شداد الشاى وطلب كمال قهوة ثم عاد يتفحصان بعضهما البعض فى ابتسام . لقد ضخم حسين فامتد طولا وعرضا . ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى ؟ هل ساح فى الأرض والسماء كما كان يود قديما ؟ لكن عينيه تعكسان رغم ابتسامهما نظرة غليظة كأنما بدلت من طفولة الحياة جدا . وكان قد مضى عام على التقائه ببدور فى شارع فؤاد الأول فبرئ فى أثنائه من نكسة الحب وانزوى آل شداد جميعا فى ركن النسيان، غير أن ظهور حسين قد أيقظ النفس من سباتها، فبدا الماضى وكأنه يتمطى ناشرا أفراحه وآلامه .

ـ متى عدت من الخارج ؟

ـ منذ عام تقريبا .

ولم يحاول مقابلته على الإطلاق؟. ولكن علام يلومه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر؟

ـ لو علمت أنك عدت إلى مصر لسعيت إلى لقائك.

ولم يبد على حسين أنه أحرج أو ارتبك ولكنه قال ببساطة:

ـ عدت فوجدت الهموم فى انتظارى، ألم تبلغك أشياء عنا؟

فتجهم وجه كمال وقال باقتضاب وأسف:

ـ بلى، عن طريق صديقنا إسماعيل لطيف.

ـ لقد سافر إلى العراق منذ عامين كما أخبرتنى والدتى.. وجدت الهموم فى انتظارى كما قلت، ثم كان علىَّ أن أعمل، وأن أعمل ليل نهار.

هذا حسين شداد طبعة ١٩٤٤، ذلك الذى يعد العمل جريمة إنسانية، أحق وجد ذلك الماضى؟ لعله لا دليل عليه إلا خفقان هذا القلب.

ـ أتذكر آخر مرة تلاقينا؟

ـ أوه..

وجاء النادل بالشاى والقهوة قبل أن يتم كلامه غير أنه لم يبد متحمسا للذكريات..

ـ دعنى أذكرك، كان ذلك عام ١٩٢٦.

ـ عفارم على ذاكرتك.. (ثم شاردا).. سبعة عشر عاما فى أوروبا.

ـ حدثنى عن حياتك هنالك.

فهز رأسه الذى لم يشب منه إلا سوالفه وقال:

ـ دع ذلك إلى حينه، واقنع الآن بهذه العناوين: أعوام سياحية وفرحة كالحلم، حب فزواج من باريسية من أسرة محترمة، الحرب

والهجرة إلى الجنوب إفلاس أبى، العمل فى متجر حماى، عودتى إلى مصر دون زوجى حتى أهيىء لها حياة مستقرة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ أنجبت أطفالا!

ـ كلا.

كأنما لا يود أن يتكلم، ولكن ماذا بقى من الصداقة القديمة حتى يأسف على ذلك؟ ورغم هذا وجد رغبة قوية فى طرق أبواب الماضى فتساءل:

ـ وماذا عن فلسفتك القديمة؟

وتفكر حسين مليا، ثم ضحك ضحكة ساخرة وقال:

ـ إنى غارق فى العمل منذ أعوام وأعوام، لست إلا رجل أعمال!

أين روح حسين شداد الذى كان يأوى منها إلى ظل ظليل من الغبطة الروحية؟ ليست فى هذا الرجل الضخم، لعلها استقرت فى رياض قلدس، أما هذا الرجل فإنه لا يعرفه، ولا يربطه به إلا ماض مجهول، ماض ود فى تلك اللحظة لو كان يحتفظ له بصورة حية لا صورة فوتوغرافية باردة.

ـ وماذا تعمل الآن؟

ـ ألحقنى أحد الأصدقاء أبى بوظيفة فى الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتى الفجر، وإلى هذا فإنى أقوم بالترجمة فى بعض الصحف الإفرنجية..

ـ ومتى تخلو من العمل؟.

ـ فيما ندر، والذى يهون على المشقة أننى لن أدعو زوجى إلى مصر حتى أهيىء لها حياة تناسبها، فهى، من أسرة محترمة، وكنت حين تزوجت منها معدودا من الأغنياء..

قال ذلك وضحك ضحكة كأنما يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنما يشجعه بها، وراح يقول لنفسه : من حسن حظى أنى سلوتك من زمن طويل، ولولا ذلك لبكيت عليك من أعماق قلبى .

- وأنت يا كمال ماذا تعمل ؟

ثم مستدركا :

- أذكر أنك كنت مغرما بالثقافة ؟

ما أجدره بالشكر على هذا التذكر ، فهو ميت بالنسبة إليه كما أن الآخر ميت بالنسبة إليه هو، وإنا لنموت ونحيا كل يوم مرات، وأجابه :

- إنى مدرس لغة إنجليزية . .

- مدرس ، نعم . . نعم . تذكرت الآن أشياء، وكنت ترغب فى أن تكون مؤلفا.

يا للرغبات الخائبة! . .

- إنى أنشر مقالاتى فى مجلة الفكر، ولعلى أجمع بعضها فى كتاب عما قريب!

فابتسم حسين ابتسامة كئيبة وقال :

- أنت سعيد لأنك حققت أحلام صباك، أما أنا . . . !

وضحك مرة أخرى، أما كمال فقد وقعت جملة «أنت سعيد» من أذنيه موقعا غريبا، ولم يكن أغرب منها إلا اللهجة التى قيلت بها الدالة على الحسد، فوجد نفسه مرة واحدة سعيدا ومحسودا، وممن ؟ من عميد آل شداد . غير أنه قال على سبيل المجاملة :

- حياتك العملية أجل حياة

فقال الآخر باسما :

- لا اختيار لى، ومرجوى الوحيد أن أستعيد شيئا من مستوى الماضى . .

وساد الصمت مليا، وكان كمال يتفحص حسين باهتمام، وكانت صورة من الماضى تنبعث خلال تفحصه، حتى وجد نفسه يسأله قائلا:

ـ وكيف حال الأسرة؟

فقال دون اكتراث:

ـ بخير..

فتردد كمال قليلا ثم قال:

ـ كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم؟

ـ بدور، تزوجت فى العام الماضى..

ـ ما شاء الله، أولادنا يتزوجون.

ـ وأنت ألم تتزوج؟

ترى ألم تعاوده الذكريات؟

ـ كلا..

ـ أسرع وإلا فاتك القطار..

فقال ضاحكا:

ـ فاتنى بأميال..

ـ ربما تزوجت من حيث لا تدرى، صدقنى، لم يكن الزواج ضمن خطتى ولكنى متزوج منذ أكثر من عشر سنوات..

ـ فهز كمال كتفيه دون اكتراث وقال:

ـ خبرنى كيف تجد الحياة هنا بعد إقامتك الطويلة فى فرنسا؟

ـ لم تكن الحياة فى فرنسا عقب الغزو مما يسر، أما هنا فالحياة يسيرة بالقياس إلى هناك. (ثم بحنان) ولكن باريس، أين أين باريس؟

ـ لِمَ لمْ تبق فى فرنسا؟

فقال باستنكار:

ـ أعيش كلاً على حمى؟ كلا، كان ثمة عذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر، أما بعد ذلك فلم يكن من السفر بد.

ترى أهو شذا من الكبرياء القديم؟ ثم وجد نفسه مدفوعا إلى مغامرة خطيرة عذبة معا، فتساءل بمكر:

ـ وما أخبار صاحبنا حسن سليم؟

فحدجه بنظرة ارتياب لحظة ثم قال ببرود:

ـ لا أدرى عنه شيئا.

ـ كيف؟

فقال وهو يمد بصره إلى الطريق خلل الزجاج:

ـ انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالى العامين.

فقال كمال فى دهشة لم يستطع إخفاءها:

ـ أتعنى..؟

ولم يتم كلامه. غلبته المفاجأة. هل عادت عايدة إلى العباسية مرة أخرى؟

امرأة مطلقة؟ فليؤجل التفكير فى هذا كله إلى حين، وقال بهدوء:

ـ كان سفره إلى إيران آخر ما حدثنى به إسماعيل لطيف عنه

فقال حسين بكآبة:

ـ لم تمكث أختى معه فى هذه الرحلة إلا شهرا واحدا، ثم عادت بمفردها..

(ثم بصوت منخفض) يرحمها الله!

ـ هه؟!..

ندت عن كمال فى صوت ترامى إلى الموائد القريبة من حولهم. فنظر إليه حسين كالداهش وقال:

ـ لم تكن تدرى! لقد ماتت منذ عام!

ـ عايدة؟!

فهز الآخر رأسه بالإيجاب، وفى نفس الوقت خجل كمال من نطقه الاسم ومجرداً بصوت مسموع، ولكنه لم يقف عند هذا إلا أقل من لحظة. وبدت الألفاظ جميعا وكأن لا معنى لها. وشعر بدوامة الفناء تدور برأسه. وكان ما به دهشة وارتياع، لا حزن ولا ألم وتكلم أخيرا فقال:

ـ يا له من خبر محزن! البقية فى حياتك!

فقال حسين:

ـ عادت من إيران وحيدة، ومكثت مع أمى شهرا، ثم تزوجت من أنور بك زكى كبير مفتشى اللغة الإنجليزية ولكنها لم تعاشره إلا شهرين، ثم مرضت، ثم توفيت فى المستشفى القبطى.

كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث فى سرعتها الجنونية! ولكنه يقول أنور بك زكى، وهو المراقب الأعلى لهيئته التعليمية، ولعله تشرف بمقابلته مرات وهو زوج لعايدة. رباه.. إنه ليذكر الآن أنه شيع جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هى عايدة؟! ولكن كيف لم يلتق بحسين؟!

ـ هل حضرت وفاتها؟

ـ كلا، توفيت قبل عودتى إلى مصر..

فقال وهو يهز رأسه تعجبا:

ـ لقد سرت فى جنازتها وأنا لا أدرى أنها أختك!

ـ كيف؟

ـ علمت فى المدرسة ذلك اليوم بأن حرم كبير المفتشين قد توفيت وأن الجنازة ستشيع من ميدان الإسماعيلية، فذهبت مع زملائى

المدرسين دون أن أطلع على النعى فى الصحف، وسرنا بين المشيعين حتى جامع جركس، كان ذلك منذ عام. .

فابتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول:

ـ سعيكم مشكور. .

لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجن أو انتحر، اليوم تمر به كخبر من الأخبار، ومن عجب أن يشيع جنازتها وهو لا يدرى، وكان وقتذاك ما يزال أسيرا لمرارة التجربة التى تخلفت عن زواج بدور فلعل صاحبة النعش طافت برأسه فيما طاف به من خواطر بدور وأسرتها وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدم من أنور بك زكى معزيا ثم جلس بين المشيعين، قالوا قياما لقد حضر النعش فمد عينيه فرأى نعشا جميلا مكللا بالحرير الأبيض حتى تهامس بعض زملائه إنها عروس. . الزوجة الثانية للمفتش. . وقد ذهبت ضحية للالتهاب الرئوى، وودع النعش وهو لا يدرى أنه يودع ماضيه، ومن كان زوجها؟ رجل فوق الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضى به ملاك الزمان الخالى؟ وكنت تظنها فوق الزواج فإذا هى تعنو للطلاق ثم تقنع بنصيب الزوجة الثانية! وسوف يمضى وقت طويل قبل أن يسكن جيشان هذا الصدر لا من الحزن أو الألم ولكن من الذهول والدهشة، ومن خلو العالم من مباهج الأحلام، ومن ضياع سر الماضى الساحر إلى الأبد، وإن كان ثمة حزن فعلى أنك لم تحزن كما كان يجدر بك!

ـ لكن ماذا غير حسن سليم؟

فهز حسين رأسه بازدراء وقال:

ـ عشق الوغد موظفة بمفوضية بلجيكا بإيران فغضبت المرحومة لكرامتها وطالبت بالانفصال. .

«مما يعزى المرء فى مثل هذا الموقف أن بديهيات إقليدس لم تعد بالبديهيات المطلقة!».

ـ وأولادها؟

ـ عند جدتهم لأبيهم.

وهى أين هى؟ وماذا جد عليها فى هذا العام؟ وهل يمكن أن يعرفها فهمى أو السيد أحمد عبد الجواد أو نعيمة؟

وإذا بحسين شداد ينهض وهو يقول:

ـ آن لى أن أذهب، دعنى أراك، إنى أتناول عشائى عادة فى ريتز.

فنهض بدوره، وتصافحا وهو يتمتم:

ـ إن شاء الله..

وافترقا عند ذاك وهو يشعر بأنه لن يراه مرة أخرى، وبأنه ليس به حاجة إلى معاودة رؤيته، كما ليس بالآخر حاجة إلى ذلك، وغادر المشرب وهو يقول لنفسه: «إنى حزين يا عايدة لأنى لم أحزن عليك كما كان يجدر بى..».

٥٢

فى سكون الهزيع الأخير من الليل طرق طارق باب بيت آل شوكت بالسكرية، ثم تتابع الطرق حتى استيقظ النائمون، وما أن فتحت خادم الباب حتى تدافعت إلى الداخل أقدام ثقيلة شديدة الوقع، انتشرت فى الفناء والسلم وأطبقت على الشقق الثلاث. وخرج إبراهيم شوكت إلى الصالة مثقل الرأس بالنوم متعبًا بالكبر فرأى ضابطًا كبيرًا يتوسط مجموعة من الجنود والمخبرين، فدهش الرجل وتساءل منزعجًا:

ـ ماذا هنالك كفى الله الشر؟!

فسأله الضابط الكبير بخشونة:

ـ ألست والد أحمد إبراهيم شوكت وعبد المنعم إبراهيم المقيمين فى هذا البيت؟

فأجاب الرجل وقد امتقع وجهه :

ـ بلى :

ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه . .

ـ لماذا يا حضرة المأمور؟

فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه آمرًا :

ـ فتشوا . .

واندفع الرجال إلى الحجرات صادعين بالأمر على حين تساءل إبراهيم شوكت :

لماذا تفتشون شقتى؟

ولكن المأمور تجاهله ، وعند ذاك اضطرت خديجة إلى مغادرة حجرة النوم ـ التى اقحمها المخبرون ـ متلفعة بشال أسود وهى تهتف غاضبة :

ـ أليس للنساء حرمة؟ ! هل نحن لصوص يا حضرة المأمور؟ !

كانت تحدق فى وجهه غاضبة ، وإذا بها تشعر بغتة بأنها رأت هذا الوجه من قبل ، أو بمعنى أصح أنها رأت صورته الأولى قبل أن يعتورها تقدم السن ، متى وأين؟ رباه إنه هو دون ريب ، لم يكد يتغير كثيرًا ، واسمه؟ وقالت دون تردد :

ـ حضرتك كنت ضابطًا بقسم الجمالية ، منذ عشرين عامًا ، بل منذ ثلاثين عامًا لا أذكر الزمن بالضبط . .

فرفع المأمور إليها عينين متسائلتين ، وردد إبراهيم شوكت ناظريه بينهما متسائلاً كذلك ، وإذا بها تقول :

ـ اسمك حسن إبراهيم ، أليس كذلك!

ـ حضرتك تعرفيننى؟

فقالت برجاء:

ـ أنا بنت السيد أحمد عبد الجواد وأخت فهمى أحمد الذى قتله الإنجليز أيام الثورة، ألا تذكره؟

فلاحت الدهشة فى عينى المأمور وتمتم بصوت مهذب لأول مرة:

ـ رحمه الله رحمة واسعة . .

فقالت برجاء أشد:

ـ أنا أخته فهل ترضى لبيتى هذه البهدلة؟

فأشاح المأمور عنها بوجهه وهو يقول كالمعتذر:

ـ إننا ننفذ الأوامر يا هانم.

ـ ولكن لماذا يا حضرة المأمور، نحن أناس طيبون!

فقال المأمور برقة:

ـ نعم، ولكن ليس كذلك نجلاك . .

فهتفت خديجة باضطراب:

ـ إنهما ابنا أخت صديقك القديم!

فقال المأمور دون أن ينظر نحوهما:

ـ إننا ننفذ أوامر الداخلية.

ـ لم يفعلا شيئًا ضارًا، إنهما ولدان طيبان وأقسم لك على ذلك . .

وعاد الجنود والمخبرون إلى الصالة دون أن يعثروا على شىء فأمرهم المأمور بمغادرة الشقة، ثم التفت إلى الزوجين الماثلين أمامه وقال:

ـ أبلغنا عن اجتماعات مريبة تعقد فى شقتيهما . .

ـ هذا كذب يا حضرة المأمور!

ـ أرجو أن يكون الأمر كذلك، لكننى مضطر الآن إلى القبض عليهما

وسوف يبقيان حتى يتم التحقيق معهما، ولعل العاقبة أن تكون سليمة!

هتفت خديجة بصوت متهدج وشى بدموعها:

ـ أتسوقهما حقًا إلى القسم؟ هذا. . ، لا أتصور. . ، اعف عنهما وحياة أولادك!

ـ ليس بوسعى ذلك، لدى أوامر صريحة بالقبض عليهما، طاب مساؤكما!

وغادر الرجل الشقة، وما لبثت أن غادرتها خديجة وفى أعقابها الرجل العجوز نزلا السلم لا يلويان على شىء، ورأتهما كريمة وكانت واقفة أمام شقتها فى حال شديدة من الفزع فهتفت:

ـ أخذوه يا عمتى، أخذوه إلى السجن. .

فألقت خديجة على الشقة نظرة متحجرة، ونزلت مسرعة إلى الشقة الأولى حيث وجدت سوسن على باب شقتها كذلك تتطلع إلى الفناء بوجه كالح، فنظرت حيث تنظر فرأت القوة تحيط بعبد المنعم وأحمد، متجهة بهما إلى الخارج، فلم تتمالك أن تصرخ من أعماق قلبها وهمت بالانطلاق فى أثرهما لولا أن أمسكت بها يد سوسن، فالتفتت نحوها هائجة، غير أن سوسن قالت لها بصوت هادئ حزين:

ـ هدئى روعك، لم يعثروا على شىء مريب، ولن يثبت ضدهما شىء، لا تجرى وراءهم حفظًا لكرامة عبد المنعم وأحمد. .

فصاحت بها:

ـ هذا الهدوء تحسدين عليه!

فقالت سوسن برقة وصبر:

ـ سيعودان إلى بيتهما بخير، اطمئنى. .

فتساءلت بحدة:

ـ من أدراك؟

ـ إنى واثقة مما أقول . .

فلم تكترث لقولها والتفتت نحو زوجها ثم ضربت كفا بكف وهى تقول :

ـ انعدم الوفاء ، أقول لهما إنهما ابنا أخت فهمى فيقول لى عندى أوامر ، لماذا يأخذ ربنا الناس الطيبين ويترك الأرذال؟!

واتجهت سوسن نحو إبراهيم وقالت :

ـ سيفتشون بيت الجماعة فى بين القصرين! سمعت مخبرا يقول للمأمور إنه يعرف بيت جدهما فى بين القصرين فاقترح عليه الضابط المساعد تفتيشه تنفيذ للأوامر على سبيل الحيطة أن يكونا قد أخفيا فيه منشورات!

فصاحت خديجة :

ـ إنى ذاهبة إلى أمى ، لعل كمال يستطيع شيئًا ، آه يا ربى إنى أحترق . .

وجاءت بمعطفها وغادرت السكرية فى خطوات متلاحقة مضطربة ، كان الجو باردا والظلام ما يزال كثيفًا ، وكانت الديكة تصيح فى تجاوب متواصل ، انطلقت من الغورية مخترقة الصاغة إلى النحاسين . ووجدت عند باب البيت مخبراً ، ووجدت فى الفناء مخبراً آخر ، ثم صعدت السلم وهى تلهث . .

وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على رنين الجرس ، ثم جاءتهم أم حنفى وهى تقول فى ذعر : «بوليس» ، وهرع كمال إلى الحوش حيث التقى بالمأمور فتساءل منزعجًا :

ـ أفندم؟

فسأله المأمور :

ـ أتعرف عبد المنعم إبراهيم وأحمد إبراهيم؟

ـ أنا خالهما!

ـ صناعتك؟

ـ مدرس بمدرسة السلحدار . .

ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت!

ـ ولكن لماذا؟ أى تهمة توجهها إلى؟

ـ إننا نفتش عن منشورات تخص الشابين لعلهما أخفياها هنا!

ـ أؤكد لحضرتك أنه ليس فى بيتنا منشورات، تفضل فتش كما تشاء . .

ولاحظ كمال أنه أمر القوة باحتلال السلم والسطح وأنه مضى معه بمفرده، وما كان تفتيشًا يقلب البيت رأسًا على عقب ولكن المأمور اكتفى بتفقد الحجرات وإلقاء نظرة سطحية على المكتب وخزانات الكتب فاسترد أنفاسه، واستطاع أن يسأله وقد أنس إليه :

ـ فتشتم بيتهما؟

ـ طبعًا . .

ثم بعد لحظة قصيرة :

ـ إنهما الآن فى سجن القسم!

فسأله كمال فى انزعاج :

ـ هل ثبت عليهما شىء؟

فأجاب الرجل برقة غير معهودة فى أمثاله :

ـ أرجو ألا يصل الأمر إلى هذا الحد، غير أن التحقيق متروك للنيابة .

ـ أشكر لك جميل عواطفك!

فقال المأمور بهدوء وهو يبتسم:

ـ ولا تنس أننى لم أبهدل البيت!

ـ نعم يا سيدى، إنى لا أدرى كيف أشكرك!

وإذا به يلتفت نحوه متسائلاً:

ـ حضرتك أخو المرحوم فهمى؟

فاتسعت عينا كمال دهشة وقال:

ـ نعم، أكنت تعرفه؟

ـ كنا أصدقاء، رحمه الله..

فقال كمال برجاء:

ـ مصادفة سعيدة.. (وهو يمد له يده).. كمال أحمد عبد الجواد.. فصافحه الرجل قائلاً:

ـ حسن إبراهيم مأمور قسم الجمالية! بدأت فيه ملازمًا وعدت إليه فى آخر المطاف مأموراً..

ثم وهو يهز رأسه:

ـ كانت الأوامر صريحة، أرجو ألا يثبت عليهما ما يدينهما.

وهنا ترامى إليهما صوت خديجة وهى تحدث أمها وعائشة بما كان وتبكى فقال:

ـ هذه أمهما، عرفتنى بذاكرتها العجيبة ثم ذكرتنى بالمرحوم ولكن بعد أن كان التفتيش الدقيق قد وقع، طمئنها ما أمكنك.

ثم نزلا معًا جنبًا إلى جنب، وعند مرورهما بالدور الثانى مرقت عائشة من الباب فى حدة بادية وحدجت المأمور بنظرة قاسية وصاحت به:

ـ لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب؟ ألا تسمع بكاء أمهما؟

فانحرف بصر المأمور إليها كرد فعل للمفاجأة ثم غض بصره تأدبًا وهو يقول :

ـ سيطلق سراحهما عما قريب إن شاء الله . .

ثم سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثانى :

ـ والدتك؟

ـ بل شقيقتى! لم تجاوز الرابعة والأربعين ولكنها عانت من سوء الحظ ما حطمها . .

والتفت المأمور إليه كالداهش، وخيل إليه بأنه هم أن يطرح سؤالاً، ولكنه تردد لحظة ثم عدل عما كان هم به، وتصافحا فى الفناء، وقبل أن يمضى الرجل إلى سبيله سأله كمال :

ـ أمن المستطاع أن أزورهما فى السجن؟

ـ نعم . .

ـ شكرًا . .

وعاد كمال إلى الصالة فانضم إلى أمه وشقيقتيه وهو يقول :

ـ سأزورهما غداً، لا داعى للخوف، وسوف يطلق سراحهما عقب التحقيق معهما . .

وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة فى نرفزة :

ـ لا تبك، كفانا بكاء، سيعودان إليك ألا تسمعين؟

فولولت خديجة قائلة :

ـ لا أدرى . . لا أدرى . فى السجن يا ولداه!

وكانت أمينة صامتة كأن الحزن أخرسها، فقال كمال فى لهجة توحى بالطمأنينة :

ـ المأمور يعرفنا، كان صديق المرحوم فهمى، وقد تلطف بنافى التفتيش لدرجة لا تصدق، ولا شك أنه سيرعاهما بعطفه!

فرفعت الأم رأسها كالمتسائلة فقالت خديجة فى حنق :

ـ حسن إبراهيم ، ألا تذكرينه يا أمى؟ وقد أخبرته بأننى أخت فهمى فما كان منه إلا أن قال : إننا ننفذ الأوامر يا هانم! أوامر فى عينه . . !

واتجهت عينا الأم نحو عائشة ولكنها لم يبد عليها أنها ذكرت شيئًا . .

ثم انتحت أمينة بكمال جانبًا وراحت تقول له فى قلق بالغ :

ـ لم أفهم شيئًا يا بنى ، لماذا قبض عليهما؟

فتفكر كمال فيما ينبغى قوله ، ثم قال :

ـ الحكومة تظن خطأ أنهما يعملان ضدها!

فهزت رأسها فى حيرة وقالت :

ـ أختك تقول إنهم قد قبضوا على عبد المنعم لأنه من الإخوان المسلمين ، لماذا يقبضون على المسلمين؟

ـ الحكومة تظنهم يعملون ضدها . .

ـ وأحمد؟! قالت إنه . . ، نسيت الكلمة يا بنى؟!

ـ شيوعى؟ الشيوعيون كالإخوان فى ظن الحكومة!

ـ الشيوعيون؟! أشياع سيدنا على؟

فدارى كمال ابتسامة وقال :

ـ الشيوعيون لا الشيعة ، هم حزب ضد الحكومة والإنجليز! . .

فتنهدت المرأة فى حيرة وقالت :

ـ متى يفرج عنهما؟ انظر إلى أختك المسكينة! الحكومة والإنجليز . ألم يجدوا إلا بيتنا المصاب؟!

٥٣

كان أذان الفجر يسرى فى الصمت الشامل حين استدعى مأمور قسم الجمالية عبد المنعم وأحمد إلى حجرته، ومثلا أمام مكتبه يسوقهما جندى مسلح، فأمره المأمور بالانصراف، ومضى يتفحصهما باهتمام، ثم نظر إلى عبد المنعم وسأله:

ـ اسمك وسنك وصناعتك؟

فأجاب عبد المنعم بهدوء وثبات:

ـ عبد المنعم إبراهيم شوكت، خمسة وعشرون عامًا، محقق بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف.

ـ كيف تخرق قوانين الدولة وأنت من رجال القانون؟!

ـ لم أخرق قانونًا، ونحن نعمل جهاراً فنكتب فى الصحف ونخطب فى المساجد، إن الذين يدعون إلى الله لا يجدون ما يخفونه.

ـ ألم تحدث فى بيتك اجتماعات مريبة؟

ـ كلا، كانت اجتماعات عادية مما تجمع بين الأصدقاء لتبادل الرأى والمشورة والتفقه فى الدين..

ـ وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على معاداة دول حليفة؟

ـ أتعنى بريطانيا يا سيدى؟ إنها عدو غادر، الدولة التى تدوس كرامتنا بالدبابات لا يمكن أن تكون دولة حليفة..

إنك رجل مثقف، وكان ينبغى أن تدرك أن للحرب ظروفًا تبيح المحظورات!

ـ إنى أدرك أن بريطانيا هى عدونا الأول فى هذا الوجود!.

والتفت المأمور إلى أحمد متسائلاً:

ـ وأنت؟

فأجاب أحمد وعلى شفتيه شبه ابتسامة:

ـ أحمد إبراهيم شوكت، أربعة وعشرون عامًا، محرر بمجلة الإنسان الجديد..

ـ هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة، فضلاً عن أنه من المسلم به أن مجلتك سيئة السمعة..

ـ مقالاتى لا تعدو الدفاع عن مبادئ العدالة الاجتماعية..

ـ شيوعى حضرتك؟

ـ إنى اشتراكى، وكثير من النواب يدعون إلى الاشتراكية، والقانون نفسه لا يؤاخذ الشيوعى على رأيه ما دام لا يلجأ إلى أساليب العنف..

ـ أكان ينبغى أن ننتظر حتى تتمخض الاجتماعات التى تعقد كل مساء فى شقتك عن العنف؟

وتساءل فى نفسه ترى هل وقفوا على سر المنشورات والمحاضرات الليلية؟!

وأجاب:

ـ إنى لا أجتمع فى بيتى إلا بالأصدقاء المقربين، ولم يزد عدد زوارى يومًا عن أربعة أو خمسة، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف..

وردد المأمور نظره بينهما ثم قال بعد تردد:

ـ إنكما مثقفان و . . مهذبان، ومتزوجان أليس كذلك؟ حسن، أليس من الأفضل لكما أن تهتما بشئونكما الخاصة وأن تجنبا نفسيكما الهلاك؟ . .

فقال عبد المنعم بصوته القوى :

ـ إنى أشكر لك نصيحتك التى لن أعمل بها . .

فندت عن المأمور ضحكة مقتضبة كأنما على رغمه، ثم قال :

ـ علمت فى أثناء التفتيش أنكما حفيدا المرحوم أحمد عبدالجواد، وقد كان خالكما المرحوم فهمى صديقًا حميمًا لى، وأظنكما تعلمان أنه فقد حياته فى ربيع العمر على حين أن زملاءه ظلوا على قيد الحياة حتى تبوأوا أكبر المناصب . .

فقال أحمد وقد أدرك السر فى لطف المأمور الذى حيره :

ـ دعنى أسألك يا سيدى عما كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالى وأمثاله؟ !

فهز الرجل رأسه وقال :

ـ فكرا فى نصيحتى بعقل وروية ودعكما من هذه الفلسفة المهلكة !

ثم وهو يقف :

ـ ستبقيان ضيفين فى سجننا حتى تدعوا إلى التحقيق، أرجو لكما حظًا سعيدًا . .

وغادرا الحجرة حيث تسلمهما أونباشى وجنديان مسلحان، ومضوا جميعًا إلى الدور الأرضى، ثم عرجوا إلى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلاً حتى استقبلهم السجان بكشافه الكهربائى كأنما ليدلهم على باب السجن، وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثم صوب ضوءه إلى الداخل ليهتديا به إلى برشيهما، وأضاء الكشاف المكان فبدأ متوسط المساحة عالى السقف، ذا نافذة صغيرة فى أعلى جداره تعترضها القضبان

الحديدية. وكان عامراً بالضيوف، فيهم شابان على هيئة الطلبة، وثلاثة رجال حفاة مجفوى المنظر شائهى الخلقة. وما لبث أن أغلق الباب وساد الظلام، غير أن الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه همسًا:

ـ لن أجلس وإلا قتلتنى الرطوبة، فلننتظر الصبح واقفين!

ـ سنضطر إلى الجلوس عاجلاً أو آجلاً، أعلمت متى نبرح هذا السجن؟

وإذا بصوت ـ أدركا بالبداهة أنه لأحد الشابين ـ يقول:

ـ لابد من الجلوس، ليس هو بالشىء السار ولكنه أخف من الوقوف أيامًا..

ـ هل مكثتما طويلاً؟

ـ منذ ثلاثة أيام!

وساد الصمت حتى عاد الصوت يسأل:

ـ لماذا قبض عليكما؟

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلاً:

ـ أسباب سياسية فيما يبدو..

فقال الصوت ضاحكا:

ـ صارت الأغلبية أخيراً للسياسيين فى هذا السجن، كنا قبل تشريفكما أقلية..

فسأله أحمد:

ـ وما تهمتكما؟

ـ تكلما أنتما أولاً، فأنتما أحدث مقامًا! وإن يكن لا داعى لسؤال بعد أن رأينا لحية أحدكما الإخوانية؟!

فسأله أحمد وهو يبتسم فى الظلام :

ـ وأنتما؟

ـ كلانا طالب فى الحقوق متهم بتوزيع منشورات هدامة كما يقولون . .

فثار أحمد وسأله :

ـ أضبطتما متلبسين .

ـ نعم . .

ـ وماذا كان فى المنشورات؟

ـ بيان بتوزيع الثروة الزراعية فى مصر .

ـ هذا مما تنشره الصحف فى ظل الأحكام العرفية نفسها!

ـ يضاف إليه شوية توجيهات حماسية!

فابتسم أحمد مرة أخرى فى الظلام وقد تخفف من وحشته لأول مرة، وعاد صاحب الصوت يقول :

ـ إننا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف الاعتقال . .

ـ إن الأمور تبشر بتغير شامل . .

ـ لكننا سنظل الهدف فى جميع العهود . .

وإذا بصوت غليظ يعلو فى خشونة قائلاً :

ـ كفاكما كلاما ودعونا ننام . .

ولكن صوته أيقظ زميلا من زميليه فتثاءب متسائلاً :

ـ طلع الصبح؟

فأجابه الأول هازئًا :

ـ كلا، ولكن أصحابنا يحسبون أنفسهم فى غرزة . .

تنهد عبد المنعم وهمس بصوت لم يسمعه إلا أحمد :

ـ أيزج بى إلى هذا المكان لا لسبب إلا أننى أعبد الله؟!

فهمس أحمد فى أذنه باسمًا :

ـ وما ذنبى أنا الذى لا أعبده؟!

لم يشأ أحد بعد ذلك أن يرفع صوته، وراح أحمد يسأل نفسه عما دعا إلى القبض على الآخرين، سرقة أم مشاجرة أم سكر وعربدة؟ طالما كتب عن الشعب وهو مدثر بمعطف فى حجرة مكتبه الجميلة، هاهو الشعب يلعن أو يغط فى نومه، وهذه الوجوه الكالحة البائسة التى رآها على ضوء الكشافات لحظات، وذلك الرجل الذى كان يحك رأسه وما تحت إبطيه فلعل قمله يزحف نحوهما دائبا، هذا هو الشعب الذى تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكر ملامسته؟! هذا الرجل المناط به خلاص الإنسانية ينبغى أن يمسك عن شخيره وأن يعى موقفه التاريخى حتى ينهض لإنقاذ العالم جميعًا! وقال لنفسه: «إن موقفا إنسانيًا واحداً هو الذى جمعنا على اختلاف مشاربنا فى هذا المكان المظلم الرطب. الأخ والشيوعى والسكير والسارق على السواء، كلنا واحد على تفاوت فى قوة المناعة أو الحظ». وحدث نفسه مرة أخرى فقال: لماذا لا تعنى بشئونك الخاصة، هكذا يقول المأمور، ولى زوجة محبوبة ورزق موفور، والحق أن الإنسان قد يسعد بما هو زوج أو موظف أو أب أو ابن ولكنه مقضى عليه بالمتاعب أو بالموت نفسه بما هو إنسان. وسواء أقضى عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهم هو ما يتراءى لعينيه فى أفق حياته، وعاد يتساءل: ماذا يدفعنى فى هذا السبيل الخطير الباهر؟ ألا أنه الإنسان الكامن فى أعماقى، الإنسان الواعى لذاته المدرك لموقفه الإنسانى التاريخى العام، وإن ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هى أنه يستطيع أن يقضى على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه. . .

وشعر بالرطوبة تسرى فى ساقيه والإعياء يتخلل مفاصله، وكان

الشخير يتردد فى الأركان بإيقاع موصول، ثم لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة طلائع من النور وانية رقيقة. .

٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعه واجما، ثم لحق به فى الصالة وحدجه بعينين متسائلتين، قال الطبيب بهدوء:

ـ يؤسفنى أن أخبرك بأنها حالة شلل كلى. .

فانقبض صدر كمال انقباضًا شديدًا وسأله:

ـ حالة خطرة؟

ـ طبعًا! وقد أصيبت فى الوقت نفسه بالتهاب رئوى، ولذلك فالحقن ضرورية لإراحتها. .

ـ أليس هناك أمل فى الشفاء؟

فصمت الطبيب قليلاً ثم قال:

ـ الأعمار بيد الله، أما الطبيب فيقرر فى حدوده أن هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاث أيام. .

وتلقى كمال نذير الموت بتجلد، وأوصل الطبيب إلى الباب الخارجى ثم عاد إلى الحجرة. وكانت الأم نائمة، أو كالنائمة، لا يبدو من الغطاء الكثيف إلا وجهها الشاحب وفوها المطبق فى شىء من الاعوجاج. وكانت عائشة واقفة حيال السرير فأقبلت نحوه متسائلة:

ـ ما لها يا أخى؟ ماذا قال الطبيب؟

وقالت أم حنفى من موقفها عند مقدم الفراش:

ـ إنها لا تتكلم يا سيدى، لم تتكلم كلمة واحدة. .

وقال لنفسه : ولن يسمع لها صوت بعد الآن، ثم قال مجيبًا أخته :

ـ حالة ضغط مصحوبة بإصابة برد خفيفة، سوف تريحها الحقن!

فقالت عائشة، ولعلها كانت تخاطب نفسها :

ـ إنى خائفة، وإذا كانت سترقد هكذا طويلاً فكيف تحتمل الحياة فى هذا البيت؟

فتحول عنها إلى أم حنفى وسألها :

ـ هل أخبرت الجماعة؟

ـ نعم يا سيدى، وستحضر ست خديجة وسى ياسين فى الحال، ما لها يا سيدى؟ كانت فى الصباح فى تمام الصحة والعافية . .

كانت! . . وهو يشهد بذلك! وقد مر بالصالة كعادته كل صباح قبل انطلاقه إلى مدرسة السلحدار، فتناول فنجان القهوة الذى قدمته له وهو يقول :

ـ لا تغادرى البيت اليوم فالجو بارد جداً .

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت :

ـ وكيف يطيب لى اليوم دون زيارة سيدك؟

فقال محتجًا :

ـ افعلى ما يحلو لك، إنك عنيدة يا أماه!

فتمتمت :

ـ ربك الحافظ . .

ثم وهو يغادر المكان :

ـ ربنا يسعد أيامك . .

وكان هذا آخر عهده بيقظتها، وقد جاءه نبأ مرضها ظهراً فى المدرسة

فعاد مصطحبًا الطبيب الذى نعاها إليه سلفًا منذ دقائق. أجل لم يبق إلا ثلاثة أيام!

ترى كم يومًا تبقى له هو؟ واقترب من عائشة وسألها:

ـ متى وكيف وقع لها ما وقع؟

فأجابت عنها أم حنفى قائلة:

ـ كنا جالستين فى الصالة، ثم قامت متجهة نحو حجرتها لترتدى معطفها وتخرج وهى تقول لى «عندما أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة»، وذهبت إلى الحجرة، وبعد دخولها مباشرة ترامى إلى أذنى صوت وقوع شىء فهرعت إلى الداخل فوجدتها ملقاة على الأرض بين السرير والدولاب، فجريت نحوها وأنا أنادى ست عائشة..

وقالت عائشة:

ـ جئت مسرعة فوجدتها فى هذا المكان، فحملناها إلى السرير، وجعلت أسألها عما بها ولكنها لم تجبنى، ولم تتكلم، متى تتكلم يا أخى؟

فأجاب فى ضيق:

ـ عندما يشاء الله!..

وتراجع إلى الكنبة ثم جلس، ومضى ينظر فى حزن إلى الوجه الشاحب الصامت، أجل لينظر إليه طويلاً فعما قريب لن يكون له إلى رؤيته سبيل. هذه الحجرة نفسها ستتغير معالمها وستتغير بالتالى معالم البيت فى مجموعه، ولن ينادى به أحد «أمى»، لم يكن يتصور أن موتها سيحمل قلبه هذا الألم كله، ألم يألف الموت بعد؟.. بلى، ولديه من العمر والتجربة ما يقيه الجزع، ولكن لذعة الفراق الأبدى موجعة، ولعله مما يلام عليه قلبه أنه رغم ما كابد من ألم يتألم كالقلب الغض.

وكم أحبته، وكم أحبت الجميع، وكم أحبت كل شيء فى الوجود، ولكن هذه السجايا الطيبة لا تعيها النفس إلا عند الفراق، ففى هذه اللحظة الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث يهتز لها من أعماقه، وهاهى يخالط نورها الظلام، وتمتزج فيها زرقة الفجر بحديقة السطح، ومجمرة مجلس القهوة بالأساطير، وهديل الحمام بأغنيات حلوة، وكان حبا رائعًا أيها القلب الجاحد، ولعلك تقول غداً بحق إن الموت استأثر بأحب الناس إليك، ولعل عينيك أن تدمعا حتى يزجرك المشيب. والنظر إلى الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكية طفلية والأجدر بك أن تنظر إليها فى شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة هى الموت. ثم سائل نفسك إلام تضيع حياتك هباء؟ إن الأم تموت وقد صنعت بناء كاملاً فماذا صنعت أنت؟

* * *

واستيقظ على صوت أقدام، وإذا بخديجة تدخل الحجرة مرتاعة وتتجه نحو الفراش وهى تنادى أمها وتسألهم عما حل بها. وتضاعف ألمه حتى خاف أن يخونه تجلده فغادر الحجرة إلى الصالة، وما لبث أن جاء ياسين وزنوبة ورضوان، فصافحوه، وأخبرهم عن مرضها دون التفاصيل، فذهبوا إلى الحجرة ولبث وحيداً حتى عاد إليه ياسين وهو يسأله:

ـ ماذا قال لك الطبيب؟

فقال فى وجوم:

ـ شلل والتهاب رئوى، سينتهى كل شيء فى خلال ثلاثة أيام..

فعض ياسين على شفته وقال بحزن:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله..

ثم جلس وهو يتمتم:

ـ مسكينة، كان كل شيء مفاجئا! ألم تشك تعبًا فى الأيام الأخيرة؟

ـ كلا، إنها لم تعتد الشكوى كما تعلم، ولكنها كانت تبدو أحيانًا كالمتعبة. .

ـ ليتك عرضتها على الطبيب من قبل!

ـ لم يكن أبغض إلى نفسها من سيرة الطبيب! . .

وانضم إليهما رضوان بعد حين فقال لكمال:

ـ أرى أن تنقل إلى المستشفى يا عمى!

فقال كمال وهو يهز رأسه فى حزن:

ـ لا داعى إلى ذلك، وسيرسل الصيدلى ممرضة يعرفها لتحقنها. .

ولاذوا بالصمت والوجوم يعلو وجوههم، وعند ذاك ذكر كمال أمرا تقتضى المجاملة ألا يهمله فسأل ياسين:

ـ كيف حال كريمة؟ . .

ـ ستلد فى بحر هذا الأسبوع، أو هذا ما تؤكده الحكيمة.

فتمتم كمال:

ـ ربنا يأخذ بيدها. .

فقال ياسين:

ـ سيخرج الوليد إلى الدنيا وأبوه فى المعتقل. .

ودق الجرس، فكان القادم رياض قلدس، وقد استقبله كمال ومضى به إلى حجرة مكتبه، وفى الطريق إلى الحجرة قال رياض:

ـ سألت عنك فى المدرسة فأخبرنى السكرتير بالخبر، كيف حالها:

ـ أصيبت بشلل وأخبرنى الطبيب بأنها ستنتهى فى ظرف ثلاثة أيام. .

فوجم رياض وتساءل:

ـ أليس هنالك حيلة ما؟
فهز كمال رأسه يائسًا، وقال:
ـ لعله من حسن الحظ أنها فى غيبوبة لا تدرى عما ينتظرها شيئًا. .
ثم فى لهجة ساخرة وهما يجلسان:
ـ ولكن هل ندرى نحن عما ينتظرنا شيئًا؟
وابتسم رياض دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:
ـ كثيرون يرون أن من الحكمة أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير فى الموت، والحق أنه يجب أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير فى الحياة. .
فقال رياض باسما:
ـ هذا أفضل فيما أرى، كذلك فلنسأل أنفسنا عند الموت ـ أى موت ـ ماذا صنعنا بحياتنا؟
ـ أما أنا فلم أصنع بحياتى شيئًا، هذا ما كنت أفكر فيه. .
ـ بيد أنك مازلت فى منتصف الطريق! . .
ربما نعم، وربما لا، غير أنه من المستحسن دائمًا أن يتأمل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام، على ذلك فالتصوف هروب، كما أن الإيمان السلبى بالعلم هروب، وإذن فلا بد من عمل، ولا بد للعمل من إيمان، والمسألة هى كيف نخلق لأنفسنا إيمانًا جديرًا بالحياة. قال:
ـ حسبتنى قد أديت للحياة واجبها بالإخلاص لمهنتى كمعلم وبكتابة المقالات الفلسفية. .
قال رياض بعطف:
ـ وقد أديت واجبًا بلا شك!
ـ ولكننى عشت معذب الضمير كما ينبغى لكل خائن!
ـ خائن؟!

فتنهد كمال وقال:

ـ دعنى أخبرك بما قال لى أحمد ابن أختى عندما زرته فى سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل . .

ـ على فكرة، أما من جديد عنهما؟

ـ لقد رحلا مع كثيرين إلى معتقل الطور . .

فتساءل رياض باسمًا:

ـ الذى يعبد الله والذى لا يعبده؟

ـ يجب أن تعبد الحكومة أولاً كى تعيش مطمئنا . .

ـ على أى حال الاعتقال أخف فى نظرى من المحاكمة!

ـ هذا رأى، ولكن متى تنكشف هذه الغمة؟ متى ترفع الأحكام العرفية؟ متى يعود السلطان إلى القانون الطبيعى والدستور متى يعامل المصريون كالآدميين؟!

فجعل رياض يعبث بخاتم الزواج فى يسراه، ثم قال بحزن:

ـ نعم متى؟ ما علينا، ماذا قال أحمد فى سجن القسم؟

ـ نعم، قال لى إن الحياة عمل وزواج وواجب إنسانى عام، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه أما الواجب الإنسانى العام فهو الثورة الأبدية، وما ذلك إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة فى تطورها نحو المثل الأعلى . .

فتفكر رياض قليلاً ثم قال:

ـ رأى جميل، ولكنه يتسع لكافة المتناقضات . .

ـ نعم، ولذلك وافقه عليه أخوه ونقيضه عبد المنعم، ولذلك فهمته على أنه دعوة إلى الإيمان أيًا كان مشربه وأيًا كانت غايته، ولذلك

فإنى أعلل تعاستى بعذاب الضمير الخليق بكل خائن، قد يبدو يسيرا أن تعيش فى قمقم أنانيتك ولكن من العسير أن تسعد بذلك إذا كنت إنسانًا حقًا..

فأشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال:

ـ هذا بشير بانقلاب خطير يوشك أن يقع!

فقال كمال فى حذر:

ـ لا تسخر منى، إن مشكلة الإيمان مازالت قائمة بدون حل، وغاية ما أستطيع أن أعزى به نفسى هو أن المعركة لم تنته، ولن تنتهى ولو لم يبق من عمرى إلا ثلاثة أيام كأمى..

ثم وهو يتنهد:

ـ أتعلم ماذا قال أيضًا؟ قال: إنى أومن بالحياة وبالناس، وأرى نفسى ملزمًا باتباع مثلهم العليا مادمت أعتقد أنها الحق إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسى ملزمًا بالثورة على مثلهم ما أعتقدت أنها باطل إذ النكوص عن ذلك خيانة، وهذا هو معنى الثورة الأبدية!

وجعل رياض ينصت وهو يهز رأسه موافقًا، ثم بدا على كمال الإعياء والضيق فقال رياض:

ـ أنا مضطر إلى الذهاب فما رأيك فى أن تصحبنى إلى محطة الترام لعل المشى يريح أعصابك!

ونهضا معا وغادر الحجرة، وقابلا ياسين عند مدخل الدور الأول ـ وكان على معرفة سطحية برياض ـ فدعاه كمال إلى مصاحبته. غير أنه استأذن منهما دقائق ريثما يلقى نظرة على أمه، ومضى إلى حجرتها فوجدها كما تركها فى غيبوبة. وكانت خديجة جالسة فى الفراش عند قدميهاوقد احمرت عيناها من البكاء، وعلت وجهها الكآبة التى لم

تفارقه منذ امتدت يد الحكومة إلى ابنيها، أما زنوبة وعائشة وأم حنفى فقد جلسن على الكنبة صامتات، وكانت عائشة تدخن سيجارة فى سرعة وقلق، على حين راحت عيناها تجولان فى المكان فى اضطراب عصبى، وسألهن:

ـ كيف حالها؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينم عن الضيق والاحتجاج:

ـ لا تريد أن تصحو!

وحانت منه التفاتة إلى خديجة فتبادلا نظرة طويلة دلت على تفاهم حزين ويأس مشترك فلم يتمالك إلا أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه..

وساروا فى الطريق متمهلين، فقطعوا الصاغة إلى الغورية فى شبه صمت، وعندما بلغوا الصنادقية صادفوا الشيخ متولى عبد الصمد ينحدر منها إلى الغورية متوكئا على عصاه، فى خطوات مخلخلة، وقد كف بصره وارتعشت أطرافه، وكان يتلفت فيما حوله متسائلاً فى صوت مرتفع:

ـ من أين طريق الجنة؟

فأجابه مار وهو يضحك:

ـ أول عطفة على يمينك..

وقال ياسين لرياض قلدس:

ـ أتصدق أن هذا الرجل قد جاوز المائة بما يقرب من عشرة أعوام؟..

فقال رياض باسمًا:

ـ إنه لم يعد رجلا على أى حال..

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متولى بعطف، كان يذكر به أباه، وكان يعده معلمًا من معالم الحى كالسبيل القديم وجامع قلاوون وقبو قرمز،

ووجد كثيرين وهم يعطفون عليه، غير أن العجوز لم يسلم من شقاوة بعض الغلمان الذين راحوا يصفرون فى وجهه أو يتبعونه محاكين حركاته.

وأوصلا رياض حتى محطة الترام، وانتظر معه حتى ركب، ثم عادا معًا إلى الغورية، وتوقف كمال عن السير فجأة وقال لأخيه:

ـ آن لك أن تذهب إلى القهوة . .

فقال ياسين بحدة:

ـ كلا، سأبقى معك . .

وكان كمال من أعرف الناس بمزاج أخيه، فقال:

ـ لا داعى إلى ذلك ألبتة . .

فدفعه ياسين أمامه وهو يقول:

ـ إنها أمى كما أنها أمك!

وداخل كمال بغتة شعور بالخوف على ياسين! حقًا إنه يسير مكتظا بالحياة فى ضخامة الجمل ولكن إلام يحتمل حياته المفعمة بالأهواء؟. وطفح فؤاده بالكآبة، غير أن فكره طار فجأة إلى الطور، إلى المعتقل. إنى أومن بالحياة والناس، هكذا قال، وأرى نفسى ملزمًا باتباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق إذا النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسى ملزمًا بالثورة على مثلهم ما أعتقدت أنها باطل إذا النكوص عن ذلك خيانة! وقد تسأل ما الحق وما الباطل، ولكن لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السلبى بالعلم فهل تستطيع أن تكون مدرسًا مثاليًا وزوجًا مثاليًا وثائرًا أبديًا؟!

وعندما مرا بدكان الشرقاوى توقف ياسين وهو يقول:

ـ كلفتنى كريمة بأن أستبضع لها بعض اللوازم للمولود المنتظر . . عن إذنك . .

ودخلا الدكان الصغير ، وراح ياسين ينتقى ما يريد من لوازم المولود المنتظر : قماطا وطاقية ومنامة ، وعند ذلك تذكر كمال أن رباط عنقه الأسود الذى استعمله عامًا حداداً على والده قد استهلك ، وأنه يلزمه آخر جديد ليواجه به اليوم الحزين ، فقال للرجل حين فرغ من ياسين :

ـ رباط عنق أسود من فضلك . .

وتناول كل لفافته ، وغادرا الدكان .

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنبًا إلى جنب نحو البيت . .

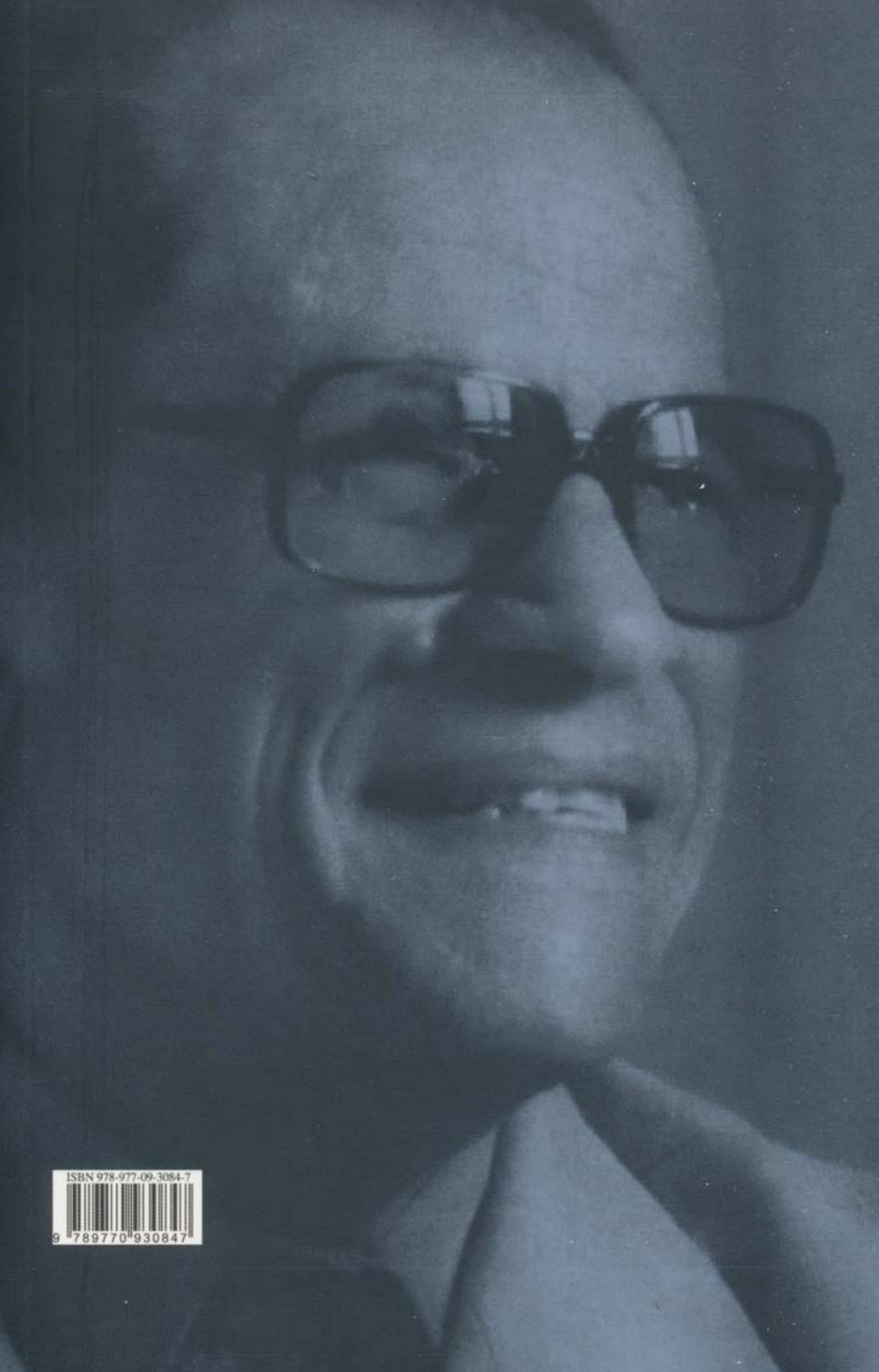
(تمــت)

أعمال نجيب محفوظ

١ -	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ -	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ -	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ -	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ -	الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

م	العنوان	النوع	السنة
٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم السـرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبـاح الـورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشـــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صـــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتـــوة العطـــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤


ISBN 978-977-09-3084-7
9 789770 930847